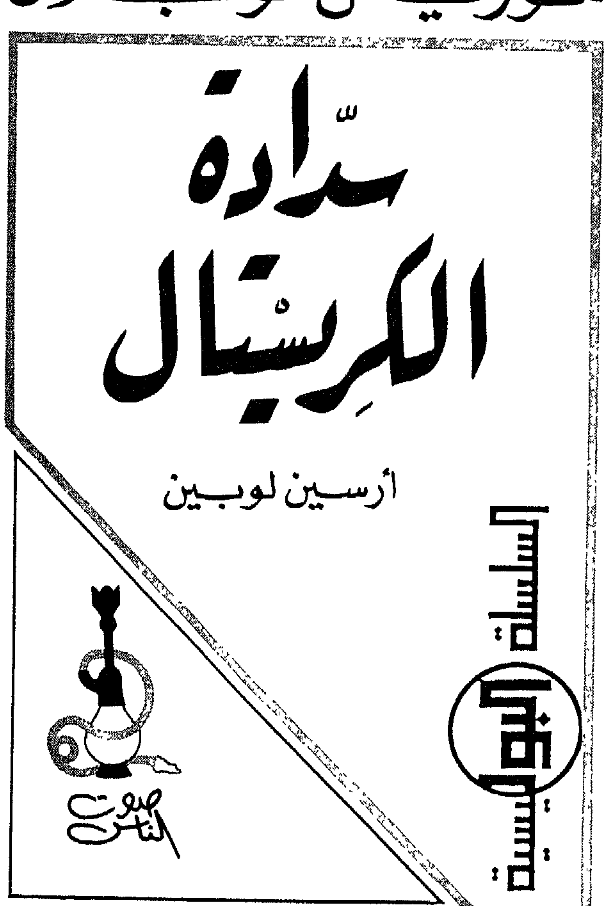

موريس لوبلان
سدادة الكريستال

سدارة الكريستال

موريس لوبلان



LE BOUCHON DE CRISTAL

by

MAURICE LEBLANC
(ARSENE LUPIN)

ترجمة

ابراهيم جزيني

ARABIC EDITION 1994

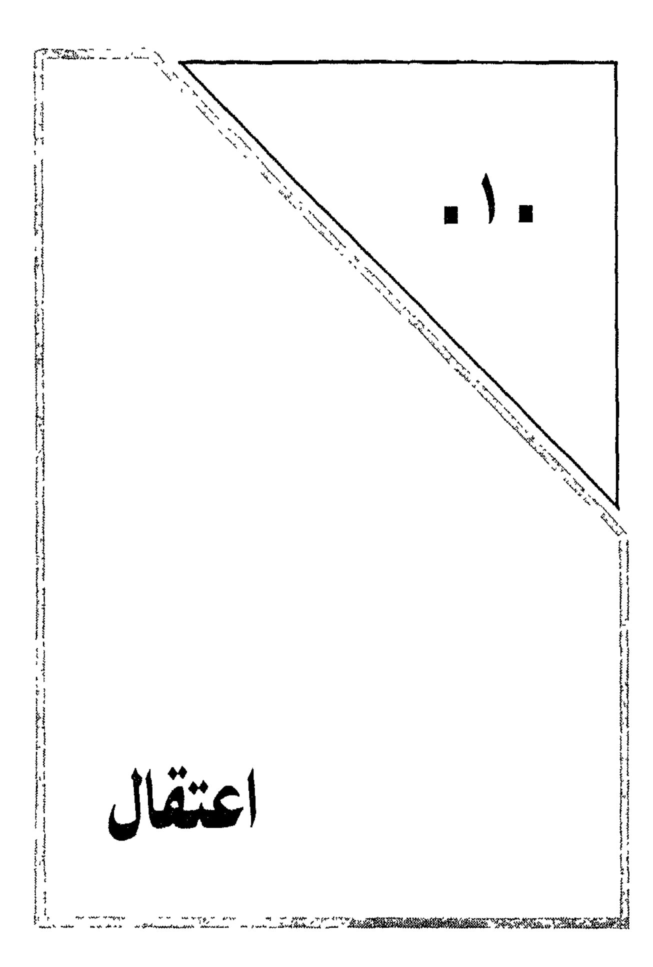
P.O.Box:7038 - Limassol
CYPRUS
P.O.Box:113/5796 -Beirut
LEBANON

ISBN 1-85513-212-5



الطبعة الأولى، كانون الثاني/يناير ١٩٩٤
الغلاف: تصميم رملة شماعة
رسوم شيفورن كوريفان

المحتويات



١٠

اعتقال

كـان القاربـان يتـأرجحـان في الظـل وقـد ربطـا إلى مكسر الأمـواج المنصوب خـارج الحديقـة. وكـان المـرء قـادراً عـلى مشاهدة نوافذ مضاءة عند ضفاف البحيرة من خـلال الضباب الكثيف. وفي الجهة المقابلة كان «كازينو انجيان» يشع بـالأنوار مع العلم أن الصيف كان قد ولى وكان شهـر أيلول (سبتمبـر) يودع أيامه الأخيرة وبدت من خلال الغيوم نجوم قليلـة. وضرب صفحة مياه البحيرة هواء خفيف حرّك ركودها.

خـرج أرسين لـوبين من كتـك في طـرف الحـديقـة وبيـده سيجارته فانحنى فوق المكسر يقول:

ـ أنتم هنا أيها المتذمرون؟

وخرج من كل قارب رجل وأجاب أحدهما:

ـ أجل. يا معلم.

ـ استعـدوا. إني أسمع محـرك السيارة العـائـدة بجيلبـير وفوشري.

عَبَرَ الحديقة واستدار حول المنزل الذي لم يكتمل بناؤه بعد. الصقالات كانت هناك. اقترب لوبين وفتـح بحذر شـديد البـاب المطل على جادة لاسنتور

لم يخطىء في التقديـر.. إذ شـع نـور قـوي عنـد المنعطف وتـوقفت أمامـه سيارة مكشـوفة خـرج منها رجـلان يرتـديان معطفين بياقتين مرفوعتين.. كانا جيلبير وفوشري.

كان جيلبير فتى في العشرين أو الثانية والعشرين من العمـر ذا وجـه لطيف.. في مشيته مـرونة وقـوة.. بينما كـان فـوشري أصغر منه سناً.. شعره رمادي.. شاحب الوجه.

سألهما لوبين:

ـ حسناً، هل رأيتما النائب؟

رد جيلبير:

ـ نعم يـا معلم. رأيناه يستقـل قطـار السـاعـة السـابعـة والأربعين باتجاه باريس.. كما كنا نعرف.

ـ في هذه الحالة، هل نحن أحرار لنتصرف؟

ـ أحرار تماماً. وفيلا ماري تريز تحت تصرفنا.

تطلع لوبين إلى السائق الذي لا زال وراء مقوده في السيـارة وقال له:

ـ لا تقف هنـا. هذا يمكن أن يلفت الأنظـار. عد إلينـا عند الساعة التاسعة والنصف بـالتحديـد لتقوم بتحميـل السيارة.. هذا إذا لم يطرأ ما يفشل العملية.

وسأله جيلبير:

ـ لماذا تريدها أن تتعثر؟

انطلقت السيارة وسلك لوبين طريق البحيرة من جديد وقال:

ـ تسألون لماذا؟ لأنني لست أنا الذي أعد الضربة، وإذا لم

أكن أنا وراء ذلك فإن ثقتي بالنجاح ستضعف إلى النصف.

ـ منذ ثلاث سنوات وأنا أعمل معك يا معلم. وبدأت أفهم كيف تخطط.

رد لوبين قائلاً.

ـ أجل. يا فتى. لقد بدأت تفهم وهذا بالضبط جل ما أخشاه.. هيا.. ابحر. وخذ أنت يا فوشري القارب الثاني. ابحرا الآن وبأقل ما يمكن من الضجيج.

أبحر الثلاثة فوراً باتجاه الضفة المواجهة، إلى شمال الكازينو.

كل ما صادفوه في طريقهم رجل وامرأة منزويان ومتعانقان في مركب وهما يستعدان لمغامرة عاطفية.. وعلى بعد أمتار قليلة في مركب آخر تجمع فوقه شبان يغنون بأعلى أصواتهم.

اقترب لوبين من رفيقه وقال بصوت خافت:

ـ قل لي يا جيلبير. هل أنت الذي فكّر بهذه الضربة أم فوشري؟

ـ لا أعرف تماماً. إنما نتكلم فيها نحن الإثنين منذ أسابيع.

ـ إني أرتاب في صدق نوايا فوشري وأظنه عنصراً سيئاً.. وأتساءل لماذا لا أتخلص منه؟

ـ ماذا تقول أيها المعلم؟

ـ نعم.. نعم.. إنه فتى قوي وخطير.. هذا بالإضافة إلى هفواته وزلاته المتعددة.

صمت لوبين برهة وعاد يسأل جيلبير:

- هل أنت متأكد من انك رأيت النائب دوبريك؟

- تمام التأكد. شاهدته بأم عيني.

- وكنت تعلم انه على موعد في باريس؟

- سيذهب إلى المسرح.

- حسناً. ولكن خدمه باقون في فيلته.

- طباخته مسرحة، بينما خادمه ليونارد، وهو محط ثقته ينتظره في باريس ولا يمكنهما أن يعودا قبل الساعة الواحدة صباحاً.. ولكن..

- ولكن ماذا؟

- يجب أن نتحسب إلى احتمال عودة دوبريك فجأة إلى فيلته لسبب أو لآخر وهو مزاجي في مثل هذه الحالات. ولهذا علينا أن نعد كل شيء وبسرعة كي ننتهي من العملية في ساعة واحدة.

- وتملك أيضاً مثل هذه المعلومات؟

- فكرت منذ الصباح الباكر أنا وفوشري بأن الوقت كان ملائماً. واخترت كنقطة انطلاق حديقة هذا المنزل قيد البناء والذي تركناه لتونا وهو مراقب. لقد أخطرت الرفيقين ليقودا المركب واتصلت بك هاتفياً. هذه هي كل القصة.

- هل المفاتيح لديك؟

- مفاتيح المدخل فقط.

- هل هي تلك الفيلا التي أتميزها هناك ومحاطة بحديقة؟

- أجل. إنها فيلا ماري تريز. ومثلها مثل الفيلتين الأخريين

المحاطتين بالحدائق.. ولا يسكنهما أحد منذ أسبوع. أمامنا الوقت الكافي لننقل منها ما نريد. إني أقسم لك يا معلم أن الأمر يستحق كل عناء.

وهمهم لوبين:

ـ المغامرة لا تستحق ذلك. وهي بدون رونق.

دخلا في جون صغير وشاهدا بعض الأدراج الحجرية يخفيها سطح متداع. تأكد للوبين أن نقل الأثاث سيكون سهلاً. ولكنه قال فجأة:

ـ أنظر إلى النور. هناك من يسكن الفيلا الآن.

ـ إنه قنديل غاز يا معلمي. النور ثابت ولا يتحرك.

بقي غرونيار إلى جانب القوارب يحرس ويراقب فيما اتجه رفيقه لوباهو المجذف الآخر نحو مرفأ جادة «لاسنتور» وبدأ لوبين ورفيقاه يزحفون في الظل إلى أسفل المدخل.

صعد جيلبير وتبعه الآخرون. تلمس القفل ثم مزلاج الأمن وفتحهما بسهولة ودخل الجميع إلى رواق الفيلا حيث كان قنديل الغاز مضيئاً.

التفت جيلبير نحو لوبين وقال

ـ هل رأيت ما قلته لك يا معلم؟

رد لوبين بصوت خافت:

ـ نعم. نعم. ولكن يبدو لي أن النور الذي كان يشع لم يكن مصدره من هناك.

ـ من أين إذن؟

ـ بصراحة لا أعرف شيئاً.. هل الصالون هنا؟

ـ لا. لقد احتاط لكل شيء وقام بتجميع الأثاث في الطابق الأول.. في غرفته الخاصة والغرف المجاورة لها.

ـ وأين السلّم؟

ـ إلى اليمين. خلف الستارة

توجه لوبين ناحية الستارة وأزاحها بسرعة وإذا به يفاجأ بباب يفتح ويخرج منه رجل شاحب ويصرخ مذعوراً:

ـ النجدة. أمسكوا القاتل.

وعاد مسرعاً إلى غرفته وأوصد الباب من ورائه.

وصرخ جيلبير:

ـ إنه الخادم ليونارد.

وقال فوشري:

ـ إذا قام بأي تصرف سيء سأقتله.

وأمره لوبين قائلاً:

ـ دعنا بسلام وانصرف عنا.

ثم اندفع يلاحق الخادم.

عبر أولاً غرفة طعام حيث شاهد فيها زجاجة وصحوناً فوق طاولة كبيرة إلى جانب مصباح كبير. ووجد ليونارد في مكتب صغير يهم عبثاً بفتح النافذة. فنهره قائلاً:

ـ لا تتحرك أيها الفنان. إياك أن تمزح معي أيها القذر.

انبطح لوبين أرضاً عندما شاهد ليونارد يهم برفع يده فوقه. ثم دوت في المكتب المظلم أصوات الرصاص وانهار ليونارد..

فأمسك به لوبين من ساقيه وانتزع سلاحه وضغط عنقه وقال:

ـ أيها القذر. كدت أن تدمرني. تعال يا فوشري وكبّل هذا السيد الأنيق.

ثم تناول قنديلاً من جيبه فأضاء وجه الخادم وقال ساخراً

ـ هذا ليس عملاً جيداً نقوم به يا سيد ليونارد. إنك لا تعي الأمور على حقيقتها.. هل انتهيت يا فوشري؟ لا أريد أن أتعفن هنا.

قال جيلبير:

ـ لا خطر على الإطلاق يا معلم؟

ـ صحيح.. وصوت الرصاص الذي أطلقته.. ألا تعتقد، أن أحداً سمعه؟

ـ مستحيل إطلاقاً.

ـ لا يهم. يجب أن نتصرف بسرعة. هات القنديل يا فوشري وتعاليا نصعد.

أمسك لوبين بذراع جيلبير وقاده إلى الدور الأول وقال له.

ـ أهكذا تستقي معلوماتك أيها الأحمق؟ ألم أكن محقاً عندما شككت في الأمر؟

ـ لم يكن بالإمكان أن أعرف انه سيغير رأيه ويعود لتناول العشاء في فيلته.

ـ يجب أن نعرف كل شيء عندما يكون لنا شرف سرقة الناس.

هدأ منظر الأثاث في الدور الأول من غضب لوبين الذي بدأ

يعمل جردة للقيِّم منها وكأنه أحد كبار هواة جمع التحف يتملكه السرور والنشوة العارمة. وقال مخاطباً رفيقيه:

ـ عجيب. إنها أشياء قليلة ولكنها ثمينة. لم يكن الذوق الرفيع لينقص ممثل الشعب هذا: أربع كنبات من «الأوبيسون» ومكتب صغير وسكرتارية لا تجدها إلا في القصور الضخمة.. انتقاها من محلات «بيرسيه ـ فونتين». مصباحان جداريان من مصانع «غوتيير».. إنها إجمالاً تساوي ثروة. إني أعجب لأمر أولئك المتذمرين دائماً والمدعين بأنهم لا يجدون النادر والخاص من التحف. فليعملوا كما أعمل ويبحثوا عنها!

وبناءً على أوامر وتعليمات لوبين باشر جيلبير وفوشري على الفور بإخراج قطع الأثاث الأغلى والأكثر استعمالاً وفائدة. وبعد نصف ساعة كان المركب الأول قد امتلأ وتقرر أن يذهب غرونيار ولوباهو في الطليعة ويبدآن بنقل الأثاث من المركب إلى السيارة.

راقب لوبين ذهاب رفيقيه. وعندما عاد إلى المنزل بدا له وهو يعبر الرواق انه يسمع كلمات مصدرها ناحية المكتب. فدخل ليجد ليونارد وحده ينام على بطنه ويداه موثقتان وراء ظهره.

اقترب منه أكثر وقال:

ـ أأنت الذي يدمدم؟ لا تنفعل. لقد انتهينا تقريباً. ولكن إذا حاولت أن تصرخ عالياً ستجبرنا على اتخاذ إجراءات أقسى بحقك..

وما أن استعد لوبين للصعود بعد أن غادر المكتب، حتى عاد يسمع نفس الهمهمة. فاقترب من الباب وسمع ليونارد يردد:

ـ النجدة.. النجدة. سيقتلونني. أبلغوا قائد الشرطة.

ـ لقد جن الرجل نهائياً. يا للقذر. وأية نتيجة ترتجى من إقلاق الشرطة عند الساعة التاسعة مساءً؟

وعاد لوبين إلى العمل الذي استغرق منه وقتاً أكثر مما كان يتصور ويظن. فقد اكتشف خزانات مملوءة بالتماثيل الجميلة التي لا يستهان بها.

وفجأة تململ في مقعده وقال:

ـ يكفي ما حملناه ولا يمكن للباقي أن يفسد عمليتنا ونترك السيارة تنتظر في المحطة. هيا بنا نبحر فوراً.

ـ نحتاج إلى رحلة جديدة.. لا تستغرق أكثر من خمس دقائق.

ـ لماذا؟

ـ علمنا بوجود صندوق مدخرات قديم في الفيلا.. إنه شيء جيد تماماً.

ـ ماذا تعني؟

ـ يستحيل وضع اليد عليه بسهولة. وأظن أن في المكتب خزانة ضخمة فوقها قفل كبير.. ولعلك تدرك يا معلم انه لا يمكننا كسر المزلاج بسرعة..

عاد لوبين نحو المدخل ورأى فوشري مقبلاً نحوه:

ـ أمامكما عشر دقائق.. ولا دقيقة واحدة أكثر..

مرت الدقائق العشر ولا زال ينتظر.

نظر إلى ساعته وتمتم:

«التاسعة والربع، إنه عمل جنوني».

أثناء عملية نقل الأثاث كان لوبين يراقب تصرفات جيلبير وفوشري وبدا له انها تصرفات غريبة فهما لم يفترقا أبداً وكان كل منهما يراقب الآخر.

وفوراً قرر العودة إلى المنزل مدفوعاً بقلق لا يعرف تفسيره. وفي الطريق سمع ثرثرة من بعيد تقترب ناحية الفيلا.. لا بد أن مصدرها بعض المتنزهين.

أطلق صفارة إنذار خفيفة واتجه ناحية المدخل الرئيسي ليلقي نظرة على نواحي الجادة. وفجأة سمع طلقاً يدوي متبوعاً بعويل مؤلم. عاد راكضاً واستدار من حول المنزل وصعد سلم المدخل وأسرع نحو غرفة الطعام.

ـ يا للتعاسة! ماذا تفعلان هنا أيها القذران؟

كان جيلبير وفوشري يعتركان بعنف وقد تمددا أرضاً والغيظ يأكلهما.

اقترب لوبين ليفصل بينهما ولكن جيلبير كان تغلب على خصمه وانتزع من يده شيئاً لم يتمكن لوبين من تمييزه.. ووقع فوشري مغمياً عليه بعد إصابته بجرح بليغ.

وسأل لوبين غاضباً:

ـ من جرحه؟ أنت يا جيلبير.

ـ لا. ليونارد.

ـ ولكن ليونارد موثق جيداً.

ـ لقد فك وثاقه واستعاد مسدسه.

ـ أين هذا القذر؟

تناول لوبين القنديل ودخل إلى المكتب ليجد ليونارد ممدداً أرضاً ويداه فوق صدره على شكل صليب وقد غرس خنجر في حنجرته والدم ينزف من فمه. فحصه لوبين وهمس:

ـ يا إلّهي.. إنه ميت.

رد جيلبير بصوت مرتجف:

ـ أتعتقد ذلك.. فعلاً.

ـ أقول لك انه ميت.

وغمغم جيليبر:

ـ فوشري هو الذي ضربه.

كان لوبين شاحباً من الغضب فأمسك بذراع جيلبير فشده بقوة وقال:

ـ إنه فوشري.. وأنت أيضاً يا قذر.. لأنك كنت هنا وتركته يفعل ما فعل. أنت تعرف تماماً انني لا أريد دماً مهما حصل. سأجعلكما تدفعان الثمن في حينه.. وسيكون غالياً جداً. انه ليس بالجديد عليكما ..

هزه منظر الجثة فعاد يشد بعنف على يد جيلبير ويقول:

ـ لماذا.. لماذا قتله فوشري؟

ـ أراد أن يفتشه ويأخذ منه مفتاح الخزانة. وعندما انحنى فوقه وجد يديه حرتين.. فخاف وضربه.

ـ ولكن من أطلق الرصاص.

ـ ليونارد.. كان يحمل المسدس في يده.. وقبل أن يموت استجمع قواه وأطلق النار.

ـ ومفتاح الخزانة؟

ـ أخذه فوشري.

ـ وفتحها؟

ـ نعم.

ـ وأردت أنت أن تنتزع منه الصندوق؟

ـ لا. كان أصغر مما ظننا.

ـ إذاً ماذا. أجب!

ومن خلال تردد جيلبير وصمته المطبق فهمَ لوبين انه لن يحصل على الجواب. فالتفت إلى جيلبير وقال مهدداً:

ـ لن يطول صمتك، سأجعلك تعترف بأسلوب أو بآخر. ولتكن بيننا الآن استراحة محارب. تعالَ ساعدني كي ننقل فوشري إلى القارب.

عادا إلى الغرفة وانحنى جيلبير فوق الجريح. وفجأة أمسك به لوبين وهمس:

ـ اسمع!

تبادلا نفس النظرات القلقة. كان في المكتب من يتكلم بصوت مرتفع وغريب وبعيد جداً. ولكنهما تأكدا تماماً ان ليس في الغرفة أي شخص غيرهما باستثناء الميت وطيفه القاتم.

وسمعا الصوت مرة ثانية. كان حاداً أحياناً ومرعباً متقطعاً أشبه بالحشرجة أحياناً أخرى، ينطق بكلمات غير مفهومة وعبارات متقطعة.

شعر لوبين ان العرق يتصبب من صدغيه ويبلل رأسه. ما هذا الصوت غير المتناغم والغامض وكأنه آت من وراء القبر؟

انحنى فوق الخادم. اختفى الصوت ثم عاد من جديد.

التفت ناحية جيلبير وقال:

ـ حاول أن تضيء المكان بصورة أفضل.

ارتجف قليلاً وأزعجه الخوف الذي لم يستطع السيطرة عليه. كان شكه في محله.. إذ ما ان رفع جيلبير الستارة حتى وجد ان الصوت يخرج من الجثة نفسها ولكن دون أن يحرك الكتلة الجامدة أو يرتعش الفم الدامي.

التفت جيلبير ناحية لوبين وقال:

ـ إني خائف يا معلمي.

وتكررت نفس الضجة ونفس الوشوشة الأخنة. قهقه لوبين وأمسك فجأة بالجثة وأزاحها من مكانها.

رأى شيئاً معدنياً يلمع فقال:

ـ رائع! رائع! لقد وصلنا إلى الهدف. صحيح ان ذلك استغرق وقتاً لا بأس به، ولكننا وصلنا.

اكتشف لوبين سماعة تليفون يصلها خيط رفيع بجهاز مثبت في الجدار وعلى ارتفاع عادي. وضع لوبين السماعة على أذنه. وعاد يستمع إلى الضجة المكونة من نداءات مختلفة واعتراضات.. كما يحدث عادة بين اناس يتهاتفون:

ـ هل تسمعني؟ لا يجيب أبداً.. أمر مرعب . لقد قتلوه.. أنت متأكد من ذلك؟ ماذا جرى.. تشجع.. الإسعاف في طريقه إليه.. عملاء.. جنود..

ألقى لوبين السماعة وصرخ:

ـ اللعنة.

وفجأة تكشفت له الحقيقة.

في البداية لم تكن أوثقة ليونارد قوية.. فقد نجح في أن يقف أثناء عملية نقل الأثاث وتلهي لوبين ورفاقه بها فرفع سماعة الهاتف ربما بأسنانه وأسقطها ثم عاد وتمدد وطلب النجدة من مكتب هاتف انجيان.

كانت هذه هي الكلمات التي سمعها لوبين عندما غادر المكان أول قارب وهي نداء الاستغاثة الذي وجهه ليونارد.. وكان ما سمعه قبل لحظات هو رد مكتب الهاتف.. كما تذكر أيضاً الأصوات الخافتة التي سمعها في طرف الحديقة قبل أربع أو خمس دقائق مضت. وصرخ وهو يغادر غرفة الطعام راكضاً:

ـ الشرطة.. الشرطة. لينجُ من يستطيع.

اعترضه جيلبير قائلاً:

ـ وفوشري؟

ـ يا لسوء حظه.

ولكن فوشري الذي كان قد خرج من غيبوبته زحف ناحيته وترجاه:

ـ لا يمكن أن تتركني هكذا يا معلمي.

توقف لوبين رغم الخطر ورفع الجريح بمساعدة جيلبير وفي الوقت الذي كان الضجيج يتزايد في الخارج.. ثم قال:

ـ بعد فوات الأوان.

وفي هذه الأثناء كانت الضربات القوية تهز باب الرواق الذي يؤدي إلى الواجهة الأمامية.

ركض باتجاه باب المدخل ليجد أن الرجال قد أحاطوا بالمنزل.

هل سينجح بالهرب منهم ويصل شاطىء البحيرة مع جيلبير في نفس الوقت. ولكن كيف يبحر ويهرب تحت نيران العدو؟

أقفل الباب ووضع المزلاج. فقال جيلبير:

ـ إننا محاصرون.. ولا مجال أمامنا للهرب.

ـ اسكت.

ـ ولكنهم رأونا يا معلم. اسمع انهم يضربون من جديد.

ـ اسكت.. إياك أن تنبس بكلمة أو تقوم بحركة.

وقف هادئاً رابط الجأش. يفكر بروية وعمق كرجل تجمعت لديه كافة المعطيات الضرورية لفحص وضع دقيق من جميع جوانبه. وجد نفسه في إحدى تلك اللحظات التي كان يسميها «الدقائق العليا للحياة» والتي وحدها فقط تعطي للوجود قيمته وقدره. وبصرف النظر عن الخطر الجاثم في حالات كهذه كان لوبين دائماً يعمد إلى العد في ذاته وبهدوء: «واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة.. ستة» ويستمر إلى أن تعود ضربات قلبه إلى حالتها الطبيعية.. وعندئذ فقط يبدأ التفكير بصوابية وقوة وروعة وتبصر عميق للأحداث الجسام الممكنة. كافة معطيات الموضوع كانت الآن ماثلة أمامه. كان يتوقع كل شيء ويقر بكل شيء. وفي النهاية يتخذ قراره بمنتهى المنطق والطمأنينة.

وبعد ثلاثين أو أربعين ثانية، وبينما كان الضرب مستمراً على الأبواب في محاولة لكسرها وخلع أقفالها، التفت ناحية رفيقه وقال له:

ـ اتبعني.

دخل الصالون وأزاح ستارة نافذة تطل على الحديقة. شاهد رجالاً كثر في حركة إياب وذهاب مستمر الأمر الذي يجعل هروبه غير ممكن. وعندئذ راح يصرخ بكل قواه وبصوت مبحوح:

ـ من هنا. ساعدوني. إني أمسك بهم . من هنا.

سحب مسدسه وأطلق رصاصتين في أغصان الأشجار. ثم عاد إلى فوشري وانحنى فوقه ولطخ يديه ووجهه بدم الجريح. وعاد فاستدار ناحية جيلبير فأمسكه بعنف من كتفيه ورماه أرضاً.

ـ ماذا تريد يا معلم؟ راودتني فكرة.

رد لوبين ناهراً وبصوت الآمر:

ـ إني مسؤول عن كل شيء. وعنكما بالذات. دعهم يقبضوا عليك.. سأخرجك من السجن.. ولكي أفعل ذلك يجب أن أكون حراً طليقاً.

عاد لوبين يصرخ من النافذة:

ـ من هنا.. ساعدوني.. إني أمسك بهم.. من هنا. ثم يخفض صوته ويلتفت ناحية جيلبير ليقول له بهدوء:

ـ فكر جيداً. هل لديك شيء تقوله لي؟ اتصال ما يمكن أن يكون مفيداً لنا؟

كان جيلبير يتخبط قلقاً ثائراً مرتبكاً يحاول فهم مخطط لوبين. بينما بدا فوشري المتلهي بجراحه وكأنه فقد أي أمل له بالهروب. رفع ناظريه نحو جيلبير وقال بصوت مرتعش:

ـ دعهم يقبضوا عليك أيها الأحمق.. شريطة أن ينجو المعلم.. أليس هذا هو الأهم في كل ذلك.

وفجأة تذكر لوبين الشيء الصغير الذي وضعه جيلبير في جيبه بعد أن أخذه من فوشري وأراد الاستيلاء عليه.

صرف جيلبير بأسنانه رافضاً وقال:

ـ هذا غير ممكن على الإطلاق.

ورماه لوبين أرضاً من جديد.

وبدا وراء النافذة رجلان. خضع جيلبير وأعطى الشيء إلى لوبين الذي وضعه فوراً في جيبه دون أن ينظر إليه.

قال جيلبير متمتماً:

ـ خذ يا معلم. سأشرح لك فيما بعد. يمكنك أن تتأكد من أن...

لم تتح له الفرصة لإنهاء كلامه.. إذ دخل عميلان متبوعين بآخرين وعدد من الجنود.. جاؤوا لنجدة لوبين.

تم الإمساك بجيلبير وشدت قيوده بقوة.

ثم وقف لوبين وقال:

ـ لا شيء يؤسف له. لقد أساء جداً إليّ هذا الوحش وجرحت الآخر.. ولكن هذا..

وسأله قائد الشرطة بسرعة:

ـ هل رأيت الخادم؟ هل تراهم قتلوه؟

ـ لا أعرف.

ـ لا تعرف أبداً؟

ـ اللعنة! جئت معكم من انجيان على أثر انتشار خبر الجريمة. وفيما كنتم تستديرون وتقومون بجولة إلى يسار المنزل كنت أفعل نفس الشيء في جنوبه. كانت هناك نافذة مفتوحة.. صعدت نحوها عندما كان هذان اللصان يستعدان للنزول. أطلقت النار على هذا (وأشار إلى فوشري) وأمسكت برفيقه.

لم يكن هناك مجال أمام الشرطة لتشك في لوبين وتشتبه في أقواله. كان مغطى بالدم وهو الذي تولى تسليم قتلة الخادم. عشرة أشخاص شهدوا نهاية المعركة البطولية التي شنها.

أعقب اكتشاف الجريمة صخب وضوضاء وأسرع الناس إلى الفيلا لمعرفة ما جرى وكيف. وربما كان هذا وحده يكفي لعدم تكوين الشكوك وإثارتها. صراخ من هنا. عويل من هناك. الكل يريد أن يرى القاتل. ولكن أحداً لم يفكر في التدقيق في تأكيدات لوبين وصحتها.

ولكن اكتشاف الجريمة في المكتب جعل قائد الشرطة يفكر ملياً ويقرر تحمل مسؤولية الموقف شخصياً وما تمليه عليه من واجبات فأصدر أوامره على الفور بمنع الدخول إلى الفيلا والخروج منها، وقام بتفحص المكان وبدأ التحقيق.

ذكر فوشري اسمه. ولكن جيلبير رفض الإجابة على أسئلة قائد الشرطة إلا بحضور محام. وبما ان تهمة القتل كانت موجهة إليه حاول إلصاقها بزميله الذي رفضها بشدة وأصر على أن جيلبير هو القاتل وهذه مهزلة اختلقاها من أجل إلهاء قائد الشرطة ليس إلا. وعندما التفت هذا الأخير ناحية لوبين للاستماع إلى شهادته وجد انه اختفى. استدعى أحد مساعديه وقال له:

ـ أخبر ذلك السيد انني أريد أن ألقي عليه بعض الأسئلة.

وبدأ البحث عن لوبين. بعضهم قال انه رآه عند المدخل يشعل سيجارة. وعرف فيما بعد انه قام بتوزيع السجائر على الجنود ثم سار باتجاه البحيرة وطلب أن يستدعوه إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك.

نادوه.. ولم يجب أحد.

وجاء جندي يركض ويقول أن السيد صعد إلى قارب ويستعد للإبحار.

تطلع قائد الشرطة ناحية جيلبير وفهم انه خدع. ثم صاح:

ـ ألقوا القبض عليه أطلقوا النار. إنه شريك في الجريمة!

واندفع خارج الغرفة يتبعه مساعداه فيما استمر الجنود في حراسة المتهمين الآخرين.

ومن فوق حافة الجادة وعلى مسافة ١٠٠ متر فقط شاهد «السيد» يلوح بقبضته مودعاً.

وعبثاً أطلق أحد مساعديه الرصاص باتجاه لوبين. ولم يسمع قائد الشرطة سوى لوبين يردد وهو يحرك مجذافي القارب أغنية تقول:

اذهبي يا موجتي الصغيرة..

فالريح تدفعك.

استعان قائد الشرطة بقارب كان مشدوداً إلى مكسر في الفيلا المجاورة. وقام اثنان من رجاله بمطاردة لوبين بعد أن أصدر أوامره إلى الجنود بمراقبة شاطىء البحيرة بدقة وإلقاء القبض على الهارب إذا حاول العودة أو التسلل إلى المكان.

كانت العملية سهلة نوعاً ما. إذ كان يمكن مشاهدة لوبين

يعبر البحيرة من خلال ضوء القمر المتقطع ويتجـه يميناً نـاحية قرية سان غراتيان.

ولاحظ قـائد الشرطـة انه فعـلاً قطع نصف المسـافـة التي تفصله عن لوبين وذلك بفضل معاونـة مساعـديه ووزن القـارب الخفيف الذي يركبونه وفي مدة زمنية لم تتعد الدقائق العشر.

أبدى ارتياحاً لهذا التطور وقال:

ـ سننالـه. ولسنـا بحاجـة لجنود المشـاة ليمنعوه من بلـوغ الشاطىء. إني أود أن أتعرف إليـه شخصياً ولا بـد أنه يخفي أشياء كثيرة ويستحق اهتمامي.

والأكثر غرابـة في الأمر هـو أن المسافـة بدأت تقصر بنسب غير عادية وكأن الفارّ بدأ يدرك ان معركته مع الشرطة لن تنجح فقرر تخفيف سرعته وفقد كل أمل بالخلاص. ضاعف مسـاعدا قائد الشرطة من جهودهما وبدأ القارب ينزلق فـوق سطح المـاء بسرعـة كبيرة.. وأصبحـوا على مسـافة ١٠٠ متـر أو أقـل من الرجل.

وصرخ قائد الشرطة: قف!

كان لوبـين يجلس القرفصـاء في قاربـه وقد تـرك المجاذيف تعوم فوق الماء. بدا بدون حراك. ومثـل هذا الجمـود يثير القلق وبإمكان لص من هذا النوع أن ينتظر مهاجميه طويـلاً لتكلفهم حياته غالياً فيبيدهم قبل أن يهاجموه.

وصرخ قائد الشرطة من جديد: سلّم نفسك.

اشتدت وطأة الظلام وبات من الصعب تمييز الأشياء. تربع قائد الشرطة ومساعداه في القارب تحسبـاً لأي خطر يفـاجئهم. واقترب قاربهم بهدوء من قارب لوبين. وهمهم قائد الشرطـة من عمق قاربه.

ـ لن ندعه يغدر بنا. سنطلق النـار. هل أنتم جـاهزون؟ ثم صرخ من جديد:

ـ سلّم نفسك.. وإلا..

لم يجبه أحد. وبقي العدو بدون حراك.

وتابع قائد الشرطة:

ـ سلّم نفسـك. ألق سلاحـك. ألا تـريـد؟ بئس مـا تفعـل! سأبدأ العد: واحد.. اثنان...

ولم ينتظر المساعدان قائدهما.. فـأطلقا النـار التي أصابت القارب بقوة وجعلته يهتز.

كان قائـد الشرطة يـراقب أدنى تحرك في قـارب لوبـين وهو يمسك بمسدسه. مد ذراعيه باتجاه القارب وقال:

ـ حركة واحدة.. وأحطم رأسك.

لم يقم العـدو بأيـة حركـة. وفهم قائـد الشرطة عنـدمـا تم الاقتـراب جيداً من القـارب وتخـلى مسـاعـداه عن التجـذيف استعـداداً للهجوم ان ليس فيـه أحد. فقـد فر العـدو سابحـاً مستفيـداً من الظلام الشـديد وتـرك بين يـدي قائـد الشرطـة مجموعة من الأشياء المسروقة بعد أن وضع فوقها سـتـرة وقبعة توهم المشاهد بأن هناك رجلاً ما.

وعلى ضوء عيدان الثقاب قام الثلاثة بفحص مخلفات العدو. لم يجدوا في القبعة أية إشارة محفورة في داخلها. السترة كانت خالية أيضاً وليس فيها لا أوراق ولا محفظـة ولا نقود. إلا أنهم اكتشفوا في جيب صغير بطاقة تحمل اسم أرسين لوبين. وكـان لهذا الاكتشاف وقعه الكبير على مصيري جيلبير وفوشري.

وفي نفس اللحظة تقريباً، وفي الوقت الذي كانت الشرطة تقوم بسحب القارب المصادر، وتتابع عمليات التفتيش داخل محتوياته، والجنود على اهبة الاستعداد لأية معركة بحرية محتملة، كان أرسين لوبين يقترب بهدوء من المكان الذي كان غادره قبل ساعتين.

استقبله رفيقاه غرونيار ولوباهو وزودهما ببعض الشروحات على عجل ثم جلس في سيارته بين مقاعد وتحف النائب دوبريك متدثراً بالفراء وطلب من السائق أن يسلك الطرق المهجورة رأساً إلى مخزن الأثاث الذي يملكه في نويي. هناك ترك السائق واستقل سيارة أجرة نقلته إلى سان فيليب دي رول في باريس.

وعلى بعد أمتار قليلة، وفي شارع ماتينيون القريب، كان لوبين يملك شقة صغيرة لا يعرف بوجودها سوى جيلبير.

استراح لوبين قليلاً ثم قام بتبديل ملابسه، وأفرغ جيوبه، شأنه ككل ليلة، فوق المدخنة، ووجد بين محفظته ومفاتيحه الشيء الصغير الذي كان جيلبير دسه بين يديه في آخر لحظة.

وكانت مفاجأته كبيرة عندما وجد أن الشيء ليس سوى سدادة زجاجة صغيرة مصنوعة من البلور كتلك التي تستعمل عادة في الأواني المخصصة للمشروبات الروحية. ولم يكن في السدادة شيء خاص يميزها. ولكن لوبين لاحظ انها متعددة الجوانب ومذهبة حتى وسطها.

وما عدا ذلك لم يجد لوبين في الحقيقة ما يثير الانتباه. وضع السدادة جانباً وتساءل:

- أمن أجل هذه القطعة الزجاجية قتل جيلبير وفوشري الخادم؟ وما سبب تعلقهما بها؟ لماذا أضاعا وقتهما وعرّضا نفسيهما للسجن وربما للمحكمة.. والإعدام فيما بعد. ومع ذلك

فهذا أمر لا يخلو من السخف والغرابة.

ألقى نظرة أخيرة على السدادة وتمدد في فراشه استعداداً للنوم. فراودته الأحلام المزعجة. رأى فوشري وجيلبير راكضين فوق بلاط زنزانتيهما يمدان أيديهما نحوه ويصرخان برعب وألم:

ـ النجدة! النجدة!

ورغم كل جهوده لم يستطع أن يتحرك. كان هو نفسه مكبلاً بأوثقة غير مرئية.

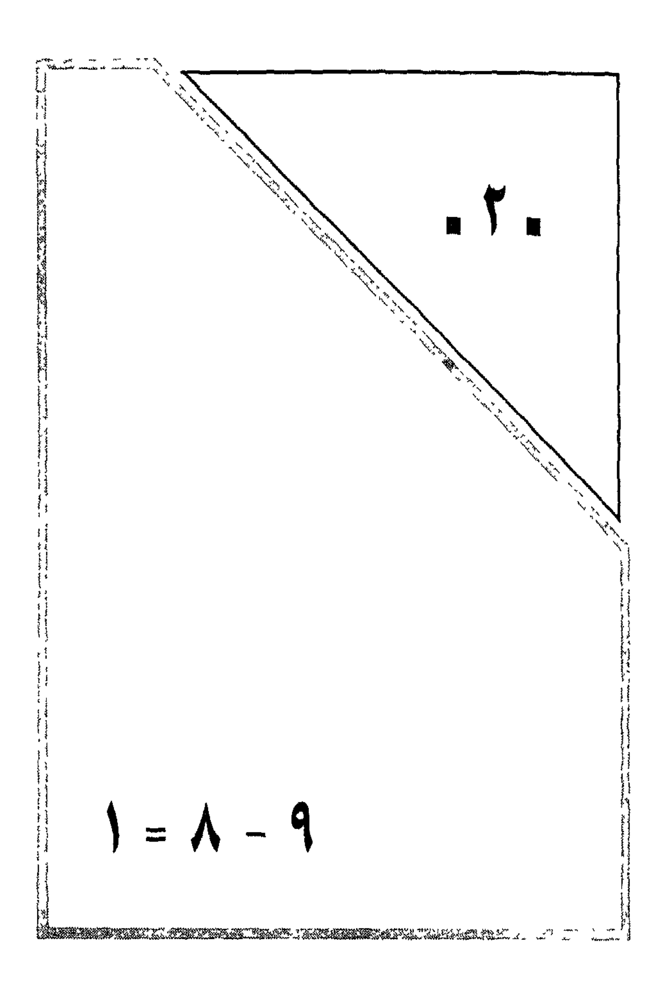
استيقظ مرتعباً بعد هذه السلسلة من الكوابيس وقال

ـ اللعنة. إنها طلائع سيئة. ولكن لحسن الحظ بالمقابل ان التواضع لا ينقصنا.. وإلا..

وأضاف: ولكننا نملك أمامنا وفوق هذه المدخنة طلسماً يكفي لطرد الحظ السيء. وجعل الخير ينتصر إذا عدت التصرفات التي بدت من فوشري وجيلبير.

نهض ليأخذ السدادة ويتفحصها من جديد. وندت منه صرخة قوية.

لقد اختفت السدادة البلورية.



٢٠
٩ - ٨ = ١

هناك شيء لم أتمكن من معرفتــه في العمق عند لــوبين وهــو تنظيم عصابته.. رغم عــلاقاتي الطيبــة معه والثقــة التي حاول غرسها في نفسي من خلال شهاداته المزورة في أغلبها.

لا مجال للشك في وجود عصابة لوبين. فبعض المغامــرات لا تفسر إلا بــالإخلاص المتــزايــد والطــاقــات التي لا تقــاوم مــع إخضاع كافة القوى لإرادة واحدة ورائعة. ولكن كيف تمــارس هذه الإرادة؟ من خلال أية وساطــات وأوامر جــانبية؟ هــذا ما أجهله تماماً. فلوبين لا يبوح بسره ويحتفظ بــه لنفسه والأسرار التي لا يبوح بها يصعب علينا جداً كشفها.

الافتراض الوحيد الذي أسمح لنفسي بتقديمــه هو أن هــذه العصــابة المحــدودة جداً في رأيي والمشكــوك في أمرهــا أيضــاً، تستكمــل بضم وحدات مستقلــة إليها ومنضــوين موقتــين يتم اختيارهم من مختلف الطبقات والبلدان وهم العملاء التنفيذيون لسلطة ما وفي أغلب الأحيــان لا يعرف واحــدهم الآخر. وبينهم وبين المعلم يروح ويجيء الرفاق والمبتدئون والمخلصــون والذين يلعبون الأدوار الرئيسية تحت إمرة لوبين المباشرة.

كــان فوشري وجيلبــير، طبعاً، في عــداد هؤلاء. ولهذا أبــدت

العدالة تشدداً إزاءهما. وهي للمرة الأولى تمسك بشركاء للوبين.. شركاء حقيقيين وضالعين مثله في التآمر.. وهما اللذان ارتكبا جريمة. وفي حال كون الجريمة وقعت عن سابق إصرار وتعمد وثبوت التهمة المساقة ضدهما وإسنادها إلى أدلة قوية.. فإن الإعدام بانتظارهما. وكدليل فهناك واحد على الأقل وهو الاستغاثة الهاتفية الصادرة عن ليونارد قبل موته بدقائق: «النجدة.. إنهم يريدون أن يقتلوني». رجلان سمعا هذه الاستغاثة اليائسة: موظف التليفونات وواحد من أصدقائه وأدليا على الفور بشهادتيهما. وبموجب ذلك قام قائد الشرطة الذي تم إعلامه أيضاً بالتوجه إلى فيلا باري تريز يواكبه رجاله ومجموعة من الجنود.

منذ الأيام الأولى شعر لوبين بواقع الخطر الصحيح. فالمعركة العنيفة التي خاضها ضد المجتمع دخلت مرحلة جديدة ومخيفة. وبدأ الحظ يتحول. الأمر يتعلق هذه المرة بجريمة، بعمل يثور هو نفسه ضده ويرفضه.. وليس إطلاقاً بواحدة من عمليات السرقة المسلية التي كان ينفذها ضد بعض الأغنياء فتثير اشمئزاز الرأي العام لفترة ثم يعود ويسوي الأوضاع بطرقه الخاصة والذكية. ولا يتعلق هذه المرة بالقيام بأي هجوم بل بالدفاع عن النفس وإنقاذ حياة رفيقيه.

وفيما يلي ملحوظة صغيرة أعدت نقلها عن واحد من دفاتره حيث يستعرض ويلخص في أغلب الأحيان الأوضاع التي تربكه. وتدلنا هذه الملحوظة على سياق تفكيره:

أنا على يقين قاطع ان جيلبير وفوشري استخفا بي في البداية. عملية انجيان، التي كانت في الظاهر معدة لسرقة فيلا ماري تيرين، كان لها هدف سري. وخلال كافة العمليات كان هو

نفسه هاجسهما الأول. بحثهما الوحيد تحت الكنب وفي أعماق الواجهات الجدارية كان فقط عن السدادة البلورية. وإذا كنت أريد أن أرى الأشياء على حقيقتها وأسبر أعماقها يجب أن أركز على أهم ما في الأمر فالمؤكد، ولأسباب سرية، ان هذه القطعة الزجاجية الغامضة لها في نظرهما قيمة ضخمة جداً.. وفي نظر آخرين أيضاً.. وإلا لماذا تجرأ البعض ودخل شقتي وسرقها؟

كانت السرقة التي ذهب ضحيتها لوبين نفسه محيرة جداً.

أمران خطرا في باله دون أن يجد لهما تفسيراً.

من كان ذاك الزائر الغريب؟ وليس هناك أي إنسان آخر يعرف أن لوبين يملك منزلاً في شارع ماتينيون سوى جيلبير الذي يثق فيه تماماً ويعمل كسكرتير خاص له. ولكن جيلبير في السجن الآن. هل يعقل أن يكون قد خانه وأرسل الشرطة تتعقب أثره؟ وإذا كان هذا الافتراض صحيحاً فلماذا لم تلق الشرطة القبض عليه واكتفت بإرسال أحد أفرادها ليأخذ فقط السدادة البلورية؟

ولكن كان هناك ما هو أغرب بكثير.

أقر ان ولوج شقته ممكن ـ وان لم يكن هناك ما يدل عليه أو يغذي احتماله ـ ولكن كيف نجحوا بالدخول إلى غرفته؟ فهو كعادته كل مساء أدار المفتاح في قفل الباب مرتين ووضع المزلاج.. ومع ذلك اختفت السدادة دون المساس بالقفل والمزلاج، ويدعي لوبين ان حاسة السمع قوية جداً لديه ولكنه لم يسمع أثناء نومه ما يوقظه.

بحث قليلاً علّه يهتدي إلى شيء. كان يعرف كثيراً جداً هذه

الأحـاجي وإن لم يأمـل أن يهتدي إلى حـل الأخيرة من جـراء تتابع الأحداث.

استبد به القلق. نهض فوراً وأقفل شقته في شارع ماتينيون وأقسم ألا تطأها قدماه مرة ثانية.

غادر الشقة وقرر الاتصال بجيلبير وفوشري.

خاب ظنه. فعـلى رغم ان العدالـة لا يمكن أن تقوم إلا عـلى قواعد صلبـة، فقد تقـرر أن تنظر محكمـة باريس في مشـاركة لوبين في الجريمة وليس محكمـة (ستين وواز) كمـا كان يعتقـد واقتيد جيلبير وفوشري إلى سجن «لاسانتيه». وهناك أو في قصر العـدل نفسه كـان يفهم تماماً وبوضـوح انـه يجب منـع أي اتصال بين لوبين والمعتقلين. ولهذا اتخـذ رئيس شرطة بـاريس كافة الاحتياطات حيث كـانت مجموعـات من العسكريـين تتولى حراسة جيلبير وفوشري ولا يغيبون أنظارهم عنهما ولو للحظات معدودة.

لم يكن لوبين في ذلك الوقت قد رقي بعد إلى رتبة مدير الأمن وبـالتـالي لم يتمكن من اتخـاذ الإجـراءات الضروريـة في قصر العدل لتنفيذ مخططاته. وبعد خمسة عشر يـوماً من المحـاولات غير المثمرة قرر التراجع. كان الغيظ ينخر قلبه ويتـزايد بشكـل مقلق.

وقـال: إن الصعب جداً في أمـر ما هـو، عـلى الأغلب، ليس كيف تصل بل من أين تبدأ، وكيف، وما هو الطريق الذي يجب أن تسلكه.

عاد يفكر بالنائب دوبـريك المـالك الأول للسـدادة البلوريـة والـذي لا بد انـه يعرف أهميتهـا. ومن جهة ثـانية كيف كـان

جيلبير على دراية تامة بأفعال وحركات النائب دوبريك. وما هي وسائل مراقبته؟ من أخبره عن المكان الذي كان يمضي فيه دوبريك أمسية هذا اليوم؟ وغيرها من الأسئلة الهامة التي تحتاج إلى حل.

بعد سرقة فيلا ماري تيريز مباشرة كان دوبريك يقيم في منزله الشتوي في باريس الذي هو عبارة عن فندق خاص في حي لامارتين المنفتح على جادة فيكتور هيغو.

تنكر لوبين بزي رجل عجوز فقير وأمسك بعصا يتوكأ عليها وجعل من المقاعد الخشبية في الحي والجادة مكانه المفضل ليتنقل فيه طوال النهار.

ومنذ اليوم الأول استرعاه اكتشاف غريب: فقد شاهد رجلين يرتديان ثياب عمال ويراقبان خلسة وباستمرار فندق النائب. وعندما كان دوبريك يخرج يسيران في أثره ويعودان من ورائه عندما يعود.. ولا يغادران المكان إلا بعد أن تطفأ الأنوار في منزل النائب ويدركان انه خلد إلى النوم والراحة

قال لوبين في نفسه بعد أن عرف انهما من رجال الأمن. ما هذا. انه شيء غريب. إنهم يشكون في دوبريك؟

وفي اليوم الرابع، وعند هبوط الظلام انضم إلى الرجلين ستة آخرون وراح الثمانية يتحدثون بصوت خافت في جانب مظلم من حي لامارتين. ودهش لوبين جداً وهو يرى بين هؤلاء الأشخاص الشهير برازفيل، المحامي والرياضي القديم والمقرب حالياً من قصر الاليزيه والذي تم فرضه لأسباب غامضة كأمين عام لشرطة العاصمة.

وفجأ تذكر لوبين ان معركة بالأيدي وقعت قبل سنتين في

مجلس النواب الفرنسي بين برازفيل والنائب دوبـريك ولأسبـاب مجهولة.

وبعد وقت قصير تم تعيين برازفيل أميناً عاماً. وقال لوبين في نفسه وهو لا يزال زائغ النظرات يفكر.

غريب.. غريب.

وأمعن التأمل في برازفيل ومرافقيه.

وعند الساعة السابعة ابتعد بـرازفيل بـاتجاه جـادة هنري مارتان. وخرج دوبريك من باب حديقة محيطة بالفنـدق يرافقـه إثنان من حراسه ودخلوا شارع تيتبوت القريب.

عبر برازفيل الساحة الصغيرة وقـرع الجرس. وكـان السور يربط الفندق بمسكن امرأة عند المـدخل تعمـل بوابـاً. اقتربت المـرأة لتفتح ودار عنـد الباب حـوار بينهما ثم دخـل برازفيـل ورجاله.

وقال لوبين في نفسه.

زيارة منزلية سرية وغير شرعية. كـان المفترض أن يـدعوني ولو من باب اللياقة. إن وجودي هناك ضروري.

وبدون أدنى تردد ذهب إلى الفندق حيث كان البـاب لا يزال مفتوحاً. مر أمام الحارسة التي كـانت تراقب الفنـدق وسألهـا بسرعة وكأن هناك من ينتظره:

ـ ألا يزال هؤلاء السادة هناك؟

ـ نعم. في المكتب.

خطته كانت بسيطة: قدم نفسه كعامـل نقل بضـائع، حجـة واهية. واستطاع بعد أن عبر الممـر المهجور الـدخول إلى قـاعة

الطعام التي لم يكن فيها أحد. ولكنه تمكن من خلال النافذة الزجاجية التي تفصل المكتب عن القاعة من رؤية برازفيل ومرافقيه الخمسة.

رأى برازفيل يفتح أدراج المكتب بمفاتيح مزورة ويعبث بمحتوياتها. هذا فيما انصرف أربعة من رجاله إلى تفريغ المكتبة وتفتيش الكتب المكدسة فيها كلاً على حدة والتأكد من محتوياته بهز صفحاته ورميه أرضاً.

وقال لوبين في نفسه. حتماً إنهم يبحثون عن وثيقة هامة أو ربما عن أوراق نقدية.

وصرخ برازفيل متعجباً:

ـ يا لها من حماقة. لا نجد شيئاً..

ولكنه لم يتراجع.. إذ أخذ فجأة أربعة قوارير آتية من قبو للمشروبات الروحية فنزع سداداتها وراح يتفحصها بدقة.

وعاد لوبين يخاطب نفسه قائلاً: هو أيضاً يبحث في سدادات الزجاجات! الموضوع لا يتعلق بوثيقة. إني لم أعد أفهم شيئاً.

وقف برازفيل وقال مخاطباً أحد رفاقه:

ـ كم مرة جئت إلى هنا؟

ـ ست مرات.

ـ ودققت في كل شيء.

ـ فحصت كل قطعة.. وطوال أيام كاملة.. لأنه كان في جولة انتخابية.

ـ ولكن..

سكت لوبين ثم استأنف قائلاً:

ـ لم يكن عنده خدم آنذاك؟

ـ لا. كان يبحث. يأكل في المطعم والحارسة تتولى تدبير شؤون منزله بطريقة معقولة. إن هذه المرأة مخلصة لنا جداً.

وخلال ساعة ونصف الساعة أصر برازفيل على تفتيش اللوحات الجدارية ولكنه حرص على إبقاء كل منها في موضعها. وعند الساعة التاسعة كان الرجلان اللذان رافقا دوبريك يهمان بدخول المنزل. فصاح أحد رفاق برازفيل:

ـ لقد عاد!

ـ راجلاً؟

ـ راجلاً.

ـ هل لدينا متسع من الوقت؟

ـ طبعاً. طبعاً.

وبدون ارتباك غادر برازفيل ورجاله المنزل بعد أن ألقوا نظرة فاحصة على المكتب وتأكدوا ان شيئاً ما لن يفضح أمرهم ويكشف زيارتهم.

أصبح الوضع حرجاً الآن بالنسبة للوبين... فقد يتعرض أثناء خروجه للالتقاء بدوبريك وجهاً لوجه، وإذا هو بقي فربما لا يتمكن من الخروج. ولكنه لاحظ ان نوافذ غرفة الطعام المطلة على الساحة توفر له فرصة خروج ملائم.. فقرر البقاء. وبدت له فرصة رؤية دوبريك عن كثب كي يستفيد منها جداً طالما ان هذه الأخير عائد لتوه من تناول العشاء وقد لا يحتاج إلى دخول هذه الغرفة.

انتظـر التطورات وأبـدى استعداده لـلاختفـاء وراء سـتـار مخملي يغطي الفاصل الزجاجي إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

سمـع الأبواب تفتـح ودخل أحـدهم المكتب وأشعل النـور. عرف لوبين انه دوبريك نفسه.

كان رجلاً ضخماً، مربوع القامة، ملتحياً، شبه أصلع، يضع نظارتين وعيناه متعبتان جداً.

ولاحظ لوبين ان وجـه النائب ممتـلىء حيويـة، ذقنه مـربعة وبعض عظـام وجهه نـافرة. قبضتـاه قويتـان يكسوهمـا شعر كثيف... يمشي محني الظهر.

كان منظر دوبريك إجمالاً يدعو إلى الاشمئزاز والتقزز. وهنا تـذكر لـوبين انهم كـانوا يطلقـون عليه في مجلس النـواب لقب «رجـل الأخشاب» ليس لأنـه كان يفضـل الانـزواء بعيـداً عن زملائه بل نظراً لمظهره العام وأسـاليبه وطـرق تصرفه الـرعناء التي يستمدها من بنيته القوية.

جلس وراء مكتبه وسحب من جيبه غليـوناً فحشـاه تبغاً من إحدى المجموعـات من علب التبغ أمـامه ثم أشعلـه وبدأ يكتب رسائل

وبعد فترة وجيزة توقف عن الكتابة وراح يفكر مركزاً ناظريه فوق نقطة في مكتبه.

تناول بسرعة علبـة الطوابـع ثم عاد وتفحص مـواقع بعض الأشياء التي لمسها برازفيل وأعـادها إلى مكـانها. ألقى عليهـا نظرة فاحصة وتلمسها بيـديه وانحنى فـوقها وكـأن الإشارات التي يعرفها هو وحده يمكنهـا أن تعطيه بعض المعلـومات. وفي النهاية أمسك بزر جرس كهربائي على شكل إجاصة وقرعه.

وبعد دقيقة واحدة كانت المرأة الحارسة تقف أمامه. فقال لها:

- جاؤوا، أليس كذلك؟

وعندما ترددت المرأة في الإجابة عاد يلح في السؤال:

- اسمعي يا كليمانس. هل أنت من فتح علبة الطوابع هذه؟

- لا. يا سيد.

- حسناً. لقد قمت بلف الغطاء بشريط رفيع من الورق الشفاف المصمغ. وأرى الآن أن الشريط قطع.

- أؤكد وأشهد على ما قلت.

- لماذا الكذب طالما أنا من قال لك أن تكوني على استعداد دائماً لمثل هذه الزيارات؟

- هو ان..

- هو انك تحبين أن تلعبي على الحبلين. فليكن. ناولها ورقة نقدية من فئة الخمسين فرنكاً وكرر:

- جاؤوا؟

- نعم يا سيد.

- نفس الذين جاؤوا في الربيع.

- نعم. الخمسة أنفسهم. مع واحد آخر يتولى قيادتهم.

- ضخم.. وأسمر؟

- نعم.

- لاحظ لوبين فك دوبريك يتمدد.

وتابع دوبريك:

ـ هذا كل شيء.

ـ جـاء واحد آخـر بعـدهم وانضم إليهم.. ثم تـلاه اثنـان آخران وهما اللذان يتوليان عادة المراقبة أمام الفندق.

ـ دخلوا هذا المكتب وجلسوا فيه؟

ـ نعم. يا سيدي.

ـ وذهبوا ساعة شعروا بوصولي؟ وربما قبل ذلك بدقائق.

ـ نعم. يا سيدي.

ـ حسناً.

وغـادرت المرأة المكتب، فيمـا انصرف دوبـريـك إلى كتـابـة الرسائل من جديد، ثم مد يده وسجل إشارات فوق ورق أبيض في طـرف المكتب وسواه وكـأنه يـريده أن يبقى تحت نـاظريـه باستمرار. وتمكن لوبين أن يقرأ ما كتبه النائب وهـو عبارة عن عملية الطرح هذه: ٩ − ٨ = ١.

وردد دوبريك بصوت عال وهو يتأمل ما كتب.

ـ لا مجال إطلاقاً لأدنى شك.

كتب أيضاً رسالة قصيرة وعـلى الظرف كتب العنـوان التالي الذي تمكن لوبين من قراءته عندما قام النائب بوضع الرسـالة إلى جانب الدفتر.

السيد برازفيل. أمين عام الشرطة..

ثم قرع الجرس من جديد فدخلت كليمانس فقال لها:

ـ هل ذهبت إلى المدرسة في حياتك؟

ـ نعم يا سيد. أكيد ذهبت.

– وهل علموك الحساب هناك؟

– طبعاً.. يا سيدي.

– معنى هذا أنك لست قوية في الطرح.

– لماذا هذا السؤال؟

– لأنك تجهلين ان ثمانية مطروحة من تسعة يساوي واحداً. فهذا، كما ترين، هام جداً. لا وجود ممكناً إذا كنت تجهلين هذه الحقيقة الأولى.

كان يتحدث ويتمشى في الغرفة ويداه مشبوكتان خلف ظهره متأرجحاً من حين إلى آخر بانحناء الوركين. ثم توقف أمام غرفة الطعام وفتح الباب قائلاً:

– ومع ذلك يمكن عرض المشكلة بشكل آخر. من يطرح ثمانية من تسعة يبق واحد. وما يبقى، ها هو. أليس كذلك؟ العملية صحيحة. أليس صحيحاً أن السيد سيقدم لنا دليلاً قاطعاً؟

ربت فوق الستار المخملي الذي يختبىء لوبين بين طياته. وقال مخاطباً كليمانس:

– في الواقع تكاد تختنق.. إنه جرذ كبير. يجب أن تخرج. تذكر هذيان هملت وموت بولونيوس.. أقول لك انه جرذ كبير.. هيا اخرج من جحرك يا سيد بولونيوس.

وأضاف:

– هيا اخرج.. لا أريد بك سوءاً.. هل تأكدت يا كليمانس من صحة عمليتي الحسابية؟ لقد دخل إلى هنا وفقاً لأقوالك تسعة أشخاص.. وفي طريق عودتي عددت منهم ثمانية على امتداد الجادة.. عصابة ليلية كاملة. تسعة مطروح منهم

ثمانية.. فالباقي هو واحد هنا للمراقبة. المسيح مكللاً بالشوك.

– وماذا بعد؟ قال لوبين وهو يتحرق غيظاً. راودته رغبة جنونية بالانقضاض على دوبريك والقضاء عليه.

– لا شيء أبداً. ماذا تريد أكثر؟ المسرحية انتهت.

أطلب إليك فقط أن تنقل إلى سيدك برازفيل هذه الرسالة القصيرة التي كتبتها لتوي. ارشدي السيد بولونيوس إلى الطريق يا كليمانس. وإذا حدث وعاد مرة ثانية افتحي له كل الأبواب على مصاريعها. إنك في منزلك يا سيد بولونيوس.. ونحن في خدمتك.

تردد لوبين. كان يريد أن يسيطر عليه. أن يقول كلمة وداع كما يقال دائماً على المسرح ويختفي دون أن يفقد ماء الوجه. ولكن هزيمته كانت قوية.. تستحق الشفقة.. ولهذا لم يجد أفضل من وضع قبعته فوق رأسه بعصبية والسير وراء الحاجبة.

وما أن أصبح في الخارج حتى استدار ناحية نوافذ دوبريك وراح يكيل له الشتائم ويتهدد ويتوعد ويقسم بأنه سينتقم منه ذات يوم قريب.

ولكنه كان يدرك في قرارة نفسه قوة هذا العدو الجديد ولا يمكنه بالتالي الانتقاص من سيطرته على مجريات هذا الموضوع

إن الطريقة التي يستخدمها دوبريك في تضليل موظفي الشرطة والاحتقار الذي يبديه إزاء زيارات شقته وبرودة أعصابه المدهشة وسلوكه الوقح مع الشخص التاسع الذي يتجسس عليه، كلها مزايا تدل على انه رجل قوي، متزن،

شجاع، واثق من نفسه ومن الأوراق التي يملكها في يده.

ولكن ما هي هذه الأوراق؟ وما هي اللعبة التي يلعبها، ولحساب من؟ وإلى أي مدى تراه متورطاً؟

كان لوبين يجهل كل ذلك.. ولكنه قرر أن يتصدى للمعركة بقوة ويخوضها ضد خصوم أشداء ملتزمين ولا يعرف ما هي مواقعهم ولا أسلحتهم ولا مواردهم ولا مخططاتهم السرية. الشيء الوحيد الذي كان لا يقره هو بذل مثل هذه الجهود الجبارة من أجل امتلاك سدادة بلورية.

شيء واحد كان يسره وهو أن دوبريك لم يتمكن من التعرف إليه واكتشاف سره. كان يظنه عميلاً للشرطة ليس أكثر. كانت هذه ورقته الوحيدة.. الورقة التي تعطيه حرية عمل ويعلق عليها أهمية قصوى.

ودون أن يتردد لحظة واحدة قام بفتح الرسالة التي سلمه إياها دوبريك وراح يقرأ:

«نلت ما تمنيت. كل شيء في متناول يدك يا عزيزي برازفيل.. ولكنك أحمق أكثر من اللازم، ألم يجدوا غيرك ليهزموني؟ مسكينة يا فرنسا. وداعاً يا برازفيل. ولكن إذا قبضت عليك لن أرحمك..».

التوقيع: دوبريك.

وبعد أن فرغ من قراءة الرسالة استوقفته عبارة: «كل شيء في متناول يدك» وردد في نفسه: ربما كان هذا العجيب يقول الحقيقة. المخابىء البسيطة هي الأكثر ضمانة. ومع ذلك يجب أن نعرف لماذا دوبريك هو موضوع مراقبة مشددة.. ولا بد من جمع معلومات إضافية عنه.

وفيما يلي ملخص للمعلومات الخاصة بدوبريك والتي حصل عليها لوبين من وكالة خاصة.

«ألكسيس دوبريك، نائب عن منطقة بوش دي رون منذ سنتين. يصنف بين النواب المستقلين. آراؤه غامضة. ولكن وضعه الانتخابي قوي جداً نظراً للمبالغ الضخمة التي يصرفها على ترشيحه. لا ثروة لديه باستثناء فندق صغير لسكنه في باريس وفيلا في انجيان وأخرى في نيس. خسائر فادحة في المقامرة ودون أن يعرف أحد من أين وكيف يحصل على المال. متنفذ جداً. يحصل على ما يريد مع انه لا يتردد على الوزارات ويبدو ان لا صداقات ولا علاقات تربطه بالأوساط السياسية».

وقال لوبين وهو يعيد قراءة هذه المعلومات:

«إن ما أحتاجه هو سجل خاص يطلعني على الحياة الشخصية لهذا السيد ويسمح لي بالمناورة بكل حرية في هذه الظلمات ومعرفة ما إذا كنت لا أتعثر وأنا أهتم بالسيد دوبريك. يا للعنة! الوقت يمر بسرعة!».

كان لوبين يملك ـ من جملة ما يملك ـ شقة صغيرة في شارع شاتوبريان القريب من قوس النصر ويتردد عليها باستمرار وكان يعرف هناك باسم ميشال بومون. كانت الشقة مريحة ويهتم بشؤونها خادم مخلص له جداً يدعى أشيل ومهمتها الرئيسية التعرف إلى مصادر الاتصالات الهاتفية التي يتلقاها لوبين من عملائه.

وما أن دخل لوبين إلى منزله هذا حتى فوجىء بأن عاملة كانت هناك بانتظاره منذ ساعة على الأقل.

وسأل مندهشاً:

ـ كيف حدث هذا؟ لا أحد يأتي للقائي هنا على الإطلاق. هل هي شابة؟.

ـ لا. لا أعتقد.

ـ ألا تعتقد؟

ـ تضع فوق رأسها خماراً بدلاً من القبعة بحيث تصعب رؤية وجهها.. إنها مستخدمة.. غير أنيقة.. تعمل، ربما، في إحدى المحلات.

ـ طلبت من؟

ـ السيد ميشال بومون.

ـ غريب. ولأي أمر؟

ـ قالت لي ان الأمر يتعلق بموضوع انجيان.. عندئذ اعتقدت ان...

ـ موضوع انجيان تقول؟ إنها تعرف اني متورط فيه.. وتعرف انها إذا جاءت إلى هنا...

ـ لم أستطع أن أحصل على معلومات أخرى منها.. ولكني رأيت، مع ذلك، انه يجب استقبالها.

ـ حسناً فعلت. أينها؟

ـ في الصالون.

عبر لوبين الممر الضيق وفتح باب الصالون.

عاد تواً وصرخ في خادمه:

ـ ما هذا الهزار. لا أحد هنا.

ـ لا أحد؟ مستحيل..

واندفع نحو الصالون ليجده فارغاً. ثم التفت نحو لوبين وقال:

ـ كانت شاحبة مرهقة، منذ عشرين دقيقة نظرت من ثقب الباب فوجدتها جالسة فوق تلك الكنبة. أنا متأكد. ولم تكن فوق عيني أية غشاوة.

ـ هيا.. هيا. قل لي أين كنت عندما كانت هذه السيدة تنتظر؟

ـ في البهو يا سيدي. لم أتركه لحظة واحدة ولو خرجت هذه الكلبة لشاهدتها.

ـ ولكنها ليست هناك.

ارتعب الخادم وهمهم.

ـ طبعاً. طبعاً. ربما ضاقت ذرعاً بالانتظار وذهبت. ولكن أريد أن أعرف كيف ومن أين؟

ـ من أين؟ لا يحتاج ذلك لعناء كبير لتعرفه.

ـ كيف؟

ـ من النافذة. أنظر إنها لا تزال شبه مفتوحة.. إننا في الطابق الأرضي. الشارع مهجور تقريباً.. وخاصة في المساء.

تطلع لوبين من حوله ووجد ان كل شيء في مكانه لم يمس. فالغرفة لم يكن فيها لوحات جدارية أو وثائق هامة يمكن أن تفسر على أنها من أسباب الزيارة التي قامت بها المرأة واختفائها الفجائي؟

وتساءل مجدداً: «لماذا هذا الهرب الذي لا أجد لها مسوغاً؟» ثم سأل خادمه:

ـ ألم يتصل أحد اليوم؟

ـ لا.

ـ والبريد.

ـ أجل. رسالة واحدة وصلت قبل قليل.

ـ هاتها.

ـ وضعتها كالعادة فوق مدخنتك يا سيدي.

كانت غرفة لوبين محاذية للصالون ولكنه قام بإلغاء الباب بين الغرفتين ولهذا أصبح لزاماً عليه أن يمر في البهو ليدخل غرفته. أشعل النور وقال مخاطباً خادمه:

ـ لا أرى شيئاً.

ـ بلى يا سيدي. وضعتها قرب الكأس الكبير.

ـ لا شيء على الإطلاق.

ـ يبدو أن سيدي لم يفتش جيداً..

ثم نهض ودخل الغرفة. أزاح الكأس. ونظر أرضاً ثم عاد يبحث حول جوانب المدخنة. لم تكن الرسالة هناك. وخرج يشتم:

ـ هي التي سرقتها.. وهربت.. يا لها من عاهرة.

واعترضه لوبين قائلاً:

ـ إنك مجنون. ليس بين الغرفتين من موصل.

ـ إذاً من تراه فعل ذلك يا سيدي؟

صمت الإثنان. وحاول لوبين أن يضبط نفسه ويستجمع أفكاره. وسأل الخادم:

ـ هل فحصت تلك الرسالة؟

ـ نعم.

ـ ألم تجد فيها شيئاً مميزاً؟

ـ لا شيء. مغلف عادي يحمل عنواناً كتب بقلم رصاص.

ـ آه.. بقلم رصاص؟

ـ نعم. وكتب بسرعة ولا يخلو من تشطيبات.

ـ هل حفظته..

ـ حفظته لأنه بدا لي غريباً.

ـ قل. قل. ماذا كان يقول؟

ـ السيد ميشال دي بومون!

هز لوبين مستخدمه بعنف وسأله:

ـ كان هناك دي بومون؟ أنت متأكد؟ و«ميشال» بعد بومون؟

ـ متأكد تماماً.

وهمهم لوبين بصوت مخنوق:

ـ آه. إنها رسالة من جيلبير.

تسمر لوبين في مكانه، شاحب الوجه قليلاً وبدت عليه علامات الانفعال. لم يشك في الأمر. كانت الرسالة فعلاً من جيلبير. وهي الصيغة التي يستعملها هذا الأخير منذ سنوات، وبناءً على تعليمات لوبين نفسه، للاتصال فيما بينهما. لقد وجد جيلبير القابع في السجن طريقة لوضع هذه الرسالة في البريد. وها هي تسرق.

ماذا كانت تحتوي؟ وأية تعليمات دسها فيها السجين

اليائس؟ أي نجدة يرجوها؟ وأي حيلة يقترح؟

قام لوبين بتفحص الغرفة التي، على عكس الصالون، تحتوي على أوراق هامة. ولم يجد قفلاً واحداً مكسوراً. وهذا دليل على أن هدف المرأة الوحيد كان الحصول على رسالة جيلبير. حاول تهدئة نفسه وقال:

ـ هل وصلت الرسالة أثناء وجود المرأة هنا؟

ـ وصلت في نفس الوقت وعندما كان الحارس يقرع الباب.

ـ واستطاعت أن ترى المغلف؟

ـ نعم.

الخلاصة تكونت بحد ذاتها. وبقي معرفة كيف استطاعت هذه الزائرة تنفيذ عملية السرقة التي قامت بها. هل فعلت ذلك بالانزلاق من الخارج من نافذة إلى نافذة؟ مستحيل: فقد وجد لوبين نافذة غرفته مقفلة. أم تراها دخلت من الباب الجانبي؟ وهذا مستحيل أيضاً لأن لوبين وجده كما هو: مقفلاً ومدعماً بمزلاجين خارجيين.

لكي تدخل المرأة كان لا بد من وجود مدخل في مكان ما، وبما أن العملية تمت خلال دقائق فلا يعقل أن تكون المرأة حفرت في الجدار لتدخل منه ثم تخرج بهذه السرعة. الواضح انها كانت على معرفة مسبقة بالمكان الذي يمكن أن تدخل وتخرج منه.. اختصر هذا الافتراض كل الأبحاث وجعل لوبين يركز على الباب إذ لا وجود لأية فجوة في الجدار.

عاد لوبين إلى الصالون وراح يدرس الباب ويتأمله. ولاحظ لأول وهلة أن اللوحتين في أسفل الباب من اليسار لم تكونا في موقعيهما الطبيعيين وأن الضوء لا ينعكس عليهما تماماً.

انحنى ووجد أيضاً أن الحديدتين المسكتين بالألواح مفكوكتان مما جعل عملية نزع اللوحتين سهلاً.

صرخ أشيل مذعوراً ولكن لوبين قاطعه وقال:

ـ وماذا بعد؟ هل نحن متقدمون أكثر؟ هذا مثلث فارغ بطول ما بين ١٥ إلى ١٨ سم وارتفاع أربعين سم. طبعاً لن تصدق أن هذه المرأة أمكنها أن تنزلق من فتحة يصعب على طفل نحيف في العاشرة من العمر أن ينفذ منها.

ـ لا. ولكن استطاعت أن تدخل ذراعيها وتزيح المزلاج.

ـ المزلاج السفلي طبعاً. ولكن ماذا تقول عن المزلاج العلوي. لا. المسافة قصيرة. جرّب لنرى كيف.

ورفض أشيل.

لم يجب لوبين. واستمر غارقاً في تفكيره مدة طويلة. وفجأة أمر خادمه:

ـ هات القبعة والمعطف بسرعة.

خرج مسرعاً وطلب سيارة أجرة لتنقله فوراً إلى شارع ماتينيون.

وما أن وصل أمام مدخل المنزل حيث سرقت السدادة البلورية، حتى قفز من السيارة. وفتح المدخل الخاص وصعد فوراً. فتح باب الصالون على عجل وأشعل النور ثم تقدم من الباب الذي يصل بين الصالون وغرفته وجلس القرفصاء يدقق في الباب.

لقد حزر لوبين. ووجد أن واحدة من اللوحات السفلى الصغيرة منزوعة أيضاً. ووقف وصرخ:

اللصة فعلت نفس الشيء في شارع شاتوبريان. يجب أن أنتهي من هذه القصص.

كان لوبين يتمزق غيظاً ويحاول منذ ساعتين السيطرة على أعصابه الملتهبة.

كان لوبين يتعرض فعلاً لسوء طالع لا يصدق. يجعله يتلمس الحقيقة بالصدفة دون أن يتمكن من استخدام ما لديه من عوامل نجاح وقوة. عهد إليه جيلبير بالسدادة البلورية وبعث إليه برسالة. وفجأة يختفي كل شيء.. ولم يكن هذا، كما كاد أن يعتقده حتى الآن، عبارة عن سلسلة من المناسبات الطارئة والمستقلة بعضها عن بعض. لا. كانت بصراحة نتيجة إرادة صلبة تلاحق هدفاً معيناً بمهارة فائقة تهاجم لوبين نفسه وفي أعماق مساكنه الأكثر أمناً وتوجه إليه ضربات قاسية وغير متوقعة يحار في كيفية الدفاع فيها عن نفسه والخروج من مأزقها. ولم يذكر من خلال مغامراته انه تعرض لعقبات مماثلة.

وفي قرارة نفسه كان الخوف المدلهم من المستقبل يتنامى رويداً رويداً. وبرق أمام ناظريه الموعد المخيف الذي حدده، وبدون شعور، للعدالة كي تنتقم له.. فيساق اثنان من رفاقه إلى حبل المشنقة لينفذ فيهما حكم الإعدام.

. ٣ .

حياة ألكسي دوبريك الخاصة

عند عودة دوبريك بعد الغداء إلى منزله بعد أن كانت الشرطة قد قامت بتفتيش منزله قبل أربع وعشرين ساعة، استوقفته الحاجبة وأخبرته انها وجدت طباخة يمكن الوثوق بها.

تقدمت الطباخة بعد دقائق وعرضت أمام دوبريك شهادات خبرة من الدرجة الأولى موقعة من قبل أشخاص يمكن الاتصال بهم بسهولة للحصول على معلومات إضافية حول المأدب الجديدة. وأبدت استعداداً للقيام بكافة الخدمات المنزلية دون مساعدة خادم آخر وهو الأمر الذي كان اشترطه دوبريك للتقليل من فرص المراقبة والتجسس عليه.

بين المراكز التي شغلتها الطباخة كان عند النائب الكونت سوليفات. فاتصل دوبريك فوراً بزميله فلم يجده. ولكن مساعده أثنى على الطباخة وتم تعيينها. فبدأت العمل على الفور وأمضت النهار في تنظيف المنزل وإعداد الطعام.

تناول دوبريك طعام العشاء وخرج.

نامت الحاجبة عند الساعة الحادية عشرة. وقامت الطباخة بفتح باب الحديقة قليلاً. اقترب منها رجل فسألته:

ـ هذا أنت؟

ـ نعم. أنا. لوبين.

قادته إلى الغرفة التي تشغلها في الدور الثالث المطل على الحديقة وبدأت تتشكى قائلة:

ـ الخدع لا تتوقف بل تتزايد. ألا يمكن أن تتركني وشأني فأرتاح بدلاً من استخدامي في مجموعة من المهام؟

ـ ماذا تريدين يا عزيزتي فيكتوار؟ عندما يلزمني شخص ذو مظهر محترم وصاحب أخلاق رفيعة.. أفكر فيك على الفور. يجب أن تفخري بذلك.

وردت متنهدة:

ـ وهكذا تثور وتتأثر. تدفعني مرة جديدة إلى فم الذئب؟

ـ ما هو الخطر الذي تتعرضين له؟

ـ تتحدث عن الخطر وعما أخشى؟ شهاداتي كلها مزورة.

ـ الشهادات دائماً مزورة.

ـ وإذا عرف دوبريك بذلك؟ أو طلب معلومات عني؟

ـ طلبها لتوه.

ـ ماذا تقول؟

ـ اتصل بمساعد الكونت سوليفات الشخص المفترض أنك عملت في خدمته مؤخراً.

ـ ضعنا.

ـ لم يكف المساعد عن امتداحك والإطراء على عملك.

ـ ولكنه لا يعرفني.

ـ ولكن أنا أعرفه. وأنا الذي وظفته عند الكونت سـوليفات. أفهمتِ الآن؟

بدت فيكتوار هادئة قليلاً وقالت:

ـ وأخيراً.. ليكن كما تشاء إرادة الله.. أو بالأحرى إرادتك. وما هو دوري في كل هذا؟

ـ أن أنام هنا. وتعطيني نصف غـرفتك. بـإمكاني أن أنـام على الكنبة.

ـ وماذا بعد؟

ـ وإعطائي الأغذية الضرورية.

ـ ثم ماذا؟

ـ نتفق معـاً ونتعـاون لإدارة سلسلـة من الأبحـاث تهـدف إلى...

ـ تهدف إلى ماذا؟

ـ إلى اكتشاف الشيء الثمين الذي حدثتك عنه.

ـ ما هو هذا الشيء؟

ـ سدادة بلورية.

ـ سدادة بلورية.. يا لها من مهنة، وإذا لم نجـد سدادتـك البلورية هذه.. ماذا سنفعل؟

أمسك لوبين بذراعها وقال بصوت متهدج:

ـ إذا لم نجدها فـإن الصغير جيلبـير الذي تعـرفينه جيـداً وتحبينه كثيراً قد يدفع الثمن غالياً جداً وكذلك فوشري.

ـ لا يهمني مصير فوشري. إنه لص. ولكن جيلبير..

- هل قرأت الصحف هذا المساء؟ الموضوع بدأ يتحول من سيء إلى أسوأ. فوشري يتهم جيلبير بأنه ضرب الخادم ويتضح بدقة أن السكين الذي استعمله فوشري يعود إلى جيلبير الدليل وضح هذا الصباح. ولهذا يلجأ جيلبير الذكي الآن إلى اختلاق الأقاصيص والأكاذيب التي يمكن أن تودي بحياته. هذا هو الوضع في الوقت الراهن وإلى هنا وصلنا. هل تريدين مساعدتي؟

عاد النائب عند منتصف الليل.

ومنذ ذلك الحين وخلال أيام قرر لوبين أن يكيف حياته وينظمها وفقاً لحياة دوبريك.. فما أن يخرج هذا الأخير من منزله حتى يبدأ لوبين بحثه وتحرياته.

كان يتابعها منهجياً. يقسم كل غرفة إلى عدة قطاعات ولا يتخلى عنها إلا بعد تفتيشها بدقة متناهية وفقدان كافة التصورات الممكنة.

وكانت فيكتوار تبحث أيضاً. لم يتناسيا شيئاً. بحثا في قوائم الطاولات وسواعد الكراسي وإطارات اللوحات الجدرانية والأواني المنزلية والمعدات ولم يتركا مكاناً يمكن أن يفكر فيه إنسان كمخبأ لشيء ثمين ونادر إلا فتشا فيه.

إضافة إلى ذلك كانا يراقبان ويلاحظان أدنى تصرفات النائب وحركاته العفوية أحياناً ونظراته والكتب التي يقرأ والرسائل التي يكتب.

كانت عملية سهلة.

كان يبدو وكأنه يعيش مطمئناً إلى كل ما يدور من حوله. لم يقفل باباً اطلاقاً. ولا يتلقى اية زيارة. نمط حياته اليومي يسير

وفق آلية مدروسة، يذهب بعد الظهر إلى البرلمان وفي المساء إلى شلة الأصدقاء.

ويقول لوبين: ومع ذلك يجب أن يكون هناك شيء غير متناسق في كل هذا.

ـ لا اعتقد. إنك تضيع وقتك. والخطر يحدق بنا أكثر فأكثر.

كان وجود رجال الأمن ومراوحتهم تحت النوافذ يزعج فيكتوار جداً ولا تفسر هذا التواجد إلا من خلال عملية يعدونها لإلقاء القبض عليها، وبالجرم المشهود. كانت كلما ذهبت إلى السوق للتبضع تفاجأ بواحد من هؤلاء الرجال يضع يده فوق كتفها.

وذات يوم عادت قلقة وسلتها تكاد تفلت من ذراعها. وسألها لوبين:

ـ ماذا حصل يا عزيزتي فيكتوار. اراك ترتعشين.

ـ فعلاً. هذا واضح؟ فعلاً. حدث أمر مقلق ومربك.

جلست وبعد أن ارتاحت قليلاً قالت:

ـ شخص ما لحق بي إلى دكان الفاكهاني. وحاول التحرش بي.

ـ السافل. اراد اختطافك؟

ـ لا. سلمني رسالة.

ـ وتشتكين؟ إنه طبعاً اعلان حب.

ـ لا. قال لي أنها رسالة إلى معلمك. للسيد الذي يسكن غرفتك.

ـ ماذا؟ ثم ارتجف لوبين وقال:

ـ اعطني الرسالة، وانتزع المغلف من يدها.

لم يكن على المغلف أي عنوان. ولكن هناك مغلف آخر في داخل المغلف الأول معنون كالتالي:

إلى السيد ارسين لوبين. بواسطة السيدة فيكتوار. ثم مزق المغلف الثاني ووجد فيه ورقة كتب عليها ما يلي بحروف كبيرة:

كل ما تفعله لا جدوى منه ومحفوف بالمخاطر. الأفضل أن تتخلى عن اللعبة وتهجرها.

* * *

تنهدت فيكتوار بعمق وغابت عن الوعي.

واحمر لوبين خجلاً وكأنه اهين.

لم يقل شيئاً.

صحت فيكتوار وعادت إلى عملها، بينما بقي هو يفكر في غرفته طوال النهار.

لم ينم في المساء، ولم يتوقف عن الترديد:

لماذا التفكير؟ انّي اواجه واحدة من هذه المشاكل التي لا تحل بالتفكير، صحيح أني لست الوحيد في هذه القضية وأنه بين دوبريك والشرطة هناك لص ثالث هو أنا ورابع يعمل لحسابه ويعرفني ويقرأ أفكاري. ولكن من هو يا ترى هذا اللص الرابع؟ ولا يمكن أن أكون على خطأ؟ أوه.. كفى.. هيا بنا ننم!

ولكنه لم يستطع النوم واستمر ساهراً.

وعند الساعة الرابعة صباحاً تراءى لـه أنه سمـع ضجة في البيت. نهض بسرعة وشاهد من أعلى السلم دوبـريك ينـزل إلى الدور الأول ويتجه نحو الحديقة

شاهد دوبريك يفتح الباب الرئيسي فيدخـل منه شخص يلف رأسه وعنقه بالفراء، وسار الاثنان إلى المكتب.

وتحسباً لاحتمال من هذا النوع اتخذ لوبين احتياطاته: ولما كانت نوافذ المكتب وغرفته تقع خلف المنزل وتطل على الحديقة، رأى من الضروري تعليق سلم من الحبـال فـوق شرفتـه ويمكن لفـه بسرعة والانـزلاق فوقـه حتى المستوى الأعـلى من نوافـذ المكتب.

كـانت الستارات الخشبيـة تغطي هذه النـوافذ. وبمـا انها مستديرة ولا يمكن للوبين ان يسمع من خلال الفتحـات إلا أنه استطـاع تمييز كـل ما يحـدث في الداخـل. لاحظ أن الشخص الذي رآه يدخل قبل دقائق هو امـرأة وليس رجلاً.. انهـا امرأة انيقة، طويلة القامـة، تعلو وجنتيهـا سحابـة من الحزن تـوحي بانها تتألم.

وتساءل لوبين. يا الهي. مـاذا أرى؟ هل رأيتهـا سابقـاً؟ أن ملامحها ليست غريبة عني. إني اعرف هذا الوجه!!

كانت تقف مستندة إلى طاولة وتستمـع إلى دوبريـك الواقف أمامها ويحدثها بجدية وراحـة. أدار ظهره نـاحية لـوبين ولكن هذا الأخير كان قد انحنى وشاهد كأساً يعكس صـورة النائب. ارتعب لوبين وهو يرى نظرات دوبريك النهمة والرغبة المتوحشة من خلال حديثه مع زائرته.

لا بد أنها انزعجت من منظره الغـريب إذ جلست وأخفضت

حاجبيها. وهنا انحنى دوبريك نحوها وبدا وكأنه على استعداد لتطويقها بذراعيه وقبضتيه الضخمتين. وفجأة تنبه لوبين إلى الدموع الغزيرة تنهمر فوق وجه المرأة الحزينة. هل كانت هذه الدموع هي التي جعلت دوبريك يفقد السيطرة على نفسه؟ فبحركة مفاجئة ضم المرأة بقوة وجذبها ناحيته. دفعته بعنف وكراهية. وبعد صراع قصير تمكن لوبين أن يرى وجه دوبريك الهائج والمتحفز للانقضاض من جديد على المرأة . كانا الآن وجهاً لوجه يتناقشان كعدوين لدودين.

ثم صمتا. جلس دوبريك والشر يتطاير من ناظريه وبدا ساخراً وقاسي الملامح. وعاد يتكلم من جديد ويضرب الطاولة أمامه بقبضتيه وبحركات خفيفة وكأنه يفرض شروطاً معينة.

هدأت المرأة ولم تعد تتحرك أبداً. بدت شاردة النظرات.. تفكر وتهيمن على النائب بقامتها المديدة.

لم يرفع لوبين ناظريه عنها وقد أخذ بوجهها الحيوي والمتألم في آن. وعبثاً حاول البحث عن ذكريات يربطها بها وخاصة عندما رآها تدير رأسها قليلاً وتحرك ذراعها.

الذراع كان يبتعد عن الصدر بهدوء ثم تعيده بسرعة. وكررت الحركة أكثر من مرة. ورأى لوبين عند طرف الطاولة زجاجة مقفلة بسدادة ذهبية. لامست المرأة السدادة وتفحصتها بدقة ثم اعادتها إلى مكانها، ولم يكن هذا ما تريده المرأة بدون شك.

قال لوبين في نفسه: «يا الهي. هي أيضاً تبحث عن السدادة البلورية، ان الأمر يتعقد بالتأكيد يوماً بعد يوم».

وعاد لوبين يراقب المرأة من جديد ودهش على الفور للتغير

الذي طرأ علـى وجه الـزائرة ورأى أن يـدها لا زالت تـدور من حول الطاولة، وبحركة ربما متعمدة انزلقت حول الكتب فدفعتها جانباً وظهر على مقربة من يدها خنجر لمعت شفرته الحادة بـين أوراق الصحف المبعثـرة. فأمسكت بقبضــة الخنجـر بعصبيـة فيما استمر دوبريك يحاضر. ورفعت يدهـا من فوق ظهـره دون أن ترتجف. ورأى لوبـين روح الجريمـة تشع من عينيهـا التي تركزت على مركز خاص في عنقه أرادت أن تغرز الخنجر فيه.

وقال لوبين في نفسه:

ـ إنك ترتكبين حماقة كبيرة يا سيدتي الجميلـة. وفكر بـأن يهرب ويحمل فيكتوار معه.

ترددت الزائرة ويدهـا لا تزال مـرفوعـة. كان التـردد لفترة قصيرة. وعادت تصرف بأسنانهـا وتجهم وجهها ليـزيدهـا قلقاً حولته إلى اصرار وإقـدام وهوت بـالخنجر فـوق دوبريـك الذي ارتمى أرضـاً من فوق كرسيه وأمسك بقوة بيد الزائرة فصرخت ورمت الخنجر.

أمر عجيب. لم يهزهـا أو يلومهـا وكأن الأمـر الذي اقـدمت عليه لم يكن موجهاً ضده وأن ما حدث هو أمر عـادي وطبيعي. هـز كتفيه كـرجـل اعتـاد التعـرض إلى مثـل هـذا النـوع من الاخطـار. وراح يذرع أرض الغـرفة جيئـة وذهابـاً، صـامتـاً، مطأطىء الرأس.

جلست المرأة تبكي وقد غطت وجهها بيديها ثم تحول البكاء إلى انتحاب هزها بقوة. وعاد دوبريك إلى جانبهـا وتحدث إليهـا وضرب مجدداً فوق الطاولة

اشارت إليه أن لا. وعندما ألحّ بالطلب رفست برجليها بقـوة وصرخت بصوت عالٍ سمعه لوبين.

ـ أبداً.. أبداً.

وعندئذٍ، ودون أن يرد ولو بكلمة واحدة ذهب وعـاد بمعطف الفراء الذي كانت ترتديه ووضعه فوق كتفيهـا بينما كـانت هي تلف وجهها بخمار من الدنتيل الأبيض. قـادها إلى بـاب المنزل. فذهبت واغلق هو الباب ودخل إلى مكتبه.

وقال لوبين متحسراً في نفسه:

ـ مؤسف أنني لا استطيع اللحاق بهذه الانسانـة الغريبـة والتحدث إليها عن دوبـريك. وبـإمكاننـا نحن الاثنين أن نقـوم بعمل جيد.

وفي مطلق الأحوال كانت هناك نقطة تحتـاج للتوضيـح. ألم يتلق النائب دوبريك رغم حياته المنظمة والمثالية ظاهرياً زيارات ليلية خاصة طالما أن منزله لم يعد مراقباً من قبل الشرطة؟

كلف لوبين فيكتوار أن تطلب إلى رجلين من عصابته مـراقبة تحركات دوبريك لعدة أيام. وبقي هو ساهراً طوال تلك الليلة.

وكالبارحة تماماً، سمع ضجة عند الساعة الرابعة صبـاحاً. ورأى دوبريك يستقبل انساناً آخر في منزله.

نزل لوبين بسرعة ودون الاستعانة بالسلم وشاهد رجلاً يجـر نفسه عند قـدمي دوبريـك ويهم بتقبيلهما يـائساً وينتحب دون أمل.

دفعـه دوبريـك ضاحكـاً. ولكن الرجـل كان يعـود كل مـرة ويتمسك بقدمي النائب. كان في حالة الجنون التام. تماسك على نفسه ونهض ثم قفز وأمسـك بعنق النائب ورمـاه فوق الكنبـة. تخبط دوبريك مـدافعاً عن نفسـه وقد انتفخت اوداجـه. صرخ وكأنه جرح في أعماقـه وهجم على خصمـه بقوة غـير اعتياديـة

فانهال عليه ضرباً وتركه بدون حراك. بصق بعيداً وعاد فأمسك به بإحدى يديه ورفعه قليلاً وصفعه بقوة باليد الثانية.

نهض الرجل ببطء. كان شاحب الوجه ويحاول السير متأرجحاً فوق قدميه الداميتين. انتظر برهة وكأنه يحاول استعادة برودة اعصابه. وبكل هدوء مد يده وأخرج من جيبه مسدساً صوبه نحو دوبريك.

لم يهتز دوبريك. ضحك متحدياً وكأن ما يحدث لا يعنيه وكأن المسدس المصوب إلى صدره هو عبارة عن لعبة أطفال.

وخلال عشرين ثانية على الأقل بقي الرجل وذراعه ممدودة نحو عدوه، وفجأة اعاد المسدس إلى جيبه وسحب محفظته من جيبه الثاني. تقدم دوبريك نحوه خطوات قليلة. وعندما فتح الرجل محفظته المملوءة برزمة من الأوراق النقدية اختطفها دوبريك من يده وعدها كانت من فئة الألف فرنك وبحدود الثلاثين ورقة.

كان الرجل يراقب النائب دون أن يبدي أي احتجاج أو امتعاض. ولا بد أنه كان يدرك تماماً أن لا فائدة من الاعتراض وأن دوبريك من صنف الرجال الذين لا يمكن ثنيهم بسهولة. فلماذا يضيع وقته في الترجي أو الانتقام منه بتوجيه التهديدات التي لا فائدة منها؟ هل هو قادر على النيل من هذا الرجل الذي يصعب الوصول إليه؟ إن موت دوبريك لن يخلصه من.. دوبريك.

تناول قبعته فوضعها فوق رأسه وانصرف.

وعند الساعة الحادية عشرة صباحاً وبعد عودتها من السوق سلمت فيكتوار لوبين قصاصة من شركائه في العصابة كتب عليها:

الرجل الذي جاء إلى منزل دوبريك هذه الليلة هو النائب لانجيرو رئيس حزب اليسار المستقل. متوسط الثروة. عائلته كبيرة.

وقال لوبين في نفسه:

ـ دوبريك ليس سوى مبتز ونصاب. ان أساليب العمل التي يتبعها قوية، قاسية، وفعالة!

وجاءت الأحداث تعطي دفعاً جديداً لافتراضات لوبين. فبعد ثلاثة أيام شاهد رجلاً ثالثاً يقدم لدوبريك مبلغاً كبيراً من المال، وبعد أيام جاء رابع وسلمه عقداً من الجواهر. الثالث كان ديتومون، وهو عضو مجلس الشيوخ ووزير سابق. وكان الرابع المركيز داليوفكس، نائب بونابارتي والرئيس السابق لمكتب الأمير نابوليون السياسي.

وعاد لوبين يخاطب نفسه بعد أن حصل على هذه المعلومات ويقول:

ـ كنت شاهداً على أربع زيارات. ولن أعرف أكثر إذا كان هناك زيارات أكثر.. يكفيني أن اعرف من خلال أصدقائي اسماء الزائرين.. ولكن هل سأذهب لمقابلتهم؟... ولماذا؟ ليس هناك أية أسباب تجعلهم يثقون بي. ومن ناحية ثانية هل يجب أن اتأخر هنا بانتظار تحقيقات لا تتقدم أبداً وفي وقت يمكن لفيكتوار أن تقوم بالمهمة نيابة عني؟

بدا مرتبكاً وقلقاً جداً، فأخبار التحقيقات الخاصة بجيلبير وفوشري كانت تزداد سوءاً والأيام تمر سريعة ولا يدع ساعة دون أن يتساءل ـ وبأسى بالغ ـ إذا كانت الجهود القوية التي يبذلها ستؤدي، وعلى اعتبار أنها ناجحة، إلى نتائج مخيبة للظن

وبعيدة عن الهدف الذي يسعى وراءه؟ وهل ستتاح له الفرصة لمساعدة جيلبير وفوشري؟

وفي ذلك اليوم وقع حادث وضع نهاية لتردده. فبعد الغداء سمعت فيكتوار، عن طريق التنصت، دوبريك يتحدث هاتفياً. واستخلص لوبين من اقوال فيكتوار أن النائب مدعو إلى العشاء عند الساعة الثامنة والنصف برفقة سيدة وعليه أن يقودها بعد ذلك إلى احد المسارح. وسمعت فيكتوار النائب يقول:

ــ سأستأجر مقصورة كما لم افعل منذ ستة اسابيع. ثم يضيف ضاحكاً: وآمل ألا يسرقوني في هذه الفترة.

بالنسبة للوبين كانت الأشياء واضحة لا تحتمل ادنى مجال للشك. إذ سيمضي دوبريك امسيته بنفس الطريقة التي امضاها فيها قبل ستة أسابيع عندما سرقت فيلته في انجيان. كان يهمه جداً أن يعرف الشخص الذي سيلقاه وربما أيضاً كيف عرف جيلبير وفوشري أن غياب النائب عن منزله سيستغرق من الثامنة مساءً وحتى الواحدة صباحاً.

ترك لوبين منزل دوبريك وذهب إلى منزله في شارع شاتوبريان ومن هناك اتصل بثلاثة من رفاقه بعد أن استبدل ملابسه ولف نفسه بمعطف من الفراء الروسي. وصل الرفاق الثلاثة في سيارة. وعندما كان يهم بالركوب إلى جانبهم تقدم منه الخادم اشيل وناوله برقية موجهة إلى السيد ميشال بومون، شارع شاتوبريان. فض البرقية وقرأ:

لا تأتِ إلى المسرح هذا المساء. ان تدخلك قد يفقدك كل شيء.

دس لوبين البرقية في جيبه وقال صارفاً بأسنانه:

مفهوم. مفهوم. يلعبون معي كما اعتدت أنا أن ألعب مع الآخرين. يستعملون نفس الأساليب ونفس الحرتقات.. ولكن يبقى هناك فارق في كل هذا...

أي فارق؟ هو نفسه لم يكن يعرف الكثير عنه.

انطلق مع رفاقه بسرعة، دخلوا احد المطاعم المتوسطة فأكلوا وشربوا ودخن لوبين سيجاراً ثم خرجوا وقاموا بجولة حول المسارح التي يمكن ان يفضلها دوبريك ورفيقته. وعند العاشرة مساءً شاهد مقصورة فخمة وعرف من العاملة أن فيها رجلاً متقدماً في السن وسيدة مقنعة بمنديل كثيف.

المقصورة المجاورة كانت فارغة. استأجرها فوراً واستدار ناحية أصدقائه ليزودهم بالتعليمات الضرورية واستقر إلى جانب الزوجين.

أثناء الاستراحة وتحت الأضواء الساطعة تمكن لوبين من التعرف إلى طيف دوبريك فيما بقيت السيدة قابعة في عمق المقصورة غير مرئية بوضوح. كان الاثنان يتحدثان بصوت خافت: وفجأة ارتفع الستار فيما استمرا هما في الحديث ولم يتمكن لوبين من سماع كلمة واحدة من حوارهما. مرت عشر دقائق. وجاء احدهم يقرع بابهما. كان واحداً من مفتشي المسرح. وسأل:

– السيد النائب دوبريك.. اليس كذلك؟

– نعم. أجاب دوبريك دهشاً. وأضاف:

– ولكن كيف عرفت اسمي؟

– من شخص يطلبك على التليفون. وقال انك في المقصورة رقم ٢٢.

ـ ولكن من هو هذا الشخص؟

ـ السيد المركيز دالبوفكس.

ـ ماذا؟ من؟

ـ بماذا أجيبه؟

ـ أني قادم.. انتظر.

نهض دوبريك بسرعة وتبع المفتش.

ومـا أن ابتعد حتى خـرج لوبـين من مقصورتـه. دفع بـاب مقصورة النائب وجلس إلى جانب السيدة.

حـاولت أن تصرخ ولكن لوبين نهرها قائلاً:

ـ انصتي جيداً. لدي ما أقوله لك، وهو غاية في الأهمية.

صرفت باسنانها وقالت دهشة:

ـ آه.. من؟ ارسين لوبين.

تسمر لوبين وفغر فاه، لقد عرفته هذه المرأة من صوته ورغم تنكره. ورغم تعرضـه لأحداث ممـاثلة وربمـا اعنف، إلا أن ما حدث مع هذه المرأة فاق كل تصوراته وهز كيانـه. لم يحتج بـل همس:

ـ تعرفين اسمي؟ كيف؟

وقبل ان تستعد للدفاع عن نفسها أسرع ينزع الخمـار عن وجـهها، وصرخ مرتاعاً.

ـ هل هذا ممكن... لا اصدق ما أرى.

كانت المرأة التي رآها عند دوبريك قبل أيام مضت.. المـرأة التي رفعت الخنجر وحاولت أن تغرزه في عنقه بقـوة وكراهيـة.

وبدت بدورها مرتبكة وقلقة. وسألت لوبين:

ـ ماذا؟ هل سبق ورأيتني قبلاً؟

ـ نعم. الليلة الماضية. في منزله. ورأيت أيضاً الحركة التي قمت بها.

حاولت أن تهرب فأمسك بها وقال محتداً:

ـ يجب أن اعرف من أنت. ومن أجل هذا طلبت إلى احدهم أن يتلفن لدوبريك.

ارتجفت وسألت:

ـ كيف؟ اليس المتحدث المركيز دالبوفكس؟

ـ لا. هذا واحد من شركائي.

ـ حسن، ولكن دوبريك سيعود..

ـ نعم، إنما لدينا متسع من الوقت، اسمعيني. يجب أن نلتقي، انه عدوك. وسأنقذك منه.

ـ لماذا؟ وما الهدف من ذلك؟

ـ ثقي بي. ان مصالحنا واحدة. أين يمكنني أن ألقاك؟ غداً اليس كذلك؟ في أي وقت.. وأين؟

ـ حسناً.

نظرت إليه بتردد واضح ولم يرتح إليها لوبين وقال راجياً: أرجوك. أجيبي، كلمة واحدة فقط.. وفوراً. من المؤسف أن يعود دوبريك ويجدني هنا. أرجوك.

وأجابته بصوت واضح: لا يهم اسمي ولا جدوى من معرفته. سنلتقي وتشرح لي. نعم. سنلتقي ما رأيك غداً الساعة

الثالثة بعد الظهر عند زاوية البوليفار.

وفي هذه اللحظة بالذات فتح باب المقصورة ودخل دوبريك.

فقال لوبين غاضباً لأنه لم يحصل بعد على ما يريد: انها ورطة.

همهم دوبريك بصوت عال وقال: كنت أشك بذلك، ان الاعيب التليفون هذه لم تعد لتنطلي عليّ يا سيد. ودفع لوبين بقوة فرماه فوق الكنبة وعاد يرتاح إلى جانب السيدة ويسأل هازئاً: من أنت يا أميرنا الصغير؟ خادم في شرطة المدينة؟ ربما لا. ولكن مظهرك يدل على ذلك.

تفحص لوبين الذي لم يرمش له جفن، ولكن دوبريك لم يعرف أن الشخص الذي أمامه هو نفسه الذي التقاه قبلاً واطلق عليه اسم بولونيوس.

كان لوبين ينظر إلى دوبريك ويفكر. لم يرد أن يتخلى عن مهمته وخاصة بعد أن وصل إلى نقطة تتيح له الفرصة الملائمة للتعاون مع عدوة دوبريك التي كانت تقف في الزاوية وتراقبهما. وقال لوبين:

ـ هيا نخرج يا سيد، المقابلة في الخارج ستكون أسهل.

ـ هنا أفضل أيها الأمير الصغير، وخلال فترة الاستراحة، وهكذا لا نزعج أحداً.

ـ ولكن.

ـ لا تحاول، لن تتحرك من هنا.

وأخذ لوبين بياقته وعلى أمل ألا يتركه قبل الاستراحة.

إن ما يدعو للغرابة هنا هو كيف وافق لوبين على البقاء.

مثل هذا الموقف وخاصة أمام امرأة كان عرض عليها أن يتحد معها.. إضافة إلى كونها جميلة وجمالها يروق له ويغريه للمرة الأولى.

وهكذا قبل بالوضع وأحسّ بثقل يد الرجل فوق كتفيه فانحنى كمهزوم ضعيف وخائف.

خفف دوبريك من قوة قبضته وظن لوبين أن الفرصة ملائمة لعمل شيء ما.

تململ في مقعده وضرب دوبريك بمرفقه بقوة في معدته فصرخ الأخير وتراجع عنه خطوات وبسرعة اندفع لوبين نحوه وأمسك بخناقه. افلت دوبريك منه واشتبك الاثنان بالأيدي.

ارتعبت المرأة وحارت إلى أي جانب تنحاز؟ فماذا يمثل لوبين بالنسبة لها؟ صديقاً أم عدواً؟ انتقلت بسرعة إلى مقدمة المقصورة وحاولت أن تخرج وتهرب.

قال لها لوبين وكأنه أراد مساعدتها:

- ارفعي الكرسي.

كان يتحدث عن كرسي ثقيل وقع ويفصله عن دوبريك وتدور معركتهما فوقها. انحنت المرأة وسحبت الكرسي. كان هذا ما يريده لوبين منها. تخلص لوبين من العقبة وركل دوبريك الممدد أرضاً بكعب حذائه فصرخ الأخير مستغيثاً ولكن لوبين عاجله بركلة ثانية فوق ذراعه وهجم نحوه محاولاً غرز أصابعه العشر في عنقه.

قاوم دوبريك وحاول إبعاد يدي لوبين الضاغطتين على خناقه وهنا شعر بضيق نفس وتضاءلت قواه. وعندها ابتسم لوبين وقال:

ـ أيها القرد القذر. لماذا لا تطلب النجـدة. هل أنت خـائف من الفضيحة!

سمع لوبين ضجيجاً في الخارج فعاد نحـو دوبريـك وصفعه على وجهه فترنح وسقط مغشياً عليه.

لم يبق أمام لوبين سوى الهـرب وحمل المـرأة معه قبـل أن يدق جرس الانذار وينكشف امره.

وعندما التفت نحـو الزاويـة وجد أن المـرأة ذهبت، لا يمكن أن تكون ذهبت بعيداً. فقفز من المقصورة وانـدفع راكضـاً غير آبه بالعـاملات والمـراقبين. وكـان توقعـه في محله. فمـا أن بلغ الدور الأرضي شاهدها من خلال أحد أبواب مدخل المسرح تعبر رصيف «شوسيه دانتين». وعندما بلغها كانت قد ركبت سيـارة اجرة واغلقت الباب. امسك لوبين بقبضة البـاب وحاول فتحـه ولكن فجأة برز شخص من داخل السيارة ووجه إليه لكمة قوية على وجهه فترنح وكاد يسقط ارضاً. إلا أنـه استطاع التعـرف إلى المعتـدي الجالس في المقعـد الخلفي والسائق المتنكـر. كانـا غرونيار ولوباهو، الشخصين المكلفـين بالقـوارب عشية حـادث انجيان وصديقَيْ جيلبـير وفوشري. وهمـا في الواقـع اثنان من اصدقائه وشركائه.

عاد إلى منزله في شارع شاتوبريان فغسل وجهه المـدمى ثم تمدد فوق كنبـة واستغرق في التفكـير لأكثر من سـاعة. وللمـرة الأولى شعـر بألم الخيـانة. وللمـرة الأولى ينقلب رفاق الصراع ضد رئيسهم.

أراد أن يـروّح عن نفسـه فتنـاول بـريـده المسـائي وفتـح صحيفـة وراح يقرأ آخـر الأنباء.. فتسمـرت عيناه فـوق الخبر التالي:

قضية فيلا ماري ترين، لقد تم التعرف إلى هوية فوشري وهو أحد القتلة المتهمين باغتيال الخادم ليونارد. إنه لص من أسوأ الأصناف. محكوم عليه بتهمة القتل. ولن يطول الوقت لاكتشاف الاسم الحقيقي لشريكه في الجريمة جيلبير. وفي جميع الأحوال فإن قاضي التحقيق مصمم على ارسال القضية بأسرع وقت أمام غرفة الاتهام. وكان بين بقية الصحف رسالة ما أن رآها لوبين حتى قفز وتناولها.

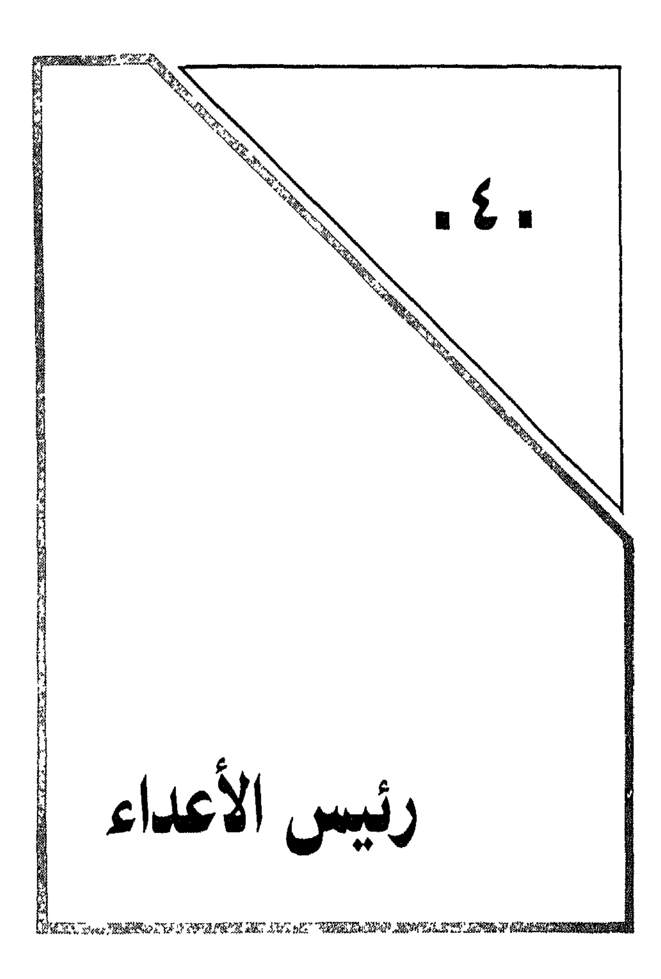
كانت الرسالة موجهة إلى السيد بومون (ميشال) همهم لوبين قائلاً:

ـ انها رسالة من جيلبير.

وفضها وقرأ:

ـ النجدة يا معلمي. إني خائف. إني خائف.

كانت تلك الليلة أيضاً بالنسبة للوبين ارقاً وكوابيس.



٤٠

رئيس الأعداء

تمتم لوبين وهو يعيد قـراءة رسالـة جيلبير في اليـوم التالي:
«ولد تعيس. لا بد أنه يتألم جداً».

منذ اليوم الذي التقاه شعر بالعطف نحو هذا الشـاب المرح الطامح بـالحياة، وكـان جيلبير عـلى استعداد للمـوت لدى أول اشارة فداء وإخـلاصاً للـوبين.. الـذي أحب فيه أيضـاً طيبته وسـذاجته ووجهـه الذي لا تفـارقه الابتسـامة. كـان يقول لـه باستمرار: «أنت رجل شريف يا جيلبير، لو كنت مكـانك لتخليت عن هذه المهنة وانخرطت في صفوف الرجال الشرفاء».

ـ بعدك طبعاً يا سيدي.

ـ ألا تريد ذلك؟

ـ لا يا سيدي. الرجل الشريف يعمل، وأنا تذوقت الانحراف واللصوصية منذ كنت صبياً تائهاً ولكنهم تخلوا عني.

ـ من هم؟

صمت جيلبـير كما يفعـل دائمـاً عنـدمـا كـان يسـأل عن السنوات الأولى من حياته. وكان لوبين يعرف كل شيء وأنه تيتم منـذ صغره وعـاش مشرداً يبدل اسمـه ويربط وجـوده بـأتفـه

وأغرب المهن. كان في حياته سر لم يتمكن أحد من معرفته ولا يبدو أن العدالة ستتوصل في النهاية إلى اكتشافه. ولكن لم يبد على الاطلاق أن السر الغريب كان عائقاً أمام العدالة ليجعلها تتأخر في سوق جيلبير أمام المحكمة تماماً كما فعلت بفوشري.

عاد لوبين يؤنب نفسه ويقول: مسكين. إذا كان يلاحق هكذا فهو بسببي. يتخوفون من أن يهرب. ولهذا يتعجلون الوصول إلى الهدف، إلى الحكم أولاً.. ثم الإلغاء.. شاب في العشرين من العمر، لم يقتل ولم يشارك في جريمة. ولم يكن لوبين يجهل أبداً صعوبة بيان ذلك وأن عليه توجيه جهوده نحو نقطة أخرى. ولكن أية نقطة؟ هل عليه أن يتخلى عن اقتفاء أثر السدادة البلورية؟

لم يستطع اتخاذ قرار بهذا الشأن. هروبه الوحيد كان الذهاب إلى انجيان حيث يقطن غرونيار ولوباهو والتأكد من انهما اختفيا منذ حادث الاغتيال في فيلا ماري تريز. ولكنه لم يرد أن يشغل باله بكل هذا بل أراد فقط الاهتمام بدوبريك.

رفض التفكير بأدنى لغز يعترض طريقه في الوقت الحاضر وخاصة بخيانة غورنيار ولوباهو وعلاقتهما بالسيدة ذات الشعر الرمادي والتجسس الذي هو ضحيته شخصياً. وقال في نفسه:

اصمت يا لوبين. اصمت. اياك والاستنتاجات الآن. إنك ترتجف من الحمى وكل تفكير صادر عن إنسان في حالتك هذه يعتبر خطأ. وليس هناك اسوأ من استنتاج الوقائع الواحدة من الأخرى قبل وجود نقطة انطلاق أكيدة. استمع إلى غريزتك.. اتبع حدسك. أنت متأكد من أن الموضوع بأسره يدور حول هذه السدادة السرية فتابعه بنشاط وتحفظ.

لم ينتظر لوبين بلوغ هذه الخلاصات ليبرمج اعماله وفقاً

لها، وفي اللحظة التي كان يردها في ذاته كان قد ارتدى مشلحاً ومعطفاً قديماً وانطلق ليجلس فوق مقعد على رصيف جادة فيكتور هيغو وعلى مسافة متوسطة من ساحة لامارتين.. واستناداً إلى تعليماته كان على فيكتوار أن تمر كل صباح وفي ساعة محدودة أمام هذا المقعد.

تمدد فوق المقعد يستريح ويتمتم:

ـ نعم. السدادة البلورية. كل شيء فيها.. وعندما احصل عليها..

توقف عن الهمهمة عندما وصلت فيكتوار وفي يدها سلة مملوءة بالمؤن على الفور لاحظ امتقاع وجهها غير الطبيعي وسألها:

ـ ماذا حدث؟ وسار إلى جانبها.

دخلت إلى محل كبير لبيع الحلوى يغص بالناس والتفتت نحوه وقالت:

ـ خذ. هذا ما تبحث عنه.

ثم سحبت من سلتها شيئاً وناولته اياه. ارتبك لوبين ولم تصدق عيناه.. كانت السدادة البلورية في يده. تمتم وكأنه كاد أن يفقد النطق

ـ هل هذا معقول؟

ولكن الواقع كان هناك. مرئياً ومحسوساً. تعرف إلى السدادة البلورية من تصميمها وجوانبها المطلية بالذهب. كانت السدادة أمامه.

من جهة ثانية، كان هذا الشيء يمثل كافة المزايا ولكن ليس

فيه ما يدل على أنه جديد. كان سدادة بلورية.. وهذا كل شيء. ليس فيه أية علامة تميزه عن بقية السدادات.. وليس هناك من اشارة محفورة فوقه أو رقم. مسكوب كقالب واحد ولا يحتوي على أية مادة غريبة.

- إذاً ماذا؟

وفجأة استدرك لوبين عمق خطأه. ماذا يهمه أن يمتلك هذه السدادة البلورية إذا كان يجهل قيمتها؟ إن هذه القطعة الزجاجية لم توجد تلقائياً ولكن من أجل المعنى المرتبط بها. وقبل أخذها يجب معرفة أشياء كثيرة. ومن يضمن له، مثلاً، أنه في حال أخذها من دوبريك لا يرتكب حماقة؟

سؤال يستحيل حله. ولكنه يفرض نفسه عليه بقوة غريبة.

لم يرفع ناظريه عن فيكتوار. كانت تنتقل بين مجموعة الزبائن من مقصف إلى آخر. توقفت مطولاً أمام الصندوق ومرت بقرب لوبين.

همس بصوت خافت:

اللقاء وراء ثانوية جانسون.

لحقت به في شارع ضيق قلما استخدمه المارة وقالت:

- وإذا لحقوا بي؟

- لا. ليس هناك أحد. أين وجدت هذه السدادة؟

- في أحد ادراج خزانته الصغيرة.

- مع العلم أننا بحثنا جيداً هناك.

- وأنا أيضاً عاودت البحث صباح أمس. لا بد أنه وضعها في الخزانة هذه الليلة.

ـ ولا بد أنه سيعود ليأخذها.

ـ ربما.

ـ وإذا لم يجدها؟

صمتت فيكتوار وشحب وجهها، فقال لوبين:

ـ اجيبي. إذا لم يجدها ألا يتهمك بالسرقة أنت بالذات؟

ـ طبعاً.

ـ خذيها وضعيها في مكانها.

ـ يا الهي. آمل ألا يكون تنبه إلى شيء. أعطني السدادة بسرعة.

بحث في جيب معطفه وقالت فيكتوار ويدها ممدودة.

ـ ماذا تنتظر؟

ـ عاود البحث وقال:

ـ إنها ليست هنا.

ـ ماذا؟!

ـ صدقيني. لقد سرقوها مني. وانفجر ضاحكاً ودون أن تخالطه أية مرارة. فسخرت فيكتوار منه وقالت:

ـ اتضحك ونحن في وضع كهذا؟..

ـ ماذا تريدين؟ أمر غريب. نحن لا نعيش مسرحية بل قصصاً أغرب من الخيال كحكايات الجن ومنها: «حبوب الجن»، أو «رجل الخروف». ومنذ أن تتاح لي الفرصة سأكتب هذا.. «السدادة السحرية» أو «مغامرات المسكين ارسان السيئة».

ـ حسناً.. من أخذها منك؟

ـ ماذا تقولين؟ طارت لوحدها.. تبخرت في جيبي.

دفع برفق الخادمة العجوز. وقال بصوت جاد:

ـ ادخلي يا فيكتوار ولا تقلقي، الأكيد أن أحدهم رآك تعطينني هذه السدادة استفاد من الزحمة في المحل ليسحبها من أعماق جيبي. كل هذا يدل على أننا مراقبون عن قرب ومن قبل خصوم عنيدين أشداء. كوني عاقلة وهادئة. الكلمة الأخيرة هي دائماً للشرفاء. اليس لديك أشياء أخرى تقولينها لي؟

ـ نعم. جاءوا أمس أثناء خروج دوبريك، شاهدت أشباحاً تنعكس فوق أشجار الحديقة.

ـ الحارسة؟

ـ لم تكن الحارسة قد نامت بعد.

ـ لا بد أنهم من الشرطة. انهم مستمرون في بحثهم. ستتركينني أدخل يا فيكتوار..

ـ كيف تريد أن تدخل؟

ـ وما وجه الخطر في ذلك؟ غرفتك في الدور الثالث. ولن يشك دوبريك بشيء..

ـ ولكن الآخرين.

ـ الآخرون؟ لو كان لهم مصلحة في إيذائي لفعلوا ذلك منذ زمن بعيد، اني أزعجهم، وهذا كل شيء. انهم لا يخافونني. ايقظيني عند الخامسة!!

مفاجأة أخرى كانت تنتظر لوبين. فعند المساء جاءته خادمته العجوز واخبرته أنها عندما فتحت درج الخزانة وجدت

السدادة البلورية في مكانها.

لم تكن مثل هذه الأحداث العجائبية تثير لوبين كثيراً. وقال في نفسه بكل بساطة.

ـ أعادوها إذن. والرجل الذي اعادها دخل المنزل بوسائل اعجز عن شرحها. وهو مثلي رأى أن السدادة يجب ألا تختفي. ودوبريك نفسه ترك هذه السدادة في الدرج وكأنه لا يعلق عليها أية أهمية. ولا بد من تكوين فكرة حول الأمر. ولا بد أن لقاءً سيتم بيني وبين الآخرين. وعندئذٍ أصبح سيد الموقف.

مرت خمسة أيام دون أن يتوصل إلى أي جديد يذكر. وفي اليوم السادس تلقى دوبريك زيارة صباحية من النائب لايباش حيث سلمه مبلغ عشرين ألف فرنك بعد أن ترجاه وتمرغ عند قدميه.

وبعد يومين أيضاً وعند الساعة الثانية صباحاً شاهد لوبين شخصين يصعدان السلم ويتوقفان في الدور الأول أمام غرفة دوبريك. ماذا تراهما يفعلان هناك؟ لا يمكنهما الدخول طالما أن دوبريك يقفل غرفته جيداً ويضع أكثر من قفل ومزلاج.

وسمع لوبين حركة خفيفة عند الباب وأحدهما يقول: هذا ممكن؟

ـ طبعاً. ولكن يجب تأجيل ذلك إلى الغد.. لأن..

لم يسمع لوبين نهاية الجملة. وعاد الرجلان أدارجهما فأغلقا الباب بهدوء وكذلك مدخل الحديقة. وعاد لوبين واستغرق في التفكير:

أمور عجيبة تدور في هذا المنزل. دوبريك يخبىء فيه كل شيء ويتحدى التجسس. ولكني أرى الجميع يدخلون وكأنهم

يترددون على مطحنة.. أنا أدخل عن طريق فيكتوار مثلاً. وكذلك رجال الشرطة ولكن من يعمل لحساب من؟ ومن يدعم كل هؤلاء. أتراهم يتصرفون على انفراد ولا علاقة لأحدهم بالآخر؟

بعد الظهر، وأثناء غياب دوبريك، قام بفحص باب الغرفة في الدور الأول وفهم من النظرة الأولى أن دفتي الباب مخلعتان ويمكن انتزاعهما بسهولة. ولا بد أن الذين قاموا بهذا العمل هم أنفسهم الذين حاولوا خلع أبواب منزليه في شارعي ماتينيون وشاتوبريان.

لاحظ لوبين أن العمل يعود إلى فترة سابقة وأن الفتحة، كما هي الحال عنده، قد أعدت مسبقاً تحسباً لظروف ملائمة أو لضرورة مباشرة.

كان النهار قصيراً بالنسبة للوبين. وعليه أن يعرف ليس فقط الأساليب التي يستخدمها خصومه من خلال هذه الفتحات طالما أنهم غير قادرين على الوصول إلى المزاليج العليا في الأبواب. وسيعرف دون شك من هم هؤلاء الخصوم الذين لا بد له من أن يلقاهم ذات يوم وجهاً لوجه.

حادث ما أقلق تفكيره. فقد عاد دوبريك من العشاء عند العاشرة ودخل من الممر بعد أن رفع مزاليج باب الحديقة. ففي هذه الحالة كيف يستطيع «الآخرون» تنفيذ مخططهم والوصول إلى غرفة دوبريك؟

اطفأ دوبريك الأنوار وانتظر لوبين ساعة على الأقل ثم قام وأدلى سلمه وجلس في الدور الثاني يراقب كل ما يدور من حوله.

وبعد ساعة شاهد من يحاول فتح باب الممر. فشلت المحاولة وتلتها دقائق من الصمت المطبق. وظن لوبين أن المغامرين

تـراجعوا عن محـاولتهم.. ولكنه ارتجف فجـأة عندمـا شاهـد أحدهم يدخل دون صرير البـاب. استمر ذلـك طويـلاً، تردد لا يـدري ماذا يفعـل ولا ماذا يفتـرض. وفجأة تنبـه إلى الساعـة الـجدارية وهـي تعلن الساعة الثانية صباحاً، عـرف أنها سـاعة دوبريك.

نزل لوبين واقترب من البـاب على عجـل فوجـده مغلقاً ولكن دفة منه انتزعت وتركت فيه فجوة. جلس لوبين ونظر من خلالها فشـاهد دوبـريك يتقلب في سريـره ويتنفس بصعوبـة مصـدراً أصوات حشرجة ويسعل بقوة.

سمع لوبين بوضـوح حفيفاً بين الثياب وتأكد لـه أن شخصاً ما في الداخل يعبث بها ويفتش حتى في الثياب الملقاة إلى جانب دوبريك الممدد في سريره.

وقـال لوبـين في نفسه: أعتقـد أن القضية ستتضـح قليـلاً. ولكن كيف استطاع اللص أن يدخل الغرفة.. هل تـراه نجح في سحب المزاليج وفتح الباب؟ ولكن لماذا تراه اصر على اقفالها؟

لم يشك لوبين ولو للحظة واحدة في الحقيقة التي ستتكشف له. تربع عند اسفل السلم بين باب دوبريك والممر. وهو الطريق الذي يجب أن يمر منه عدو دوبريك ليلحق برفاقه.

ان عـدو دوبريـك هو عـدوه أيضاً، كـان على أهبـة تعريتـه وإسقـاط القنـاع عن وجهـه وبعـدهـا ينصرف إلى مشـاريعـه فيستولي على الفريسة أثناء نوم دوبريك ويذهب انتظار الشركاء الموزعين حول الحديقة وفوق السور لرئيسهم سدى.

حاول تمييز الشخص القـادم باتجـاهه. أصبـح على بضـع خطـوات منه ولكن لا خـوف من أن يكشفه. كـان اللص يتقدم بخطوات وئيدة ويتمسك بجوانب السرير. بدأ قلب لـوبين يـدق

وقال في نفسه: من تراني سأقابل يا ترى؟

الحل بدأ يتسارع. تنبه اللص إلى حركة تمت من لوبين فتوقف فجأة. قفز لوبين فوق الشخص وحاول أن يمسك به. افلت منه بسرعة وهرب في الممر بعد أن قام برمي الكراسي والكتب وغيرها من أجل اعاقة تقدم لوبين الذي استطاع القفز فوق حاجز يعترضه وأمسك باللص عند باب الحديقة.

علت صرخات الرعب وتلتها صرخات أخرى من الجانب الآخر للباب. وتمتم لوبين:

– يا للعنة! ما هذا؟

وإذ به يمسك بين يديه شيئاً يرتجف ويئن. كان هذا هو اللص. فهم فجأة ما يحدث فارتجف وتجمد للحظة في مكانه لا يعرف ماذا سيفعل بأول غنيمة يحصل عليها. كان الآخرون يتحركون وراء الباب ويصرخون. خاف لوبين أن يستيقظ دوبريك فجأة فدس الشيء الصغير تحت معطفه وضمه إلى صدره وكظم الصرخات بمنديل جعله على شكل ختم، وصعد بسرعة إلى الدور الثالث وقال لفيكتوار التي استيقظت هلعة:

– خذي. لقد عدت إليك برئيس اعدائنا الذي لا يروض. انه هرقل العصابة. هل لديك رضاعة؟

ووضع فوق الكنبة طفلاً ما بين السادسة والسابعة من العمر يرتدي قميصاً رمادياً ورأسه ملفوف بشال من الصوف المطرز وتنهمر الدموع فوق خده الشاحب.

وقالت فيكتوار وقد روعها المنظر:

– من أين جئت به. وأجاب لوبين وهو يتحسس قميص الولد علّه عاد من تلك الغرفة بغنيمة ما.

ـ من أسفل السلم وأنا خارج من غرفة دوبريك.

رأفت الخادمة العجوز لحالة الولد الذي كان يرتجف خوفاً ويبكي فأمسكت بيده وقالت:

ـ لا تخف يا صغيري. لن يؤذيك أحد. السيد الذي يقف أمامك ليس شقياً.

ـ لست ذلك الشقي طبعاً. ومن أجل دراهم قليلة.. ولكن هناك سيد آخر شقي جداً سيستيقظ إذا استمرينا نتحاور أمام الممر. أتسمعينهم يا فيكتوار؟

ـ من هم؟

ـ عصابة الرئيس الذي لا يروض.

ـ وماذا بعد؟

ـ بما أنه لا يمكن أن اقع في الفخ. الأفضل أن أهرب أتأتي يا هرقل؟ ثم لف الولد بحرام صوفي ولم يترك له سوى الرأس مكشوفاً للتنفس وحمله بين كتفيه.

سار خطوات ثم قال للولد الممسك بكتفيه خوفاً من السقوط:

ـ أرأيت يا هرقل؟ انهم يمزحون. هيا بنا نهرب. اتشعر بدوار؟

وخلال دقيقة واحدة وصل إلى الحديقة. كانت الضربات على باب الممر تتوالى والصراخ يعلو. دهش من كون دوبريك لم يستيقظ على هذا الضجيج المتزايد. وقال في نفسه:

ـ إذا لم أنظم هذه الأمور، سيفسدون كل شيء.

توقف عند زاوية المنزل وبدأ يقيس المسافة التي تفصله عن سور الحديقة. كان السور مفتوحاً وإلى يمينه شاهد الناس

يتدافعون وبدا إلى اليسار منزل الحارسة التي غادرت مسكنها ووقفت عند المدخل ترجو الناس بالتراجع: اصمتوا.. اصمتوا.. سيعود.

وقال لوبين: رائع. المرأة شريكة هذا الحشد من الناس.

اندفع نحوها وأمسك بعنقها قائلاً:

– اذهبي وقولي لهم أن الولد عندي. وإذا ارادوه فليأتوا ويأخذوه من شارع شاتوبريان.

وشاهد لوبين سيارة اجرة تقف على رصيف الجادة ليس بعيداً عن المنزل فظنها محجوزة من قبل العصابة. اقترب منها فركبها وعاد إلى منزله. وقال للولد بعد أن دخل غرفته·

– حسناً. ها نحن في منزلي. لم نتعب كثيراً. ما رأيك لو ارتحت قليلاً فوق ظهري؟

كان خادمه اشيل نائماً.

غص الولد بالبكاء فاحتضنه لوبين وقال:

– ابكي يا عزيزي. إن البكاء يريحك.

لم يكن الولد يبكي الآن. كان صوته هادئاً وبدت علامات الارتياح على وجهه. تفحصه لوبين بعمق ووجد فيه شيئاً سبق له وعرفه، شبه لا يرقى إلى الشك أبداً. وأكد له ما شاهده، بعض الوقائع التي يشك فيها والتي تتعاقب في نفسه الواحدة تلو الأخرى.

وفي الواقع، وإذا لم يكن على خطأ، فإن الوضع بدأ يتغير بشكل واضح ولم يعد بعيداً عن تسلم زمام الأحداث.

سمع طرقتين على الباب وتلتهما اثنتان أخريان. فأنصت لوبين وقال للولد.

ـ انها أمك جاءت تبحث عنك. لا تتحرك.

سار نحو الباب وفتحه. ودخلت المرأة تركض كالمجنونة وتصرخ:

ـ ولدي! ولدي! أين هو؟

ـ في غرفتي. قال لوبين.

تمعن لوبين في المرأة وهي في طريقها إلى غرفته وقال في نفسه:

ـ أنها المرأة ذات الشعر الرمادي صديقة وعدوة دوبريك. كان حدسي فعلاً في مكانه.

اقترب من النافذة ورفع الستارة. كان هناك رجلان يذرعان الشارع جيئة وذهاباً هما غرونيار ولوباهو.

أسدل الستارة وعاد يضيف: إن ظهورهما الواضح مؤشر طيب. وهما ما زالا يعتقدان أن طاعة المعلم واجبة. تبقى المرأة ذات الشعر الرمادي. واعتقد أن الأمر سيكون أكثر صعوبة. أين المرأة؟

وجد الأم تحتضن ابنها وتبكي:

ـ هل خفت كثيراً يا ملاكي الصغير جاك.

وقال لوبين: انه ولد قوي.

لم تجب. كانت تتلمس قميص الولد كما وضعه لوبين ولترى ما إذا كان قد نجح في مهمته الليلية. وسألته بصوت خافت ان يقول لها شيئاً. فأجاب الولد:

ـ لا يا أمي. اؤكد لك لا.

قبلته برفق وضمته إلى صدرها. كان الولد متعباً ويرتعش

فنام على الفور. استمرت منحنية فوقه مدة. كانت هي فعلاً مرهقة وتحتاج للراحة.

لم يرفع لوبين ناظريه عن الأم وولدها لاحظ جيداً حاجبيها العريضين وتجعدات وجهها. وجدها أجمل مما كان يعتقد.. كان جمالها مثيراً من النوع الذي يدعو عادة إلى الألم ويميز وجوهاً أكثر إنسانية وحساسية من وجوه أخرى.

وكانت ملامحها تنم عن حزن عميق. اقترب منها وقال:

– اني اجهل ما هي مشاريعك. ولكن مهما تكن فأنت بحاجة إلى مساعدة. ولا يمكنك أن تنجحي بمفردك.

– لست وحيدة.

– اني اعرف هذين الرجلين الواقفين هناك. لن يفيداك بشيء. اتوسل إليك أن تقبلي خدماتي. اتذكرين ما حدث قبل يومين في مقصورة المسرح؟ كنت على وشك أن تقولي شيئاً. وها نحن اليوم وجهاً لوجه. ارجوك لا تترددي.

استدارت نحوه وتفحصته جيداً ثم سألته

– ماذا تعرف بالضبط؟ ماذا تعرف عني؟

– أجهل الكثير من الأشياء. أجهل اسمك.. ولكن اعرف..

قاطعته بحركة من يدها وأجابت:

– لا جدوى من ذلك. إن ما يمكنك أن تعرفه هو شيء قليل لا يذكر ولا أهمية له. ولكن ما هي مشاريعك أنت؟ تعرض عليّ خدماتك.. مقابل ماذا؟ إذا كنت اندفعت بكل قواك في هذا الموضع وانخرطت أيضاً فيه دون أن القاك على طريقي فهذا معناه انك كنت تبحث عن هدف.. فما هو يا ترى؟

ـ ما هو؟! يبدو لي أن سلوكي...

ـ لا. قالت بعصبية بالغة وأضافت: يجب أن تقوم بيننا ثوابت.. وقيامها يحتاج إلى صراحة مطلقة. وسأعطيك مثلاً على ذلك. السيد دوبريك يملك شيئاً تعرفه أنت تماماً. وحصلت عليه مرتين.. واستعدته منك أيضاً مرتين. وأعتقد تماماً أنك لو أردت امتلاكه فلسبب واحد هو استخدام السلطة التي تعلقها عليه وتكريسها لصالحك..

ـ كيف ذلك؟

ـ طبعاً ستسخره لتحقيق افكارك ومصالحك الشخصية..

وقاطعها لوبين:

ـ والمساهمة في عمليات السرقة والاحتيال..

لم تحتج أبداً. وحاولت أن تقرأ في أعماق عينيه ما يخفيه من أفكار سرية. ماذا تراها تريد منه؟ وماذا تخاف؟ وإذا كنت تشك فيه.. ألا يمكنه هو ان يشك في هذه المرأة التي أخذت منه السدادة الزجاجية مرتين لتعيدها إلى دوبريك ومهما بلغ عداؤها القاتل لدوبريك فإلى أي مدى ستبقى خاضعة لإرادة هذا الرجل؟ وإذا انساقت وراء نفسها ألا تراها في النهاية منساقة أيضاً إلى دوبريك. ومع ذلك لم يحدث أن تأمل عينين واسعتين كعينيها ولا وجهاً معبراً وصريحاً كوجهها. وأعلن دون تردد.

ـ هدفي بسيط: اطلاق سراح جيلبير وفوشري.

وصرخت مرتجفة وهي تتفحص لوبين بقلق وحيرة:

ـ هل هذا صحيح؟ هل هذا صحيح؟

ـ آه.. لو عرفتني قبلاً.

ـ اعرفك.. اعرف من أنت.. منذ أشهر وأنا اتعقب خطواتك دون أن ادعك تدرك ذلك.. ولكن لأسباب ما لا زلت اشك..

ورد بقوة. انك لا تعرفينني أبداً. لو عرفتني لكنت ادركت أنه لا يمكن أن يكون هناك تراجع من قبلي قبل اطلاق سراح رفيقي.. جيلبير على الأقل.. لأن فوشري لص فعلاً.

اندفعت فوقه بقوة وأمسكته بكتفيه كالمجنونة:

ـ ماذا؟ ماذا تقول؟ مصير مرعب ينتظر جيلبير ورفيقه؟ اتعتقد ذلك..

ـ اعتقده فعلاً. وإذا لم أصل في الوقت المناسب سيضيع جيلبير..

وصرخت وهي تضغط عليه بقوة:

ـ اسكت. اسكت. اخرس. اني امنعك من أن تقول هذا، ليس هناك أي سبب. انت تفترض ذلك.

ـ ليس أنا فقط.. بل جيلبير أيضاً.

ـ ماذا؟ جيلبير؟ كيف تعرف هذا؟

ـ منه نفسه.

ـ منه؟

ـ نعم. منه، إنه يأمل بي فقط.. من الذي يعرف أن رجلاً واحداً في العالم يمكن أن ينقذه، فاستنجد بي يائساً من أعماق زنزانته. وهذه هي رسالته.

سحبت الورقة منه بسرعة وقرأت مندهشة:

«النجدة يا معلمي.. لقد انتهيت. اني خائف.. النجدة». تركت الرسالة وتعلقت يداها مرتجعة في الفراغ.. وظهر من

تطلعاتها وشرودها الغريب أنها نفس الرؤيا التي اخافت لوبين.
صرخت هلعة وحاولت الوقوف ولكنها سقطت مغمياً عليها.

.٥٠

السبعة والعشرون

كان الولد ينام هادئاً في السرير. لم تتحرك الأم من الكـرسي الذي مددها فوقه لوبين، ولكن تنفسها بـدأ يهدأ وأخـذ وجهها يكتسب الحيوية معلناً أنها ستستيقظ قريباً.

لاحظ لوبين أنـها تحمل خاتم زواج في بنصرها وميدالية تتدلى فوق صدرها. انحنى وشاهد بعد ان تفحصـهـا صورة مصغـرة لرجل في الأربعين من العمر ولولد يرتدي زياً مدرسياً.

ترك الميدالية وقال في نفسه: هذا هو بالذات.. مسكينة هـذه المرأة الفقيرة.

بـدأت الحرارة تـدب في اليدين اللتـين يمسك بهمـا. فتحت المرأة عينيها ثم اغلقتهما وتمتمت قائلة. جاك.

ـ لا تقلقي، انه نائم. كل شيء على ما يرام.

استعادت الأم كامل وعيها وبقيت صامتة. وهنا طرح عليهـا لوبين أسئلة بهدف اخراجها عن صمتها وقول مـا لديهـا. فقال لها وهو يشير إلى الميدالية والصورة التي فيها:

ـ الذي يرتدي الزي المدرسي هو جيلبير اليس كذلك.

ـ نعم.

ـ وجيلبير هو ابنك؟

اصابتها رعشة وهمهمت: نعم. جيلبير هو ابني البكر.

كانت هذه هي أم جيلبير السجين الموقوف في سجن «لاسانتيه» والمتهم بالاغتيال والذي تلاحقه العدالة للاقتصاص منه.

واستمر لوبين يسأل: والصورة الأخرى؟

ـ انها صورة زوجي.

ـ زوجك؟

ـ نعم، لقد مات منذ ثلاث سنوات..

كانت جالسة وكأن الحياة دبت فيها من جديد وعاد الخوف من الأشياء المرعبة يهددها. وقال لوبين أيضاً:

ـ ماذا كان يدعى زوجك؟

ترددت لحظات ثم اجابت: مرجي.

صرخ لوبين: فيكتوريان مرجي.. النائب؟

ـ نعم.

وصمت الاثنان فترة طويلة. لم ينس لوبين الحدث والضجة التي اثارها موت مرجي. فقبل ثلاث سنوات اطلق هذا الأخير النار على نفسه في أحد ممرات الجمعية الوطنية دون أن يتمكن أحد فيما بعد من معرفة السبب الحقيقي لهذا الانتحار.

التفت إلى المرأة وقال: تجهلين سبب موته؟

ـ لا.

ـ جيلبير، ربما.

ـ لا، جيلبير كان اختفى منذ سنوات عديدة. طرده زوجي وغضب عليه. كان حزنه قوياً.. ولكن كان هناك سبب آخر

ـ ما هو؟

ولم يكن من الضروري أن يطرح لوبين سؤاله.. إذ لم يعد بإمكان السيدة مرجي أن تسكت، فقالت:

ـ منذ خمس وعشرين سنة عندما كنت ادعى كلاريس دارسل وكان أهلي أحياءً التقيت في نيس ثلاثة شبان سوف توضح اسماؤهم أشياء غامضة من المأساة الحالية وهم: الكسي دوبريك وفيكتوريان مرجي ولوي برازفيل.

كان الثلاثة رفاق مدرسة واحدة وصف واحد وكتيبة عسكرية واحدة. وأحب برازفيل آنذاك ممثلة تغني في اوبرا نيس. أما الاثنان الآخران دوبريك ومرجي فقد وقعا في حبي. ولكنني احببت فيكتوريان مرجي. وربما اخطأت لأني لم اعلن ذلك الحب على الفور. والمعروف أن كل حب مخلص يكون عادة خجولاً ومتردداً. ولم اعلن عن حبي إلا بعد التأكد منه وبكل حرية. ولسوء الحظ كانت فترة الانتظار تلك لذيذة للذين يحبون بعضهم البعض سراً وهي التي شجعت دوبريك على الانتظار

عذابه كان مؤلماً جداً.

توقفت كلاريس مرجي عن الكلام فترة ثم تابعت قائلة:

ـ سأتذكر إلى الأبد. كنا الثلاثة نجلس في الصالون. سمعت الكلمات التي تلفظ بها وكانت مملوءة حقداً وتهديداً. وبدا فيكتوريان مندهشاً للغاية. فهو لم يسبق له أن رأى دوبريك في مثل هذه الحالة. كان ممتقع الوجه يصرّف بأسنانه ويضرب الأرض برجله ويردد دون توقف: «سأنتقم.. سأنتقم.. انك لا

تدري ماذا أنا قادر على فعله. سأنتظر عشر سنوات. لا بل عشرين سنة.. ولكن هذا سيأتي كالصاعقة.. لا تعرف كيف تنتقم.. وعمل الشر من أجل الشر.. ستترجياني معاً وتركعان أمامي.. نعم ستركعان». وفي هذه اللحظة دخل والدي فساعده فيكتوريان على اخراج هذا الانسان المرعب وطرده. وبعد ستة أسابيع تزوجت فيكتوريان...

وقاطعها لوبين: ألم يحاول دوبريك أبداً؟

ـ لا، ولكن في يوم زواجي. وجد برازفيل المرأة التي يحب.. مغنية الأوبرا مقتولة بطريقة غريبة في منزله. تململ لوبين في مقعده وسأل:

ـ ماذا؟ هل دوبريك هو الـ ....؟

ـ عرفوا فيما بعد أن دوبريك كان يحاول اغراء المغنية بشتى الوسائل ويتقرب منها، ولم يعرفوا شيئاً أكثر من هذا. كما استحالت معرفة من دخل منزل برازفيل اثناء غيابه ومن خرج. لم يكتشفوا أي أثر على الاطلاق.

ـ إلا أن برازفيل..

ـ بالنسبة لبرازفيل ولنا أيضاً فالحقيقة لا تحتمل الشك. اراد دوبريك اختطاف المرأة الشابة واجبارها على تلبية رغباته. وعندما صدته، فقد عقله واقدم على خنقها. ولكن ليس هناك أدلة حسية على كل هذا. ولم يقلق دوبريك عندما ترامت إلى مسامعه هذه الأقاويل.

ـ وماذا حصل فيما بعد؟

ـ مضت سنوات دون أن نسمع عنه شيئاً.. ثم عرفنا أنه افلس على مائدة القمار وسافر إلى أميركا. ورغماً عني نسيت

غضبه وتهديداته وبدأت اعتقد أنه لم يعد يحبني ولم يعد يفكر بخططه الانتقامية وبدأت أفكر جدياً بالوضع السياسي لزوجي وصحة ولدي انطوان.

ـ انطوان؟

ـ نعم، انه الاسم الحقيقي لجيلبير. وقد نجح المسكين على الأقل في اخفاء شخصيته.

وسألها لوبين: في أي عهد بدأ جيلبير.

ـ لا أستطيع أن احدد بالضبط. جيلبير الطفل كان كما هو عليه الآن: لطيفاً، خفيف الظل، محبوباً من الجميع ولكن كسولاً وبدون تهذيب. عندما بلغ الخامسة عشرة من العمر وضعناه في ثانوية، في ضواحي باريس بقصد ابعاده قليلاً عنا... وبعد سنتين طرد وعاد إلى البيت.

ـ لماذا؟

ـ نظراً لسوء سلوكه. اكتشفوا أنه يهرب من المدرسة ليلاً ولا يدرون إلى أين يذهب.

ـ ماذا كان يفعل؟

ـ يتسلى، يلعب في سباق الخيول ويتردد باستمرار على المقاهي وعلب الليل.

ـ كان معه مال كثير طبعاً..

ـ نعم.

ـ ومن كان يعطيه المال.

ـ الرجل الذي كان يساعده على الهرب خفية عن أهله.. فأوقعه في الرذيلة والفساد وعلمه الكذب والاحتيال والسرقة.

ـ دوبريك؟

ـ نعم. دوبريك!!

ـ أخفت كلاريس مرجي وجهها بيدها وأطرقت تفكر.. وبعد فترة وجيزة أضافت بصوت خافت:

ـ لقد انتقم دوبريك.. ففي اليوم التالي لقيام زوجي بطرد ابننا البائس من المنزل، كشف لنا دوبريك في رسالة خبيثة عن الدور الحاقد الذي لعبه لتدمير ولدنا فقال: «الاصلاحية ذات يوم قريب.. ثم المحكمة وأخيراً حبل المشنقة...».

وسأل لوبين يستفهم.

ـ كيف هذا؟ اتعتقدين أن دوبريك هو الذي نظم ودبر المكيدة وهو وراء المشكلة الراهنة؟

ـ لا. لا. ليس هناك سوى صدفة. فالتوقع في البداية كان عبارة عن تمنيات صاغها بنفسه. ولكن لا تتصور كم أرعبني ذلك. كنت مريضة آنذاك وقد وضعت ابننا الصغير جاك. كنا نتلقى كل يوم بعض الأخبار عن الاخطاء التي يرتكبها جيلبير.. فيما اعلنا أمام جيراننا أنه مسافر.. ثم قلنا أنه مات.. كانت الحياة مؤلمة وازدادت ألماً عندما انفجرت العاصفة السياسية وقضت على زوجي.

ـ كيف كان ذلك؟

ـ كلمتان تكفيانك. كان اسم زوجي على لائحة «السبعة والعشرون».

ـ فهمت!

وفجأة تمزق القناع أمام لوبين واتضحت له أشياء كان يلفها حتى الآن ظلام دامس يصعب اختراقه.

وعادت كلاريس تتحدث بصوت أعلى هذه المرة وتقول: نعم. كان اسمه مسجلاً ولكن بطريقة الخطأ. كان فيكتوريان مرجي عضواً في اللجنة المكلفة بدراسة مشروع قنال «البحرين» الفرنسي. وصوّت طبعاً إلى جانب الذين وافقوا على مشروع الشركة. وأقول بصراحة أنه قبض لقاء ذلك مبلغاً من المال هو عبارة عن خمسة عشر ألف فرنك بالضبط. المال الذي قبضه ليس له بل لواحد من أصدقائه السياسيين الذي كان يثق فيه تماماً. ظن أنه قام بعمل جيد، ولكنه أضاع نفسه.. وبانتحار رئيس الشركة وهروب أمين الصندوق ظهر مشروع القنال على حقيقته وكشف عن عمليات تلاعب ورشاوى ضخمة. وفي ذلك الحين عرف زوجي أن عدداً من زملائه اغتيلوا وفهم أن اسمه وأسماء نواب آخرين ورؤساء مجموعات برلمانية مؤثرة مسجلة على تلك اللائحة الغامضة التي بدأت تكثر من حولها الأقاويل والتكهنات وحول ما إذا كانت هذه اللائحة ستنتشر ويظهر اسمه فوقها؟ كما حيّر الجميع تساؤل آخر: من يملك القائمة؟ لا أحد يعرف. كانوا يعلمون أنها موجودة ليس أكثر. رجلان جرفتهما العاصفة ولم يعرف أحد من أين كانت تأتي الوشاية ومن يحمل أوراق الادانة.

– دوبريك

– لا. لا. دوبريك لم يكن شيئاً في ذلك الوقت. ولم يكن ظهر بعد على المسرح، لا. الحقيقة كشف عنها فجأة الرجل الذي كان يتحفظ عليها ويعرفها تماماً.. أنه جيرمينو، وزير العدل السابق وابن عم رئيس شركة القنال، فكتب من فوق سرير المرض إلى رئيس الشرطة موكلاً إليه القائمة التي سيجدونها، بعد موته، مودعة في صندوق حديدي ومدفونة تحت أرض

غرفته. وبعد موت جيرمينو حضرت الشرطة وفتحت الصندوق فوجدته فارغاً.

– كان دوبريك هذه المرة هو السارق.

– نعم. دوبريك، الذي تنكر وعمل سكرتيراً لجيرمينو طوال ستة اشهر. ولكن كيف عرف أن هذا الأخير يملك اللائحة الشهيرة؟ لا يهم. المهم هو أنه كسر الصندوق عشية وفاة جيرمينو. هذا ما أثبته التحقيق وتم التعرف إلى هوية دوبريك.

– ولم يلقوا القبض عليه؟

– وما نفع ذلك، افترضوا أنه وضع اللائحة في مكان آمن. فالقبض عليه يؤدي إلى إثارة الموضوع من جديد وفي الوقت الذي كانوا جادين لإطفائه وبأي ثمن كان.

– وماذا بعد؟

– بدأوا التفاوض!

انفجر لوبين ضاحكاً وقال: غريب. يتفاوضون مع دوبريك؟

– نعم، غريب ومضحك في آن. كان يتصرف آنذاك بدون خجل قاصداً الهدف مباشرة، وبعد أسبوع واحد من السرقة ذهب إلى مجلس النواب يطلب إلى زوجي أن يدفع له مبلغ ثلاثين ألف فرنك خلال أربع وعشرين ساعة وإلا أثار الفضيحة. كان زوجي يعرف الشخص تماماً. ويعرف أنه إنسان حاقد وسيء.. ففقد عقله وقتل نفسه.

– غريب! دوبريك يملك لائحة بسبعة وعشرين اسماً. ولتسليم واحد من هذه اللائحة، فهو مجبر إذا اراد اعطاء المزيد من الاهتمام لتهمته نشر اللائحة نفسها. أي التخلص من الوثيقة أو على الأقل من نسختها.. وإذا هو عمل ذلك أثار

الفضيحة من جديد.

- نعم. ولا.

- كيف تعرفين ذلك؟

- من دوبريك الذي جاء ليراني وروى لي بخبث لقاءه مع زوجي والكلمات التي تبادلانها. لم يكن هناك سوى هذه اللائحة التي كان أمين الصندوق يسجل عليها الأسماء والمبالغ المقبوضة والتي وقع عليها، كما تذكر، رئيس الشركة بحروف من الدم قبل أن يموت. لم يكن هناك سوى ذلك. هناك أيضاً بعض الأدلة الأكثر غموضاً لا يعرفها المهتمون. المراسلات بين رئيس الشركة وأمين الصندوق، الخ. المهم في كل هذا هي اللائحة المدونة بخط شبه مقروء على قصاصة الورق هذه.. انها البرهان الوحيد ولا يمكن نقله أو تصويره وقد يثير الشبهات وتنشط المراقبة. ومهما يكن فالأدلة الأخرى خطيرة وكانت كافية لتدمير نائبين. كان يخيف الضحية المختارة ويطلعه على الفضيحة التي لا مهرب منها. وهنا تقوم الضحية مجبرة بدفع الكمية المطلوبة أو يقتل نفسه كما فعل زوجي. أفهمت الآن؟

- نعم.

ومن خلال الصمت الذي تلا هذا الحوار بدأ لوبين إعادة تكوين حياة دوبريك. رآه سيد هذه اللائحة، يستخدم قوته ويخرج رويداً من الظل، يصرف ببذخ الأموال التي يبتزها من ضحاياه.. فيعين مستشاراً عاماً ثم نائباً ويسود بالرعب والتهديد. لا يقاصص ولا يمكن الوصول إليه بسهولة.. يشك في الحكومة التي هو منها ويود لو جعلها خاضعة لأوامره. التفت إلى الأم وقال.

- هل رأيته مرة ثانية؟

ـ نعم، رأيته. كان ذلك ضرورياً. ولكن زوجي كان قد مات.. انما شرفه لم يمس. ولم يشك احد في الحقيقة. ودفاعاً عن الاسم الذي تركه لي قبلت أن يتم أول لقاء مع دوبريك.

ـ أول لقاء؟ لماذا. هل كان هناك لقاءات أخرى؟

ـ لقاءات كثيرة فعلاً.. في المسرح.. في انجيان أو في باريس.. ليلاً.. إذ كنت أخجل أن يرانا أحد معاً.. ولكن ما حدث كان لزاماً.. وواجباً الزامياً.. واجب الانتقام لزوجي.

انحنت فوق لوبين وتابعت بحرارة:

ـ نعم، الانتقام كان سبب سلوكي وهاجس كل حياتي. الانتقام لزوجي ولولدي الذي ضاع.. والانتقام لنفسي أيضاً.. ولكل الضرر الذي ألحقه بي. لم يعد لديّ من أحلام أو أهداف أخرى. اردت سحق ذلك الرجل.. وسحق بؤسه ودموعه.

تذكر لوبين المشهد بين الاثنين في مكتب دوبريك فقال:

ـ كنت تريدين موته..

ـ لا. ليس موته فقط. فكرت فيه دائماً.. حتى أنني رفعت يدي فوقه وهممت بضربه.. وما نفع ذلك.. فقد اتخذ كافة احتياطاته.. كراهيتي له ذهبت إلى أبعد من ذلك.. كانت تريد خسارته وانهياره وذلك بحرمانه من الوثيقة التي في حوزته وتزيد من قوته. دوبريك لم يعد موجوداً. إنه الدمار المباشر. الغرق، ولكن في أية ظروف مأساوية.. هذا ما بحثت عنه.

ـ الم يشك دوبريك في نواياك.

ـ بالتأكيد .. لا.

ـ وماذا كانت نتيجة ابحاثك؟

ـ كانت غير مثمرة ولمدة طويلة. فإجراءات التحقيق التي

اتبعتهـا أنت وتلك التي قـام بها البـوليس والتي قمت بها أنـا طـوال سنوات قبلـك لم تؤد إلى نتيجة وجـاء استعمالهـا عبثاً. حتى بدأ ينتابني اليأس، ولكن ذات يوم وأثناء ذهابي إلى رؤية دوبريك في منزله في انجيـان وجدت تحت طـاولته ورقـة مسودة لرسالة كان بدأها ثم مـزقها ورمـاها في سلـة المهملات. كـانت الاسطر القليلة التي حصلت عليهـا مكتوبـة بإنكليـزية سيئـة. واستطعت أن اقرأ ما يلي:

«... افـرغ البلورة من الـداخل وبطـريقـة تحـدث فـراغـاً يستحيل الاشتباه فيه».

وتابعت: ربما لم أعر هذه الجملة الاهتمام الذي تستحقه لو لم اشاهد دوبريك الـذي كان يتمشى في الحـديقة يـأتي نحوي راكضاً ويقترب من سلـة المهملات ويبـدأ البحث فيها بـاهتمام بالغ.

نظر ناحيتي وقال مشككاً: كان هناك.. رسالة.

وأضافت ببرود. تظـاهرت بـأنني لم أفهم ما أراد قـوله. لم يلح. ولكن اضطرابه لم يغب عن بالي وتـوجهت للبحث في نفس الاتجاه. وبعد شهر اكتشفت وسط رماد المدخنة نصف فـاتورة إنكليزية صادرة عن معامل جون هوارد للصناعات الزجاجية في ستوربريدج التي قامت بتـزويد دوبـريك انـاءً من البلور وفقـاً للنموذج. كلمة «بلور» استرعت انتباهي فذهبت إلى ستوربريدج وقمت برشوة أحد كبار العـاملين في المصنـع وعلمت أن سدادة هذا الاناء تم تفريغها من الداخل وبطـريقة يستحيـل الاشتباه بها.

هز لوبين رأسه وتابعت المرأة تقول:

ـ لم تترك المعلومات مجالاً للشـك على الاطـلاق. ولم يبد لي

مع ذلك ان الطبقة الذهبية ومخبأ السدادة سيكونان مختلفين.

ـ الذهب فوق السدادة كان كافياً

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ من برازفيل..

ـ وهذا كنت ترينه أيضاً؟

ـ منذ ذلك الحين فقط. وقبلاً كنت أنا وزوجي قد قطعنا كل علاقة به على إثر حوادث متضاربة. برازفيل هذا لعب دوراً قذراً في قضية قناة البحرين هل تراه قبض؟ من المحتمل طبعاً: لا يهم. كنت بحاجة إلى مساعدة عاجلة. وكان برازفيل قد عيّن آنذاك أميناً عاماً لشرطة العاصمة.. فقررت عندئذٍ اختياره.

ـ أكان يعرف سلوك ابنك جيلبير؟

ـ لا. ولكني أكدت له، كما فعلت إزاء الآخرين، ذهاب وموت جيلبير. وبالنسبة للباقي قلت له كل الحقيقة أي الأسباب التي دفعت زوجي إلى الانتحار وهدف الانتقام الذي أسعى إليه. وعندما وضعته في جو اكتشافاتي قفز من الفرح وشعرت أن كراهيته لدوبريك لا تزال قائمة. تحدثنا كثيراً وعرفت منه أن اللائحة كانت مكتوبة على قصاصة ورق ناعمة جداً. لم يكن هناك أي مجال لأدنى تردد بالنسبة لنا نحن الاثنين. كنا نعرف مخبأ السدادة وتقرر أن يعمل كل منا من ناحيته ويتم التراسل بطريقة سرية جعلته على اتصال مع كليمانس ناطورة ساحة لامارتين... المخلصة لي جداً..

ـ ولكنها كانت أقل اخلاصاً لبرازفيل ولديّ الدليل على انها خانته.

ـ ربما الآن.. وليس في البداية: وبعد عشرة أشهر ظهر

جيلبير في حياتي من جديد. ان الأم لا تتوقف عن حب ولدها مهما فعل ومهما سيفعل. جيلبير لطيف. أنت تعرفه. بكى وقبّل أخاه الصغير جاك وسامحته.

توقفت برهة تلتقط أنفاسها. كانت تبحث عن كلماتها حذرة قلقة كي لا تطلع لوبين على طريقة الحياة التي اختارها جيلبير وألا تثني عليه بالمقابل.

وسألها لوبين: وماذا بعد؟

ـ كنت أراه دائماً بعد ذلك. كان يأتي لرؤيتي أو أذهب أنا إليه ونخرج معاً في نزهة إلى الحقول القريبة وهكذا أخبرته رويداً رويداً بقصتنا فالتهب وتحمس فجأة... هو أيضاً أراد الانتقام وسرقة السدادة البلورية.. فكرته الأولى كانت ـ ويجب أن أؤكده لك ـ الاتفاق معك.

ـ حسناً ولكن يجب عليه أن..

ـ نعم. وكنت من نفس الرأي، ولكن من سوء حظه وأنت تعرف كم هو ضعيف، أنه تأثر بأحد أصدقائه.

ـ فوشري، اليس كذلك؟

ـ نعم. فوشري القذر. الممتلىء مرارة وحسداً. رجل محتال وغامض، كان جيلبير مخطئاً جداً عندما تعرف إليه وبات يطلب منه النصح. أقنعه وأقنعني أيضاً.. على أنه من الأفضل أن نتصرف نحن بذاتنا. درس القضية وقرر أن يكون على رأسها والمشرف على تطوراتها. وأخيراً قام بتنظيم عملية انجيان وتحت امرتك سرق فيلا ماري تريز التي لم يتمكن برازفيل وعملاؤه من زيارتها كما يجب نظراً لقوة المراقبة التي كان يقوم بها الخادم ليونارد. كان هذا ضرباً من الجنون. كان عليه أن يمتثل لخبرتك أو يجعلك خارج المؤامرة تماماً. ولكن ماذا تريد؟ كان

فوشري يسيطر علينا. قبلت لقاء دوبريك في المسرح.، وعندما عدت إلى منزلي حوالي منتصف الليل عرفت بمقتل ليونارد والقاء القبض على ولدي. وفجأة تملكتني غريزة المستقبل وتذكرت توقعات دوبريك المخيفة ورأيت أنها بدأت تتحقق.. فكانت المحاكمة وتلاها الإدانة كل ذلك نتيجة غلطتي أنا الأم التي دفعت ابنها نحو الهاوية التي لا يستطيع أحد اخراجه منها.

كانت الأم (كلاريس) تعض يديها وترتعش من الحمى. أي ألم يمكن مقارنته بألم أم ترتجف من أجل مصير ابنها. تأثر لوبين من وضع الأم الحزين وقال لها:

ـ سننقذه. ليس هناك أدنى شك في ذلك. ولكن من الضروري أن أعرف جميع التفاصيل. تفضلي وأكمليها، كيف عرفت في نفس المساء أحداث انجيان؟

هدأت والحزن يغمر وجهها وأجابت: بواسطة اثنين من شركائك أو بالأحرى بواسطة اثنين من شركاء فوشري المخلصين له جداً واللذين اختارهما لقيادة القاربين.

ـ الموجودان الآن في الخارج، (غرونيار) و(لوباهو).

ـ نعم، عند عودتك من الفيلا وخلال ملاحقتك من قبل رئيس الشرطة قلت لهما بعض الكلمات التفصيلية وأنت في طريقك إلى سيارتك. ارتعبا وسارعا إلى منزلي حيث سبق لهما وزاراه قبلاً وأخبراني بالحادث المرعب: جيلبير في السجن: كانت ليلة مخيفة. ما العمل؟ ابحث عنك؟ طبعاً. واستنجد بك. ولكن أين اجدك؟ وهنا قرر غرونيار ولوباهو أن يشرحا لي دور صديقهما فوشري وأطماعه

سأل لوبين ساخراً: التخلص مني!

ـ نعم. كان يراقب جيلبير على اعتبار أنك تثق به تماماً ومن خلال ذلك عرف الجميع منازلك. وبعد أيام قليلة وعندما اصبح مالك السدادة البلورية وسيد لائحة السبعة والعشرين ووريث القوي دوبريك، قام بتسليمك إلى الشرطة دون أن يورط عصابتك التي أصبحت الآن عصابته في أدنى مهمة.

وتمتم لوبين: يا للأحمق.. سافل مثله يفعل ذلك. وأضاف.

ـ فهمت الآن موضوع دفات الأبواب.

ـ تم قصها بدقة تحسباً للمعركة التي كان يعد لبدئها ضدك وضد دوبريك حيث قام بنفس العملية عنده. كان تحت تصرفه بهلوان وقزم قادران على اخفاء كل مراسلاتك وأسرارك. هذا ما كشف لي عنه هذان الصديقان، وفجأة راودتني هذه الفكرة: استخدام ابني الصغير جاك لانقاذ ابني البكر.. وذهبنا في الليل، وبناءً على تعليمات رفاقي وجدت في منزل جيلبير الشخصي النسخة الثانية لمفاتيح شقتك في شارع ماتينيون حيث ستنام. وفي الطريق دعم غرونيار ولوباهو قراري. فكرت قليلاً في أن أطلب إليك النجدة بدلاً من سرقة السدادة البلورية التي لو اكتشفتها في انجيان لحملتها طبعاً إلى منزلك. لم اخطىء أبداً. دخل صغيري جاك غرفتك وعاد بها. أخذتها وشعرت اني سيدة الموقف. لم أخبر برازفيل بعد أني اصبحت قادرة على التحكم بدوبريك. سأجعله يتصرف وفق ارادتي وسيكون عبداً لها.. فيقرر الاجراءات اللازمة لاطلاق سراحه.. أو على الأقل لعدم ادانته.

ـ وماذا أيضاً؟

نهضت كلاريس فجأت وانحنت مرة ثانية فوق لوبين وقالت له بصوت قوي:

ـ لم يكن هناك شيء في قطعة البلور. لا شيء. هل تسمعني.. كل عملية انجيان كانت غير مفيدة وكذلك مقتل ليونارد لم يفد بشيء ولا القاء القبض على ابني. جهودي كلها كانت غير مجدية.

ـ ولكن لماذا؟ لماذا؟

ـ لماذا؟ لقد سرقت من دوبريك ليس السدادة التي طلب تصنيعها بناءً على تعليماته ولكن السدادة التي استخدمت كنموذج في مصنع القزاز جون هوارد.

وخرج لوبين من سرحانه ليقول:

ـ هل ارتكبنا حماقة في تنبيه دوبريك وإثارة حفيظته؟

ـ لا، في نفس اليوم ذهبت إلى انجيان. وفي كل هذا لم ير دوبريك ولا يرى حتى اليوم سوى ان سرقة عادية قد حصلت وتم الاستيلاء على مجموعاته. مساهمتك في العملية جعلته يفكر خطأ.

ـ ولكن السدادة اختفت.

ـ هذا الشيء الصغير لا يعتبر بالنسبة له ذا أهمية كبرى إذ انه ليس سوى نموذج.

ـ وكيف عرفت هذا؟

ـ هناك علامة في قاع الجذع. واستعلمت عن هذا في إنكلترا.

ـ ليكن. إنما لماذا كان الخادم يحتفظ دائماً بمفتاح الخزانة الجدارية ولماذا وجد فيما بعد في درج طاولة عند دوبريك في باريس؟

ـ من الطبيعي أن يهتم دوبريك ويتمسك بالنموذج وكأنه ذو قيمة. ولهذا بالتحديد وضعت السدادة في الخزانة الجدارية قبل أن يلاحظ اختفاءها. ولهذا أيضاً، وللمرة الثانية، أخذت منك السدادة عن طريق صغيري جاك الذي سحبها من جيب معطفك وأعادها إلى الخزانة الحديدية عن طريق الحارسة.

ـ إذاً، فهو لا يشك في شيء؟

ـ أبداً. انه يعرف أن البحث قائم حول اللائحة، ولكنه يجهل أن برازفيل وأنا نعرف المكان الذي يخبئها فيه.

نهض لوبين وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يفكر: ثم توقف قريباً من كلاريس مرجي وقال

ـ اجمالاً، ومنذ أحداث انجيان، ألم تقومي بخطوة واحدة إلى الأمام؟

ـ لا. أتصرف كل يوم بيومه يقودني هذان الرجلان أو اقودهما أنا.. ولكن دون أن تكون هناك خطة محددة.

ـ أو على الأقل دون أن تكون هناك خطة لانتزاع لائحة «السبعة والعشرين» من دوبريك.

ـ نعم. ولكن كيف؟ من ناحية ثانية كانت مناوراتك تزعجني، ولم نتأخر في التعرف إلى أن طباخة دوبريك الجديدة كان خادمتك القديمة فيكتوار. واكتشفنا بفضل تعليمات الحارسة أن فيكتوار هذه تأويك لديها.. وكنت أنا فعلاً اتخوف من مشاريعك.

ـ أنت التي كتبت تنصحينني بالانسحاب من المعركة؟

ـ نعم.

ـ وأنت أيضاً من طلب إليّ ألا أذهب إلى المسرح؟

- نعم. قد فاجأت الحارسة فيكتوار وهي تتنصت إلى الحوار الذي كان يدور بيني وبين دوبريك على الهاتف.. ورآك لوباهو الذي كان يراقب المنزل تخرج منه. وفكرت عندئذٍ أنك ستتعقب آثار دوبريك هذا المساء.

- والعاملة التي جاءت إلى هنا بعد الظهر؟

- العاملة هي أنا.. جئت لأراك.

- هل أنت التي صادرت رسالة جيلبير؟

- نعم. عرفت خطه على المغلف.

- الم يكن صغيرك جاك معك؟

- لا. كان في الخارج.. في السيارة مع لوباهو. جعلته يصعد من نافذة الصالون وانزلق إلى الغرفة بواسطة دفة الباب السفلى.

- ماذا كان في الرسالة؟

- للأسف، اتهامات من جيلبير، يتهمك بالتخلي عنه وأخذ القضية على عاتقك، كل هذا أكد لي ابعاد ظنوني بك.. فهربت.

هز لوبين كتفيه ممتعضاً وقال:

- كم أضعنا من الوقت. ولماذا لم نتفق قبلاً. كنا نلعب لعبة الاستغماية.. وننصب لبعضنا كمائن مبهمة. ومرت الأيام بسرعة.. أيام ثمينة لا تعوض.

- أرأيت؟ أنت أيضاً كنت تخاف المستقبل.

اغتاظ لوبين وصرخ لا. لم أكن أخاف شيئاً. ولكني أفكر بما كان يمكننا أن نفعل لو ضممنا جهودنا إلى بعض. إني أفكر بكافة الأخطاء والحماقات التي كان يمكننا تفاديها في حال قيام

اتفاقية بيننا، وأعتقد أن محاولتك التفتيش تلك الليلة في ثياب دوبريك كانت عبثاً وأنه بفضل ما قمنا به من ضجيج وصراخ في منزل دوبريك أصبح هو الآن أكثر تيقظاً وسوف يتشدد في الحراسة أكثر من الماضي.

هزت كلاريس رأسها وقالت: لا. لا. لا أعتقد. الضجيج لم يوقظه لأننا أخرنا هذه المحاولة يوماً كي تقوم الحارسة بوضع منوم قوي في شرابه.

وأضافت بهدوء. لا أعتقد أن أي حدث ومهما كان نوعه سيجعل دوبريك أكثر تيقظاً. إن حياته ليست سوى مجموعة من التحفظات واليقظات ضد الخطر.. ولم يترك شيئاً للصدفة. وبالتالي أليست في يده كل مفاتيح العملية؟

اقترب لوبين من كلاريس الأم وسألها:

ـ ماذا تريدين أن تقولي؟ بالنسبة لك أليس هناك أمل من هذه الناحية؟ ولن يكون هناك ولو طريقاً واحداً للوصول إلى الهدف؟

ـ بلى. هناك طريق.. وطريق واحد فقط.

وقبل أن تخبىء وجهها بيديها لاحظ لوبين الشحوب الذي اعتلاه.. وهزتها رعشة حمى من رأسها إلى أخمص قدميها.

ظن أنه فهم سبب ارتعاشها وانحنى فوقها متأثراً بمنظرها المؤلم:

ـ أرجوك أن تجيبي بدون لف أو دوران.. كل هذا الذي أراه هو بسبب جيلبير.. أليس كذلك؟ إذا كانت العدالة لحسن الحظ لم تكشف ماضيه.. وإذا لم يعرفوا حتى الآن الاسم الحقيقي لشريك فوشري، فإن أحداً ما على الأقل يعرفه، أليس

كذلك؟ أليس دوبريك هو الذي عـرف ولدك انطـوان تحت قناع جيلبير؟

ـ نعم.. نعم..

ـ ويعدك بأنه سينقذه.. أليس كـذلك؟ ويعـدك بالعمـل على هروبه.. ولا أعرف ماذا أيضاً.. وعرض أيضاً أن تمضي ليلة في مكتبه.. وهناك أردت أن تضربيه؟

ـ نعم. نعم. هذا هو.

ـ واشترط عليك شرطـاً واحداً مخيفـاً.. تخيله هـذا البائس كما أراد... لقد فهمت.. أليس كذلك؟

لم تجب كلاريس. بدت مرهقة بعـد عراك طـويل ضـد عدو كان يتفوق عليها كل يوم ويستحيل أن تهزمه.

جلس إلى جانبها وأجبرها على أن ترفع رأسها وقال محدقـاً في عينيها:

ـ أصغي إليّ جيـداً. أقسم لك بـأنني سأنقـذ ولـدك. هـذا قسم.. ولـدك لن يمـوت أتسمعينني؟ ليس هنـاك من قـوة في العالم وأنا على قيد الحياة يمكنها أن تنال من ابنك.

ـ أصدقك.. وأثق في أقوالك.

ـ إنهـا كلمات رجـل لا يعترف بـالهزيمـة. سأنجـح. إنمـا أرجوك التعهد وتنفيذ طلب واحد لي.

ـ ما هو؟

ـ أن لا ترين دوبريك على الاطلاق.

ـ أقسم لك.

ـ وأن تطردي من ذهنك كل فكرة مهما كانت غامضة أو تفكير باتفاق ما بينك وبينه..

ـ أقسم لك.

نظرت إليه بارتياح واطمئنان وخالجته الرغبة في إسعاد هذه المرأة أو على الأقل طمأنتها وجعلها تنسى جراحها.

نهض وقال بصوت فرح: هيا بنا. كل شيء سيسير على خير ما يرام. أمامنا شهران أو ثلاثة أشهر.. وهذا أكثر مما يلزمنا.. شريطة أن أكون متحرراً من تحركاتي طبعاً.. ولهذا عليك أن تنسحبي من المعركة.

ـ كيف؟

ـ أن تختفي لفترة زمنية وتقيمي في الريف. وبالتالي ألا ترأفي لحال صغيرك جاك.. وإلّا دمرت أعصابه. أظنه ارتاح الآن تماماً.

وفي اليوم التالي ذهبت كلاريس وابنها للإقامة في منزل صديقة تسكن على مقربة من غابة سان جيرمان. كانت مرهقة جداً وبحاجة لراحة تامة. لم تعد تفكر في شيء.. ومنعت من قراءة الصحف.

بعد ظهر ذات يوم وفيما كان لوبين يعدل من تكتيكه ويدرس الوسيلة التي تمكنه من اختطاف واحتجاز النائب دوبريك وفي الوقت الذي كان غرونيار ولوباهو يراقبان ذهاب ومجيء العدو وبعد أن وعدهما لوبين بمسامحتهما في حال نجاح العملية وبينما كانت الصحف تعلن عن اقتراب مثول شريكي لوبين أمام المحكمة، وفي تمام الرابعة بعد الظهر رن الهاتف في منزل لوبين في شارع شاتوبريان. رفع السماعة وقال: آلو؟

وسمع على الطرف الآخر صوت امرأة متعبة تسأل: السيد ميشال بومون؟

ـ هذا أنا يا سيدتي مع من لي شرف...

ـ أسرع يا سيد. احضر فوراً وعل عجل. السيدة مرجي أقدمت على تسميم نفسها

لم يطلب لوبين شروحات اضافية فخرج من منزله واستقل سيارته وذهب رأساً إلى سان جيرمان. كانت صديقة كلاريس تنتظره عند باب الغرفة. فسألها: هل ماتت؟

ـ الجرعة التي تناولتها لم تكن كافية. الطبيب عاينها وخرج من عندها قبل دقائق.

ـ ولماذا حاولت ذلك؟

ـ ابنها جاك اختفى..

ـ اختطفوه؟

ـ نعم. كان يلعب عند مدخل الغابة. شوهدت سيارة تتوقف بقربه وتخرج منها سيدتان عجوزان. ثم ارتفعت الأصوات وحاولت كلاريس أن تصرخ.. ولكنها وقعت أرضاً تئن وتردد: إنه هو.. إنه ذلك الرجل.. فقدنا كل شيء.

ـ وماذا بعد؟

ـ ساعدني زوجي ونقلناها إلى غرفتها. كانت تتألم كثيراً.

ـ كيف عرفت عنواني.. واسمي؟

ـ منها. اتصلت بك في حين كان الطبيب يعتني بها ويعمل على انقاذها.

ـ لا أحد يعلم بما حدث؟

ـ أبداً. أعرف أن كلاريس تعاني من مشاكل مخيفة وأنها تفضل الصمت.

ـ هل يمكنني أن أراها؟

ـ ـ إنها تنام الآن وقد منعها الطبيب من أي انفعال.

ـ ألم يبد الطبيب قلقاً حول وضعها الصحي؟

ـ يشك في وجود الحمى والارهاق الزائد أو أن تحاول المرأة الانتحار من جديد..

ـ ماذا يجب عمله لتجنب ما حدث؟

ـ أسبوع أو أسبوعان من الراحة التامة. وهذا مستحيل طالما أن صغيرها جاك لم...

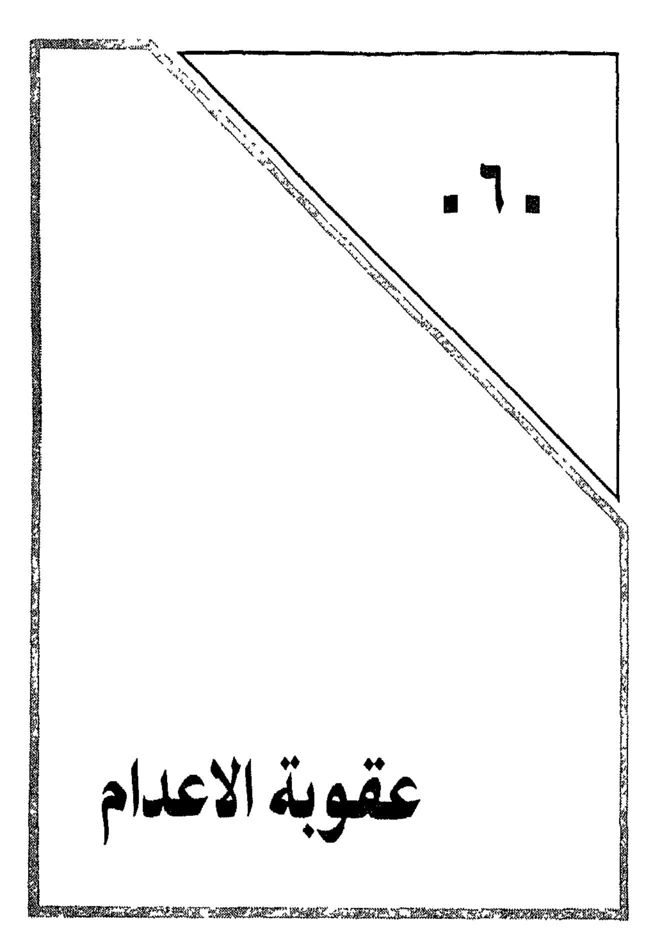
قاطعها لوبين قائلاً: أتعتقدين أنه لو أعيد إليها ولدها...

ـ طبعاً، ولن يعود هناك ما يدعو للقلق والخوف..

ـ هل أنت متأكدة من كل هذا؟ نعم، بالطبع. فعندما تستيقظ السيدة مرجي تقولين لها نيابة عني أنه عند منتصف هذه الليلة سأعيد لها ابنها. وأن وعدي قاطع ولا رجعة فيه.

غادر لوبين منزله بسرعة وصعد إلى سيارته وصرخ في سائقه:

إلى منزل النائب دوبريك في ساحة لامارتين في باريس



٦٠

عقوبة الاعدام

كانت سيارة لوبين، إضافة إلى كونها مكتباً مزوداً بالكتب والأوراق والحبر والأقلام، مقصورة ممثل تحتوي على كافة أدوات التبرج وخزانة مملوءة بالملابس المتنوعة وخزانة أخرى محشوة بقطع الغيار والمظلات والعصي.. وكل ما يسمح له بالتنكر من رأسه إلى أخمص قدميه

ارتدى بدلة فضفاضة ومعطفاً أسود زاده ضخامة وقبعة رفيعة ونظارة سوداء وطرق سور منزل دوبريك حوالى الساعة السادسة مساءً.

قادته الحارسة إلى الباب وقرعت الجرس فجاءت فيكتوار تفتح وسألها لوبين:

ـ هل يستطيع السيد دوبريك استقبال الدكتور فرنس؟

ـ السيد في غرفته.. ولكن في مثل هذه الساعة؟

ـ احملي إليه بطاقتي هذه.

أخذ بطاقة من جيبه وكتب في أحد أطرافها هذه العبارة. «من طرف السيدة مرجي» ثم ناولها إلى فيكتوار وقال مصرّاً:

ـ خذي. لا أعتقد أنه لا يستقبلني.

ـ ولكن .

ـ الا تريدين التخلص من «ولكن» هذه؟ أينها العجوز؟

ذعرت فيكتوار وتمتمت: أهذا أنت؟

ـ لا. هذا لويس الرابع عشر.

ودفعها إلى أحد زوايا الممر وأضاف: اسمعي.. ما أن أصبح وحيداً معه.. اصعدي إلى غرفتك واحزمي حقيبتك وارحلي..

ـ ماذا؟

ـ افعلي ما أقوله لك. تجدين سيارتي على بعد أمتار متوقفة فوق رصيف الجادة. هيا. اصعدي الآن واعلميه بوجودي. سأنتظر في المكتب.

ـ المكتب مظلم.

ـ أضيئيه.

أضاءت المكتب وتركت لوبين فيه وحيداً.. فجلس يفكر ويتذكر:

«هناك توجد السدادة البلورية.. إذا لم يكن دوبريك يحتفظ بها في جيبه دائماً.. ولكن.. لا عندما يكون هناك مخبأ أمين لا بد من استعماله.. وهذ المخبأ ممتاز لأن أحداً حتى الآن...»

كان يتفحص الأشياء الموجودة في المكتب بكل انتباه ودقة ويتذكر العبارة الموجزة التي كتبها دوبريك إلى برازفيل: «في متناول يدك أيها الصديق العزيز.. لقد لمستها..»..

يبدو أن شيئاً لم يحرك من مكانه منذ ذلك اليوم. نفس الأشياء لا زالت فوق المكتب: الكتب والسجلات والمحبرة وعلبة الطوابع والتبغ والغلايين.

كان لوبين مدركاً في الأساس أن زيارته محفوفة بالمخاطر والمفاجآت لخصم يتمتع بهذا القدر من القوة. ويمكن أن يحصل ويبقى دوبريك سيد الموقف في أرض المعركة ويتخذ الحوار معه منحى يختلف تماماً عن الذي يفكر فيه لوبين. وكان هذا التوقع يسبب له بعض الانزعاج

سمع وقع خطوات تقترب.. ودخل دوبريك.

دخل دون أن يقول كلمة واحدة.. وأشار إلى لوبين، الذي نهض، أن يعود إلى مجلسه وجلس هو أمام المكتب وراح ينظر في البطاقة التي أرسلها إليه لوبين وقال متسائلاً: «الدكتور فرنس؟».

ـ نعم يا سيدي النائب. الدكتور فرنس من سان جيرمان.

ـ وأرى أنك جئت من قبل السيدة مرجي.. زبونتك.. بدون شك؟

ـ زبونة صدفة. لم أكن أعرفها قبل أن أستدعى إليها على عجل ولظروف مأساوية.

ـ هل هي مريضة؟

ـ السيدة مرجي حاولت تسميم نفسها.

ـ ماذا؟

اهتز دوبريك وعاد يسأله وقد بدا الانزعاج عليه: ماذا تقول. سممت نفسها؟ هل ماتت؟

ـ لا، الجرعة التي تناولتها لم تكن كافية. وإذا لم تحدث أية مضاعفات.. أعتقد أنها نجت

صمت دوبريك لحظة وأنظاره معلقة بلوبين، الذي تساءل

بدوره: «هل تراه ينظر إليّ فعلاً أم يفكر في أشياء أخرى؟».

أزعجه جداً ألا يحول دوبريك ناظريه عنه وألا يقرأ في عيني خصمه ما يدور فعلاً في ذهنه.

عدل دوبريك من جلسته وراء مكتبه وعاد بعد لحظات يقول:

– لقد نجت السيدة مرجي وأرسلتك إليّ.. لا أفهم جيداً لماذا؟ إن معرفتي بها قليلة جداً.

وقال لوبين في نفسه: «هذه هي اللحظة الحرجة.. ويجب الاستمرار»، ثم استرخى في مقعده وأضاف بخجل واضح:

– هناك حالات يا سيدي النائب يبدو فيها دور الطبيب معقداً جداً.. وغامضاً أيضاً.. وستحكم على الأمر عندما أنجز هذه المهمة معك أثناء اعتنائي بالسيدة مرجي.. حاولت الانتحار مرة ثانية.. ولسوء الحظ كانت قارورة السم في متناول يدها. انتزعتها منها بقوة.. وخلال هذه العملية وعندما كانت تنوء تحت وطأة الحمى قالت هاذية: «إنه هو.. دوبريك.. النائب.. فليعد إليّ ابني. قل له هذا.. وإلّا سأموت.. وليفعل بسرعة.. هذه الليلة . سأموت»

وتابع لوبين هذا كل شيء يا سيدي النائب.. ولهذا قررت أن أضعك في مجرى الأحداث.. إني أجهل تماماً ما معنى هذه الكلمات. ولم أسأل أحداً.. بل جئت إليك فوراً لأعرف الحقيقة.

فكر دوبريك فترة قصيرة وقال:

– أفهم من كل هذا يا دكتور أنك جئت لتسألني أين هذا الولد . أليس كذلك؟

– نعم.

– وفي حال عرفت أين اختفى.. ستعيده إلى أمه.

ـ نعم.

ساد صمت طويل بين الاثنين، ثم قال لوبين في نفسه «هل تراه صدق هذه القصة؟ التهديد بالموت تراه كافياً؟ سوف نرى.. هذا غير معقول. ولكن مع ذلك يبدو متردداً..».

اقترب منه دوبريك ووضع أمامه جهاز التليفون وبدأ يطلب رقماً وقال مخاطباً لوبين:

ـ أتسمح.. إنها مكالمة عاجلة ..

ـ تفضل يا سيادة النائب.

وقال دوبريك مخاطباً الطرف الآخر على الخط:

ـ آلو.. يا آنسة.. أرجو إيصالي بالرقم ٨٢٢١٩.

كرر الرقم وراح ينتظر دون أن يتحرك.

ابتسم لوبين وقال.

ـ مقر الشرطة.. أليس كذلك؟ السكرتاريا العامة..

ـ فعلاً يا دكتور.. أتعرفه إذن؟

ـ طبعاً. كطبيب شرعي. كنت أتصل به من حين إلى آخر. وتساءل لوبين في أعماق نفسه «ماذا تراه يقصد من كل ذلك؟ السكرتير العام هو برازفيل.. ما هو المراد من هذه المكالمة؟»

وضع دوبريك سماعتين على أذنيه وقال

ـ ٨٢٢١٩؟ أريد السكرتير العام السيد برازفيل.. ليس موجوداً؟ بلى. بلى. إنه لا يزال في مكتبه حتى هذه الساعة؟ قولي له أن دوبريك اتصل.. دوبريك النائب نعم... اتصال على جانب كبير من الأهمية.

ـ ربما أزعجتك..

ـ لا. لا. يا دكتور. إن لهذه المكالمة علاقة ما مع الخطوة التي تقوم بها.

ورن الهاتف ليقطع حوارهما.. فتناول دوبريك السماعة وقال:

ـ آلو.. سيد برازفيل؟ أهذا أنت؟ لم نلتق منذ فترة طويلة.. ولكننا في الواقع نتزاور فكرياً.. فنانوك يزورونني باستمرار.. ماذا؟ أنت مستعجل؟ حسناً. سأدخل مباشرة في الموضوع.. أود أن أسدي إليك خدمة بسيطة.. انتظر يا حيوان.. لن تندم على ذلك.. إنها تتفق مع أمجادك.. آلو . أتسمعني؟ إني أقدم لك صيداً ممتازاً. يا سيدي. أقدم لك سيداً من علية القوم.. نابوليون نفسه.. أرسين لوبين.

قفز لوبين من مقعده. كان ينتظر كل شيء.. إلاّ هذا الحل.. ولكن شيئاً فيه كان أقوى من المفاجأة جعله يصرخ مؤيداً ومحبذاً:

ـ برافو.. برافو كتعبير عن الرضى.

أحنى دوبريك رأسه وتمتم:

ـ لم ينته شيء بعد.. قليلاً من الصبر.

وعاد يتابع حواره على الهاتف مع برازفيل.

ـ آلو. برازفيل.. ماذا؟ لا. لا. هذه ليست مزحة.. ستجد لوبين هنا أمامي.. في مكتبي.. لوبين الذي يلاحقني كالآخرين.. واحد زائد واحد ناقص.. لا يهم... المهم أن تخلصني من هذا الشخص.. أرجوك.. فعندما تصل إلى الدور الثالث.. تجد هناك طباختي.. فيكتوار الشهيرة. أتعرف؟ المرضعة السابقة للسيد لوبين وإليك معلومة جديدة أرسل أيضاً مجموعة إلى شارع

شاتوبريان عند زاوية شارع بلزاك.. هناك يسكن لوبين ويعرف باسم ميشال بومون.. اتفقنا.. والآن إلى العمل.. هيا تحرك.

وعندما أدار رأسه كان لوبين لا يزال واقفاً فاقترب منه دوبريك وهو يتمتم ويديه في جيب سرواله

ـ أليس كذلك؟ إن كل شيء يسير على خير ما يرام؟

وضع واضح على الأقل. لوبين ضد دوبريك. نقطة واحدة وهذا يكفي. إنما كم ربحنا من الوقت!

الدكتور فرنس.. الطبيب الشرعي كان أمامه ساعتان لكشف موضوعه.. بينما بإمكان أرسين لوبين أن يكشف عن قضية في ثلاثين دقيقة دون أن يؤخذ من عنقه، أو يجعل رفيقيه يقعان في الشرك، ومن الآن وحتى نصف ساعة فقط يجب الانتهاء من اخلاء الأماكن والهروب من المكان.

ـ قل يا بولونيوس الحقيقي.. ليس لي من حظ مع بيبي دوبريك، وليس هناك شخص آخر غيرك يختفي وراء ذلك الرداء يا بولونيوس البائس.

لم يجب لوبين بشيء، الحل الوحيد الذي كان سيهدئه هو خنق دوبريك، بعد أن التبست عليه الأمور. كانت هذه هي المرة الثانية في نفس الغرفة وفي ظروف مماثلة التي يضطر فيها لإحناء رأسه أمام دوبريك. وكانت لديه القناعة أنه إذا صمت فيكون قد بصق في وجه المنتصر؟ ما الفائدة من ذلك؟ ألم يكن الأساس هو التصرف ببرودة أعصاب وتنفيذ الأشياء التي يمليها الوضع الجديد؟

وعاد النائب يسأل:

ـ حسناً. حسناً يا سيد لوبين. يجب التفكير دائماً بإمكانية

التقـاء رجل طيب أقـل ايذاءً من بقيـة مواطنيـه؟ لا أقول أنني عرفت فوراً أن لوبين يختبىء في شخصية بولـونيوس. وعـرفت الأخـير في الانسـان الـذي جـاء يـزعجني في مقصـورة مسرح دوفيل.. لا. إنما كنت أرى أن بين السيدة مرجي والشرطة لص ثـالث يحاول التغلغـل.. عندئـذ ومن خلال الكلمـات التي كانت تتسرب إلى الحارسة من خلال مراقبتها ذهاب ومجيء الطبـاخة بدأت أفهم. إلى أن حدث ما تذكـره تمامـاً في تلك الليلـة. كنت أتظـاهـر بـالنـوم.. ولكنني كنت أسمــع الضـجيـج في المنـزل.. واستطـعت أن أتتبــع خطـى السيــدة مــرجي حتـى شــارع شاتوبريان ثم سان جيرمان.. ثم.. ماذا... بدأت تقريب الوقائع بعضهـا من بعض: سرقـة فيـلا انجيـان.. القـاء القبض عـلى جيلبير.. معاهدة التحالف التي لا مهرب منها بين الأم الضائعة ورئيس العصـابة.. المـرضعة العجـوز العاملـة كطباخـة.. وكل هؤلاء الناس الذين دخلوا منزلي من أبوابه وليس من نـوافذه.. إضافة إلى أن السيد لوبين كان يدور حول الاناء المملوء بالورود وتشده رائحة دم «السبعة والعشرون». الساعة حانت.. صبـاح الخير يا سيد لوبين».

توقف دوبريك عن الكلام ليستريح قليلاً. لم يرد لوبين عـلى خطاب دوبريك والتزم الصمت.

نظـر دوبريـك إلى سـاعتـه وقـال: تكلمت أكثـر من عشرين دقيقة. الوقت يمر بسرعة ثم اقتـرب من لوبـين أكثر وأضـاف: ومع ذلك فهذا يؤلمني. كنت أعتقد أن لـوبين هـو شخص آخر. مسكين. هل آتيك بكوب ماء لتهدىء من روعك؟

لم يقل لوبين شيئاً ولم يقم بحركة تدل على امتعـاضه.. بـل قام بإزاحـة دوبريـك من أمامـه وكأنـه لا يزال سيـد الموقف،

فـاقترب من المكتب وتنـاول جهاز الهـاتف وقال للمـوظفة عـلى الطرف الآخر: «من فضلك يا آنســة . أعطني الرقم ٥٦٥٣٤». وما أن أجيب إلى طلبه حتى بدأ يتحدث بصوت هادىء ويـركز على كل مقطع من حواره:

ـ آلو.. أنا في شارع شاتوبريان.. أهذا أنت يا اشيل؟ نعم. أنا.. المعلم.. اسمعني جيداً.. يـا اشيل. يجب أن تتـرك الشقة فـوراً.. الشرطة ستتصـل خلال دقـائق.. لا. لا. لا تخف. لديـك متسع من الوقت... إنمـا نفذ مـا أقولـه لك.. حقيبتـك جاهـزة دائماً؟ رائع. اذهب إلى غرفتي وقف تماماً في مواجهة المدفأة... اضغط بيسراك على الوردة الصغيرة المحفورة التي تـزين قطعة الرخام.. واضـغط بيمناك على أعلى المدفأة.. ستجد هنـاك درجاً صغيـراً فيه علبتـان. انتبه.. في الأولى كـل أوراقنا وفي الثـانية أوراق نقدية ومجوهرات. خـذ كل شيء وضعـه في قعر حقيبتـك الفـارغ. خذ الحقيبـة وتعال سيـراً عـلى الأقـدام وبسرعـة إلى تقاطع جـادتي فيكتور هيغـو ومونتسبـان. سـألحق بـك هناك.. ماذا؟ ثيابي ولوحاتي؟ أترك كل هذا.. وتعال بسرعة..

وضع لوبين السماعة بهدوء وأزاح جهـاز الهاتف إلى زاويـة المكتب ثم أمسك بذراع دوبريك وأجلسه فوق كـرسي قريب من كرسيه وقال له:

ـ والآن.. اسمعني جيداً.

ـ ماذا؟ بدأنا نتكلم بدون تكلف الآن؟

ـ نعم. إني أسمح لك بذلك.

استمـر لوبـين ممسكاً بـذراع دوبـريـك الـذي لم يبـد أي امتعاض وأضاف:

ـ لا تخف.. لن نتقـاتل.. ولن يـربح أحـد منا شيئـاً سوى

التدمير. طعنة سكين؟ لماذا؟ لا. كلمات. فقط كلمات لها وزنها. أجب بسرعة. أين الولد؟

ـ إنه عندي.

ـ أعده إلى أمه.

ـ لا.

ـ السيدة مرجي ستقتل نفسها.

ـ لا.

ـ أقول لك نعم.

ـ أؤكد لك أنها لن تفعل.

ـ ولكنها حاولت.

ـ ولذلك لن تكرر ما فعلت.

ـ والخلاصة؟

ـ لا.. هي لن تنتحر وأنا لن أعيد الولد.

توقف لوبين وعاد يقول بعد لحظات:

ـ كنت أتوقع ذلك. مع العلم أنني فكرت وأنا في طريقي إلى هنا أنك لن تصدق حكاية الدكتور فرنس وأنه لا بد لي من وسائل أخرى..

ـ وسائل لوبين؟

ـ قلتها بنفسك. كنت مصمماً على الكشف عن شخصيتي. ولكنك وفرت علي ذلك وقمت بالعملية أنت شخصياً. ولكن هذا لن يغيّر شيئاً من مشروعاتي.

ـ تكلم.

أخرج لوبين ورقة من دفتر جيب صغير ففتحها وناولها إلى دوبريك قائلاً:

ـ هذا هو الكشف الصحيح والمفصل مقروناً بأرقام الطلب للأشياء التي أخذها زملائي وأنا من فيلا ماري تريز الواقعة على ضفاف بحيرة انجيان. فهناك كما ترى ١١٣ رقماً تمثل ١١٣ شيئاً. ومن ضمن هذه الأشياء ٦٨ شيئاً أشير إلى أرقامها بالحبر الأحمر وقد تم بيعها وشحنها إلى أميركا. والأشياء الباقية هي في حوزتي. وحتى إشعار آخر. إنها الأجمل. وإني مستعد لتسليمك إياها فوراً لقاء اعادتك الولد إلى أمه.

دهش دوبريك وقال: كم أنت مهتم بالقضية!

ـ أكثر مما تتصور. لأنني واثق أن استمرار غياب الولد عن أمه سيتسبب بموتها.

ـ وهذا يقلقك يا دون جوان؟

ـ ماذا؟

وقف لوبين بسرعة في وجه دوبريك وكرر:

ـ ماذا؟ نعم ماذا تريد أن تقول؟

ـ لا شيء.. لا شيء.. مجرد فكرة.. كلاريس مرجي لا تزال شابة.. وجميلة.

هز لوبين كتفيه وقال:

ـ أتعتقد أن كل الناس مثلك لا رأفة لديهم وأن لصاً من أمثالي يضيع وقته في لعب أدوار «دون كيشوت»؟ وتتساءل أيضاً أي سبب قذر يمكن أن يدفعني؟ لا تفتش هذا خارج طاقتك.. ولكن أجبني فوراً.. هل تقبل بما عرضته عليك؟

ـ إذن أنت جاد فعلاً.

ـ بالطبع. إن الأشياء التي ذكرتها لك وعددها خمسة وأربعون موجودة في مستودع يمكن أن أعطيك عنوانه الآن. هناك يسلمونها لك إذا جئت الساعة التاسعة مساءً ومعك الولد.

لم يكن اختطاف الولد إلّا وسيلة قام بها دوبريك للضغط على كلاريس فقط وربما أيضاً تحذيراً لها لتوقف الحرب التي تشنها ضده. ولكن التهديد بالانتحار برهن لدوبريك ـ وبكل صراحة ـ أنه كان على خطأ. وفي هذه الحالة لماذا يرفض العرض المغري الذي يقدمه إليه أرسين لوبين؟ فقال: موافق.

ـ هذا عنوان مستودعي.

ـ وإذا أرسلت الأمين العام برازفيل بدلًا عني؟

ـ إذا أرسلت برازفيل يمكنني أن أراه ويكون لدي متسع من الوقت كي أهرب بعد أن أشعل النار في أكوام العشب اليابس...

ـ ولكن مستودعك سيحترق.

ـ هذا لا يهمني. الشرطة تراقبه منذ فترة.

ـ ومن يضمن لي أن ما تقوله ليس سوى فخ تنصبه لي.

ـ ابدأ بتحميل البضاعة ولا تسلم الولد إلّا بعد الانتهاء من كل شيء. أنا واثق مما أقوله.

ـ هيا بنا. يبدو أنك خططت لكل شيء.. ومهما يكن ستسترجع الولد وتعيش كلاريس الجميلة ونكون كلنا سعداء. كل ما أنصحك به الآن هو أن تهرب.

ـ ليس بعد.

ـ ماذا؟

ـ قلت ليس بعد.

ـ ولكنك مجنون برازفيل في طريقه إلينا.

ـ سينتظر. لم أنته بعد.

ـ كيف؟ كيف؟ ماذا يلزمك أيضاً؟ لقد عدت بولد كـلاريس. ألا يكفي هذا؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ هناك ولد آخر.

ـ جيلبير؟

ـ نعم.

ـ والمطلوب؟

ـ أطلب إليك أن تنقذ جيلبير!

ـ ماذا تقول؟ أنا أنقذ جيلبير.

ـ نعم، إنك قادر على إنقاذه ومن خلال اتصالات قليلة تقوم بها.

كان دوبريك صامتاً وهادئاً حتى الآن.. وما أن سمع لوبـين ينطق باسم جيلبير حتى انتفض وثار فجأة وضرب بقبضته فوق المكتب قائلاً:

ـ لا. هذا لا. لا تعوّل عليّ. وإلاّ ارتكبت حماقة كبيرة.

وأخذ يذرع أرض الغرفة بعصبية بارزة. ويتمايل إلى اليمين

واليسار، ينقل ساقيه بصعوبة بالغة كالحيوان المتوحش. ثم صرخ.

لتأتِ إلى هنا. لتأتِ ضارعة وتطلب العفو عن ولدها. لتأتِ دون سلاح أو فكرة اجرامية كالمرة الماضية. لتأتِ راجية كامرأة مروضة خاضعة وتفهم من يقبل.. وعندئذ ننظر في الأمر.. جيلبير؟ الحكم على جيلبير؟ حبل المشنقة؟ ولكن كل قوتي هناك.. ماذا؟ إني أنتظر ساعتي منذ أكثر من عشرين سنة. متى تراني سأعرف لذة الانتقام التام.. وأي انتقام. الآن أرفض هذا الشيء الذي ألاحقه منذ عشرين عاماً؟ سأنقذ جيلبير ولكن مقابل لا شيء.. للشرف فقط. أنا دوبريك!!

ارتمى فوق كرسي يقهقه وكأنه أصيب بهستيريا. كان يرى أمامه الفريسة التي لاحقها منذ زمن طويل. كظم لوبين غضبه وابتسم بمرارة وسخرية وقال:

ـ اسمعني جيداً.

وعندما حاول دوبريك أن يتهرب من الرد، أمسك به لوبين من كتفيه بقوة غير طبيعية يعرفها دوبريك منذ حادثة مقصورة دوفيل، وقال له

ـ كلمة أخيرة.

ـ إنك تضيع وقتك.

ـ كلمة أخيرة. اسمع يا دوبريك. انسّ السيدة مرجي، تراجع عن الحماقات والسفاهات التي يحثك على ارتكابها حبك وشهوتك. ابعد كل ذلك ولا تفكر إلاّ في مصلحتك.

ـ مصلحتي؟ هي دائماً على وفاق مع حبي لذاتي ومع ما تسميه بشهواتي.

ـ ربما حتى الآن، هناك عامل جديد تستهين به. وهذا غلط.. جيلبير هو شريكي.. وصديقي ويجب انقاذ رأسه. استخدم نفوذك وأقسم لك أننا سندعك تعيش بسلام. المهم هو إنقاذ جيلبير. إياك ودعم ألاعيب تحاك ضد السيدة مرجي وضدي. إياك ونصب الكمائن.. وستكون حراً تتصرف على سجيتك.. إنقاذ جيلبير يا دوبريك وإلّا...

ـ وإلّا ماذا؟

ـ الحرب.. وأنا متأكد من أنك ستخسرها..

ـ ماذا يعني هذا؟

ـ يعني أنني سأستعيد لائحة «السبعة والعشرون».

ـ أتعتقد ذلك؟

ـ وأقسم عليه.

ـ أنت قادر على فعل ما عجز عنه برازفيل وعصابته وكلاريس مرجي و..

ـ سأفعله.

ـ ولماذا؟ وببركة أي قديس تنجح أنت حيث فشل الآخرون؟ أهناك سبب؟

ـ أجل.

ـ أي سبب؟

ـ السبب هو أني أدعى أرسين لوبين.

ترك لوبين دوبريك يرتاح في كرسيه ولكنه استمر واقفاً بقربه يتأمله وكأنه أصبح السيد المهيمن. وقف دوبريك بعد لحظات

وربت علـى كتف لوبـين بهدوء وقـال بنفس اللهجـة الغـاضبـة والعناد المستمر:

أنا أدعى دوبريك. كل حيـاتي ليست سوى معـركة طـاحنة وسلسلـة من الكـوارث والمغـامـرات حيث أهـدرت الكثـير من الطاقات لبلوغ النصر.. النصر الكامل طبعاً والنهـائي.. الشرطة كلها ضدي وكـذلك الحكـومة وكـل فرنسـا وكل العـالم. وماذا يهمني بعد كل ذلك إذا كان أرسين لوبين ضدي؟ سـأذهب إلى أبعد من ذلك: فكلما كان أعدائي كثرة ومهرة، كلما كنت مجبراً عـلى أن ألعب بقوة وأضيق عليهم الخنـاق. ولهـذا يـا سيـدي الممتاز فبدلاً من إلقاء القبض عليك.. وكنت طبعاً قادراً على هذا وبسهولة لا يتصورها عقلك، تركتـك حراً.. وأذكـرك أنه خـلال ثلاث دقائق يجب أن تخلي المكان.

ـ إذن ترفض؟

ـ نعم.

ـ ألن تفعل شيئاً من أجل جيلبير؟

ـ بلى، سأستمر في عمل مـا عملته منـذ توقيفـه أي الضغط بصورة غير مباشرة على وزير العدل كي تتم المحـاكمة في أسرع وقت ممكن وفي المعنى الذي أرغبه.

اغتاظ لوبين وصرخ: كيف! كل هذا بسببك ومن أجلك.

ـ نعم. من أجلي أنا دوبريك. في يـدي ورقة هي رأس الـولد وسألعبها. وعندما أحصل على الحكم بإعدام جيلبير وعندما تمر الأيام ويرفض العفو عن جيلبير من خـلال عملي ضـده، يمكنك عندئذ أن تتأكد يا سيد لوبين أن الأم لن تعارض في أن تصبح السيدة الكسي دوبريك وتقدم ضمانات لا ترفض ومباشرة بملء

إرادتها. إن هذا المخـرج المسر هو مميت في آن شئت أم أبيت. كل ما يمكنني أن أفعلـه من أجلك هـو أن آخذك كشـاهد يـوم زواجي ودعـوتك إلى الغـداء. أيوافقـك هذا؟ لا؟ إنـك تصر على الغوص في أفكارك السـوداء؟ حسناً.. أتمنى لـك حظاً سعيـداً. استمر في نصب كمائنـك وطرح شبـاكك وشحـذ أسلحتك. قـد تحتاج إليها. إن قواعد الضيـافة الاسكـوتلنديـة تجبرني عـلى طردك. تفضل أخرج.

بقي لوبين صامتاً فترة وعيناه مسمرتان فـوق دوبريـك. بدا وكأنه يقيس قامة خصمه ويحكم على وزنه ويقدر قـوته البـدنية وفي أي مكان محدد سيهاجمه. شد دوبريك من قبضتيه وكـأنه هو أيضاً يعد في نفسه نظام الدفاع الذي سيلجـأ إليه في حـال تعرضه لهجوم لوبين.

مـرت نصف ساعـة، بعد وضـع لوبـين يده فـوق مسدسـه وكذلك دوبريك. وبكـل برود وازدراء أخـرج لوبـين علبة ملبس مذهبة ومدها إلى دوبريك وقال له: تفضل وخذ حبة.

دهش دوبريك وسأل: ما هذا؟

ـ أقراص جيرودل.

ـ ماذا أفعل بها؟

ـ اتقاءً للزكام الذي ستصاب به.

اغتنم لوبين فرصة اندهاش دوبريك وحـيرته، فتنـاول قبعته وخرج.

وعندما كان يسير في الممر قال في نفسه «هزمت طبعاً.. ولكن بالمقابل سخرت منه. كان ينتظر كنزاً فلم ينل منه سوى الفتات. فشله كان ذريعاً بدون شك. يا له من قرد عجوز».

وعندما كـان يهم بإغـلاق باب المـدخل، تـوقفت إلى جانبـه سيارة ترجـل منها رجـل بسرعة يتبعــه آخرون. كـان المترجـل برازفيل وعـرفه لـوبين الـذي قال هـامساً: تحيـاتي يا سعـادة الأمين العام. لدي فكرة وهي أن القدر سيجعلنا ذات يـوم نقف وجهاً لوجه. ويؤسفني ذلك لأنـك لن توحي إلي بـأي احترام أو اعتبـار. ولو لم أكن مستعجـلاً اليوم لانتظـرت ذهابـك ولحقت بدوبريـك لأتعرف إلى الشخص الـذي عهد إليـه بالـولد الـذي سيعيده إلي. ولكني مستعجل. ومن جهة ثانية لا أجد ما يضمن لي أن دوبريك لن يعمل بواسطـة الهاتف. إذاً يجب ألا تضيـع جهودنا عبثاً وهيا بنا نلحق بفيكتوار وآشيل وحقيبتنا الثمينة.

وبعد ساعتين وصل لوبين إلى مستـودعه في «نـويي»؟ وأخذ كافة الاحتياطات اللازمة. وما هـي إلّا لحظات حتى كان دوبريك يخرج من شارع قريب ويقترب مرتاباً.

فتح لوبين بنفسه الباب الكبير وقال:

ـ حاجياتك هناك يا سيدي النائب. يمكنك أن تتـأكد منهـا. هنـاك مؤجر سيـارات إلى جانبـك وما عليـك إلّا أن تطلب منـه شاحنة وعمالاً. أين الولد؟

تفحص دوبريك الأشياء أولاً ثم قاد لـوبين إلى جـادة نويي حيث كانت سيدتـان مقنعتان تقـومان بحـراسة الصغـير جاك. وعـلى الفور أخـذ لوبـين الولـد وقاده إلى سيـارته حيث كـانت فيكتوار تنتظره.

تم تنفيذ هذه العمليـات بسرعة وكـأن أدوات التنفيذ معـدة سلفاً عن ظهر قلب. وعند العاشرة مسـاءً، وتنفيذاً لمـا وعد بـه، كـان لوبـين يعيد الصغـير جاك إلى أمــه. ولكن كـان عليهم أن يستـدعوا الطبيب عـلى عجل إذ بـدا الولـد مذعـوراً بعد هـذه

الأحداث حيث بقي أسبوعين متوعكاً. ولكن لوبين قرر نقل الأم وولدها بعد أن تعافيا تماماً إلى أحد الشواطىء الفرنسية النائية وعهد بهما إلى فيكتوار.

وبعد أن ارتاح وخلد إلى نفسه قال: ليس هناك أي شخص الآن بيني وبين دوبريك. ولم يعد بإمكانه عمل شيء ضد السيدة مرجي وصغيرها. لقد ارتكبنا ما فيه الكفاية من الحماقات. كان عليّ أن أكشف نفسي أمام دوبريك وأن أتخلى عن حصتي في أثاث انجيان. طبعاً سأستعيده ذات يوم أو آخر. ومع ذلك فنحن لا نتقدم كثيراً. فمن الآن وخلال أسبوع فقط سيمثل جيلبير وفوشري أمام المحكمة.

كان لوبين يحقد جداً على دوبريك الذي وشى به إلى الشرطة وكشف منزله في شارع شاتوبريان حيث تمت مداهمته وتفتيشه وتم التعرف إلى هوية لوبين وميشال بومون من خلال بعض الأوراق.

وازداد حقد لوبين نظراً للانزعاجات التي تسبب له بها النائب. لم يكن لديه سوى رغبة واحدة هي وضع دوبريك تحت تصرفه وانتزاع ما يخفيه من أسرار باللين أو بالقوة. كان يحلم بأساليب تعذيب خاصة تجعل الرجل يهذي.

وفي هذه الأثناء كان غرونيار ولوباهو يدرسان الطريق الذي يسلكه دوبريك بين ساحة لامارتين ومجلس النواب والدائرة التي هو جزء منها. كان يجب اختيار الشارع الذي لا يرتاده المارة إلّا قليلاً والساعة الملائمة ودفعه ذات مساء إلى السيارة.

من جهته كان لوبين يجهز منزلاً في ضواحي باريس تتوفر فيه كافة الشروط الأمنية الضرورية وأطلق عليه لقب «قفص القرد».

ولكن دوبريك كان يشك في كل تحركات لوبين ويغير خطة سيره أو يركب المترو.. واستمر القفص خالياً منه.

وهنا أعد لوبين خطة ثانية: فقام بإحضار أحد معاونيه من مرسيليا الأب بريندلبوا الذي سبق له وعاش في دائرة دوبريك الانتخابية ويهتم بالسياسة وفي مرسيليا أعلن بريندلبوا أنه سيزور دوبريك الذي رحب بالزيارة واقترح أن يلتقي الاثنان حول مائدة عشاء خاصة في مطعم صغير عند الضفة الشمالية يمكن أن يأكل المرء فيه جيداً. فوافق دوبريك.

هذا ما كان يريده لوبين: فصاحبة المطعم هي في تعداد أصدقائه والضربة التي ستوجه إلى دوبريك هناك لا يمكن أن تفشل. العشاء حدد يوم الخميس بينما حددت محاكمة جيلبير وفوشري يوم الاثنين من نفس الاسبوع

عرف لوبين من خلال محاكمة جيلبير وفوشري ما هو التأثير الكبير الذي تركه دوبريك حول سير المحاكمة ونتائجها وكيف أن القاضي كان متشدداً جداً في استجوابه المتهمين.

كان موقفا جيلبير وفوشري متضاربين إلى حد بعيد. فقد بدا الأخير قلقاً، خائفاً.. كانت إجاباته موجزة وساخرة ولا تخلو من التحدي... ويرفض الاعتراف بأنه شارك في اغتيال الخادم ليونارد متهماً جيلبير بعنف على أنه هو القاتل الوحيد. كان بذلك يريد ربط مصيره بمصير جيلبير ويجبر لوبين على اتخاذ نفس الاجراءات لاطلاق سراح رفيقيه دون تفضيل واحد على الآخر.

وفي الجانب الآخر بدا جيلبير هادئاً، حالماً، حزيناً. لم يعرف كيف يفلت من شباك رئيس المحكمة ولا رد اتهامات فوشري. كان يبكي ويتكلم كثيراً.

لم يؤد حضور لوبين الجزء الأخير من المحاكمة إلى أية نتيجة. كان الحكم المزدوج حتمية لا مهرب منها.

كان الحكم مؤكداً لأن كل جهود العدالة تجمعت لإدانة المتهمين وإنزال العقوبات بهما.. هذا إضافة إلى كونهما أيضاً شريكين بارزين للوبين. ومنذ بدء المحاكمة وحتى لحظة لفظ الحكم ورغم عدم وجود أدلة كافية وميل المحكمة إلى عدم توريط لوبين، كانت المحاكمة إجمالاً موجهة ضد لوبين نفسه.. كان هو الخصم الذي يريدون الوصول إليه وهو الرئيس الذي يجب معاقبته في شخص صديقيه وهو أيضاً اللص الشهير والظريف الذي أرادوا تدميره في نظر الجمهور: فإعدام جيلبير وفوشري يطفىء الهالة من حول لوبين.. وينهي الأسطورة.

لوبين.. لوبين.. أرسين لوبين.. كان الحديث الطاغي والاسم الذي تردد بقوة طوال أيام المحاكمة الأربعة. ولم يكن لدى رئيس المحكمة والقضاة والمحامين والمحلفين من أقوال يرددونها سوى الحديث عن لوبين، حتى قيل أيضاً أن جيلبير وفوشري ليسا سوى شخصيتين ثانويتين جداً على مسرح الأحداث.. وإن ما يجري هو محاكمة لوبين السارق ورئيس العصابة والمزور.. والذي يعيش في الظل بعد أن دفع برفيقيه إلى درجات المقصلة وجلس ينتظر إعدامهما.

وقال لوبين في نفسه. إنهم يعرفون تماماً ما يفعلون. إن جيلبير المسكين هو الذي سيدفع ديوني. وأنا المجرم الحقيقي.

عند الساعة السابعة وبعد تداول استمر طويلاً عاد المحلفون إلى القاعة وقرأ رئيس المحكمة الأجوبة على الأسئلة التي طرحتها المحكمة. وكان الجواب «نعم» على كل النقاط. وهذا معناه إثبات التهمة ورفض الظروف التخفيفية.

وتم إدخال المتهمين فوقفا زائغي النظرات، شاحبين يستمعان إلى حكم الإعدام الصادر بحقهما.

ووسط الصمت المخيم على قاعة المحكمة وقلق الشعب الممزوج بالرحمة سأل رئيس المحكمة:

ـ هل لديك ما تضيفه يا فوشري؟

ـ لا يا سيدي الرئيس طالما أن نفس الحكم أنزل بصديقي.. إنني مطمئن. ونحن على قدر المساواة.. يجب على المعلم الآن أن يجد حيلة لانقاذنا نحن الاثنين.

ـ المعلم؟

ـ نعم. أرسين لوبين.

وضجت القاعة بالضحك وعمت الفوضى.

وعاد القاضي يسأل:

ـ وأنت يا جيلبير؟

انهمرت الدموع على خدي المسكين وتمتم عبارات غير مفهومة وعندما أعاد رئيس المحكمة سؤاله كان جيلبير قد تمكن من السيطرة على نفسه وأجاب بصوت مرتجف.

ـ أود أن أقول يا سيدي الرئيس أني ارتكبت أخطاء كثيرة وهذا صحيح.. كنت شريراً كبيراً وإني أتوب الآن من أعماق قلبي. ولكني لم أقتل.. أبداً.. لا أريد أن أموت.. هذا مرعب جداً.

وقاده الجنود إلى زنزانته وهو يصرخ.

ـ سيدي.. أنقذني.. أنقذني.. لا أريد أن أموت.

وفجأة ارتفع صوت مدوٍّ وسط الانفعال والضجيج يقول:

لا تخف يا صغيري. المعلم هنا.

وهنا تدافع الناس وعلا الصراخ وسارع حراس البلدية والشرطة واجتاحوا القاعة وأمسكوا برجل ضخم قيل أنه هو الذي صرخ وراح يقتتل مع الممسكين به بيديه ورجليه. وأثناء استجوابه قال أنه يدعى فيليب بانل وأنه موظف في مؤسسة دفن الموتى كما أعلن أن أحداً من جيرانه عرض عليه ورقة نقدية من فئة المئة فرنك إذا وافق، في اللحظة المطلوبة، أن يصرخ بالعبارة إياها والتي كتبها له جاره على ورقة انتزعها من دفتر مدرسي.

وكدليل على صحة أقواله عرض المئة فرنك والورقة أمام قاضي التحقيق.

وتم إطلاق سراح بانل على الفور.

وفي هذه الأثناء كان لوبين يخرج من قصر العدل والأسى يعصر قلبه. وجد سيارته على الفور وارتمى في داخلها منهكاً، يائساً، تكاد الدموع أن تفر من عينيه لو لم يتشجع ويحافظ على رباطة جأشه.

كان نداء جيلبير وصوته الضعيف الذي يخنقه الحزن ووجهه المكفهر وطيفه المتهاوي، كانت كلها تلاحقه وتجعله يعتقد بأنه لن يتسنى له بعد اليوم أن ينسى ولو للحظة واحدة مثل هذه الانطباعات المؤلمة.

عاد إلى منزله الجديد الذي اختاره من بين المساكن المتعددة التي يملكها والذي يقع عند زاوية ساحة كليش. وهناك انتظر غرونيار ولوباهو اللذين سينسق معهما عملية اختطاف دوبريك.

وما أن فتح باب المنزل حتى صرخ مندهشاً إذ فوجىء

بكلاريس منتصبة أمامه وقد عادت لتوها من بـريتانيـا. عرف لوبين أنها تعلم كل شيء. استعاد قوته وبادرها بالقـول دون أن يمكنها من أن تنطق بكلمة واحدة.

ـ نعم. نعم ولكن لا أهميـة لكل ذلـك. كـان مخططـاً لـه في السابق. ولم نتمكن من ايقافه. وهذه الليلـة يجب أن ينتهي كل شيء.

ـ هذه الليلة؟

ـ نعم. لقـد أعـددت كـل شيء. وخـلال سـاعتـين سيكـون دوبريك ملكاً لي.

ـ أتعتقد ذلك؟

ـ سيتكلم. سأكشف سره وأنتزع منه اللائحة التي ستكون إطلاق سراح ابنك.

ـ تأخرت كثيراً.

ـ لماذا؟ أتعتقدين أنه مقابل استبدال مثـل هذه الـوثيقة لا يمكنني الحصول على إخـلاء سبيل جيلبـير؟ خلال ثـلاثة أيـام سيكون جيلبير حراً...

سمع طرقاً على الباب فقال لها وذهب يفتح:

ـ ها هم أصدقاؤنا قد جاءوا. تذكري أني أفي بوعودي. لقد أعدت إليك صغيرك جاك.. وسأعيد لك جيلبير بعد ثلاثة أيام.

فتح الباب ووجد أمامه غرونيار ولوباهو فقال لهما: كـل شيء جاهز؟ الأب بريندلبوا موجود في المطعم؟ هيا بنا.. وبسرعة.

ـ لا داعي لذلك يا معلمي. قال لوباهو.

ـ كيف! ماذا؟

ـ هناك جديد في الأمر.

ـ جديد؟ تكلم.

ـ دوبريك اختفى.

ـ ماذا تقول؟ دوبريك اختفى؟

ـ نعم. اختطف من منزله في وضح النهار.

ـ يا للعنة! من اختطفه؟

ـ لم يعرف بعد.. أربعة أشخاص. حصل إطلاق نار أثناء الاختطاف. الشرطة تطوق المكان ويتولى برازفيل عمليات البحث عن الخاطفين.

لم يتحرك لوبين. نظر إلى كلاريس مرجي تتهاوى فوق الكنبة. فتركها واختار مقعداً بعيداً عنها. إن اختطاف دوبريك كان آخر فرصة تنهار وتفلت من يديه.

٧٠

طيف نابليون

فور مغادرة الشرطة ورئيس الأمن وقضاة التحقيق منزل دوبريك بعد تحقيق أولي لم يؤد إلى نتيجة، عمد برازفيل إلى القيام بتحرياته الشخصية.

فحص المكتب وآثار المعركة التي دارت فيه.. وجاءته الحارسة ببطاقة زيارة حيث كتب فوقها كلمات بقلم الرصاص. وضع البطاقة جانباً وقال لها:

ـ ادخلي هذه المرأة.

ـ إنها ليست وحدها.

ـ ليدخل الاثنان!

دخلت كلاريس مرجي وقدمت لبرازفيل مرافقها قائلة:

ـ السيد نيقول أستاذ حر يقوم بتدريس صغيري جاك لقد ساعدني جداً وأسدى إلي خدمات جلى منذ سنة. وهو بالذات الذي أعاد صياغة قصة السدادة البلورية. وأوده أن يعرف مثلي إذا كنت لا ترى مانعاً في أن تخبرني عن تفاصيل هذا الاختطاف الذي يقلقني ويربك خططي.. وخططك أيضاً.. أليس كذلك؟

كـان لبرازفيـل ملء الثقـة في كلاريس مـرجي والتي يعرف مدى كراهيتها لدوبريك. ولهذا لم تكن هناك أية صعوبـة في أن يقول لها كل ما يعرفه استناداً إلى بعض الأدلة وخاصة أقـوال الحارسة.

كان دوبريـك قد عـاد إلى منزلـه حوالى السـاعة السـادسة مسـاءً وبعد أن حضر كشـاهـد في محـاكمـة جيلبـير وفـوشري وشاهده الناس أثناء المرافعات في قصر العدل. وأكدت الحارسة أنـه عاد وحيـداً ولم يكن هناك أحـد في تلك اللحظـة في المنزل. ولكن بعـد دقـائق سمعت صراخـاً ثم ضجيـج عـراك وإطـلاق رصـاص. وشاهـدت من مسكنها أربعـة رجال مقنعـين يهبطون درج المدخل بسرعة حاملـين دوبريـك. وفي نفس اللحظة وصلت سيـارة أمام المنـزل فقفز فيهـا الأربعة مـع المختطف وانطلقت السيارة بسرعة كبيرة.

وسألت كلاريس مرجي.

ـ ألم يكن هناك شرطيان متخفيان حول المنزل؟

ـ كـان هناك فعـلاً. ولكن على مسـافـة ١٥٠ متـراً. ولكن الاختطاف تم بسرعة لم تمكنهما من التدخل.

ـ ولم يجدا شيئاً؟

ـ لا شيء. أو تقريباً لا شيء. وجدا هذا فقط.

ـ ما هذا؟

ـ قطعة عاج صغيرة التقطاها فوق الأرض.

كـان في السيارة شخص خـامس شاهـدته الحـارسة ينـزل عنـدما كـان الأربعة الآخـرون يحـاولـون إدخـال دوبـريـك في السيارة. وأثناء ركوبه السيارة وقع منـه شيء عاد والتقطـه على

الفور. ولكن هذا الشيء انكسر على الرصيف والتقطنا منه هـذه القطعة.

ـ ولكن كيف استطـاع هؤلاء الأشخـاص الأربعـة دخـول المنزل؟

ـ طبعـاً بواسطـة مفاتيـح مزورة وعنـدما كـانت الحارسـة تتبضـع بعد الظهـر. وكان من السهـل عليهم أن يختبئـوا لأن دوبريك لم يكن عنده خادم آخر.. وكل هـذا يدعـو إلى الاعتقاد بأنهم اختبأوا في هذه الغرفـة المجاورة التي هي غـرفة الطعـام وبعدها هاجموا دوبريك في مكتبه. وتدل بعثرة الأثاث والأشيـاء الأخرى على عنف المعركة التي دارت أثنـاء عملية الاختطـاف. وفوق السجادة وجدنا هـذا المسدس من العيـار الكبير والعـائد إلى دوبريك. وانطلقت رصاصة حطمت زجاج المدفأة.

استدارت كلاريس نحو مرافقها كي يبدي رأيه فيما يسمع. ولكن السيد نيقول كـان ينظر بعنـاد أمامـه ويتلاعب بـأطراف قبعته وكأنه يبحث عن مكان يضعهـا فيه ولم يهتـد إليه بعـد. ابتسم برازفيل وحدّج رفيق كلاريس بنظرة فاحصة وسأله:

ـ يبدو الموضوع غامضاً نوعاً ما. أليس كذلك يا سيد؟

ـ أجل. أجل. غامض جداً.

ـ أليس لدي فكرة شخصية ولو موجزة حول الموضوع؟

ـ أعتقد أن النائب دوبريك لديه كثير من الأعداء.

ـ هذا صحيح.

ـ وإن العـديد من هؤلاء الأعـداء لهم مصلحة في اختفـائه فاتفقوا ضده.

ـ صحيح. صحيح. كل شيء سيتضح. لم يبق لك سوى إعطائنا دليلاً صغيراً يوجه مجرى بحثنا.

ـ هل تعتقد يا سعادة الأمين العام أن قطعة العاج هذه...

ـ لا يا سيد نيقول. إن هذه القطعة جاءت من شيء لا نعرفه وأن مالكه كان يستعجل إخفاءه. يجب على الأقل تحديد طبيعة هذا الشيء لنصل إلى صاحبه.

فكر نيقول قليلاً ثم بدأ يقول:

«عندما سقط نابوليسون الأول من السلطة يا سعادة الأمين العام..».

ـ لا. لا. يا سيد نيقول. محاضرة في تاريخ فرنسا. هذا ليس مجالها.

ـ جملة صغيرة يا سعادة الأمين العام أرجو أن تسمح لي بإكمالها: «.. عندما سقط نابوليون الأول من الحكم قبضت حكومة الاصلاح على مجموعة من الضباط المخلصين لامبراطورهم والذين كانوا دائماً يحاولون طبع صورة قائدهم المعزول على أشياء يكثر استعمالها من قبل الناس· كالسكاكين وعلب التبغ والخواتم، إلخ..»

ـ والمقصود؟

ـ هو أن هذه القطعة مصدرها عصا عاجية أو منحوتة أخرى. وإذا نظرنا إليها بطريقة ما نجد أنها تمثل طيف (أو جانبية) الضابط الصغير. وفي يديك يا سعادة الأمين العام قطعة من التفاحة العاجية التي كانت تعلو قبضة عصا أحد المخلصين لنابوليون.

ـ بالفعل، يمكن أن نلاحظ الطيف الجانبي ولكن لا أرى

خلاصة لكل ذلك.

ـ الخلاصة سهلة. بين ضحايا دوبريك أحد المتحدرين من العائلة الكورسيكية الشهيرة التي عملت في خدمة نابوليون فأثرت ولكنها انهارت فيما بعد إبان حكم الاصلاح. وهناك احتمال شبه مؤكد على أن هذا المتحدر الذي كان لبضع سنوات رئيساً للحزب البونابارتي يمكن أن يكون هو الشخص الخامس الذي اندس في السيارة. هل تريدني أن أذكر لك اسمه؟

ـ الماركيز دالبوفكس؟

ـ هو نفسه. الماركيز دالبوفكس.

نهض نيقول وبعد أن سوى قبعته ولبس قفازيه اقترب من برازفيل وقال له:

ـ يا سعادة الأمين العام. كان بامكاني الاحتفاظ باكتشافي لنفسي ولا أطلعك عليه إلّا بعد النصر النهائي أي بعد أن أحضر لك لائحة «السبعة والعشرون». ولكن الأحداث تضغط. واختفاء دوبريك يمكن، خلافاً لتوقعات خاطفيه، أن يسرع في نشوب الأزمة. يجب أن تتصرف بسرعة يا سعادة الأمين العام ولهذا أطلب مساعدتك السريعة والفعالة.

ـ أين تريدني أن أساعدك؟

ـ في إعطائي غداً معلومات عن المركيز دالبوفكس أحتاج أنا أياماً لجمعها.

بدا برازفيل متردداً والتفت ناحية السيدة مرجي التي قالت له.

ـ أرجوك أن تقبل خدمات السيد نيقول. إنه مساعد قوي

ومخلص. أجيب عنه كما أجيب عن نفسي.

وسأله برازفيل:

ـ حول ماذا تريدني أن أعلمك بالضبط يا سيدي؟

ـ حول كل ما يتعلق بالماركيز دالبوفكس: وضعه العائلي، أعماله، علاقاته مع عائلته وممتلكاته في باريس وفي الريف.

اعترض برازفيل وقال

ـ في الواقع سواء كان الماركيز أو أي شخص آخر، فإن خاطف دوبريك يعمل لمصلحتنا لأنه إذا استولى على اللائحة فهو سيجرد دوبريك من سلاحه.

ـ ومن يقول لك يا سعادة الأمين العام أنه لا يعمل لحسابه الشخصي؟

ـ مستحيل. لأن اسمه مدرج على اللائحة.

ـ وإذا قام بتسطبه ووجدت نفسك أمام مراوغ آخر أصعب وأقوى من الأول كخصم سياسي وفي وضع أفضل من وضع دوبريك لتدعيم الصراع؟

فكر برازفيل لحظات ثم أعلن:

ـ تعالَ إلى مكتبي في مقر الشرطة غداً عند الساعة الرابعة وسأعطيك جميع المعلومات الضرورية. ما هو عنوانك في حال احتجت إليك؟

ـ السيد نيقول ـ ٢٥ شارع فيشي. أسكن عند أحد أصدقائي الذي أعطاني شقته أثناء غيابه.

انتهت المقابلة وغادر نيقول مكتب برازفيل ترافقه السيدة مرجي. وما أن أصبحا في الخارج حتى التفت لوبين إلى

كلاريس وقال:

ـ عمل رائع. أبواب مقر الشرطة مفتوحة على مصاريعها أمامي. وكل الناس هناك سيكونون بصحبتي.

وردت السيدة مرجي قائلة:

ـ يا للأسف. هل سنصل في الوقت المحدد؟ إن ما يزعجني هو أن تكون اللائحة تمزقت.

ـ من سيفعل ذلك. دوبريك؟

ـ لا. وربما الماركيز عندما يستعيدها.

ـ ولكنه لم يستعدها بعد. لدينا الوقت الكافي لنصل إلى هناك. تصوري أن برازفيل تحت أوامري الآن.

ـ وإذا اكتشفك؟ وعندئذ تدل التحقيقات على أنه لا وجود لك.

ـ ولكنها لن تدل على أن السيد نيقول هو غير أرسين لوبين. اطمئني إن هدف برازفيل الأول هو تدمير دوبريك. ولهذا فإن كل الوسائل تعتبر جيدة ولن يضيع وقته في التأكد من هوية السيد نيقول الذي يعده برأس دوبريك..

ورغماً عنها كانت كلاريس تستعيد دائماً ثقتها بلوبين بعد أن بدا لها المستقبل أقل رعباً وحاولت جاهدة التصديق بأن شروط انقاذ جيلبير لم تتلاش بعد الحكم عليه بالموت. كانت تريد الآن أن تكون إلى جانبه وتقاسمه كل الآمال المعقودة وكل الأحزان أيضاً.

أكدت المعلومات المستقاة من دائرة الشرطة كل ما كان برازفيل ولوبين يعرفانه. فالماركيز داليوفكس متورط جداً في عملية القنال وهذا ما حمل الأمير نابوليون على أن يسحب منه

ادارة مكتبه السياسي في فرنسا كما أنه يلجأ إلى القروض للحفاظ على النمط المعيشي في منزله. أما فيما يتعلق باختطاف دوبريك فقد تأكد، وعكس عاداته اليومية، أن الماركيز لم يظهر في الدائرة ما بين الساعتين السادسة والسابعة وأنه لم يتناول طعام العشاء في منزله ولم يعد إليه إلّا سيراً على القدمين وحوالى منتصف الليل.

بدا اتهام نيقول كبداية لدليل حسي.. ولسوء حظه لم ينجح لوبين في تقديم المزيد من المعلومات إذ استحال الحصول على أدنى ما يمكن منها بخصوص السيارة والسائق والأشخاص الأربعة الذين دخلوا منزل دوبريك. هل كانوا حلفاء للمركيز ومتورطين مثله في القضية؟ أم تراهم كانوا يعملون لحسابه؟ تساؤلات بقيت بدون إجابة.

كان يتوجب إذاً تركيز كل التحريات على المركيز وقصوره ومساكنه التي يملكها وتبعد عن باريس مسافة ١٥٠ كيلومتراً.

ولكن دالبوفكس كان قد باع كل شيء ولا يملك قصوراً ولا منازل في ريف باريس.

وهنا كان لا بد من التوجه نحو أهله وأصدقائه المقربين. وجاءت النتائج سلبية.

ومرت الأيام. أيام رهيبة بالنسبة لكلاريس مرجي حيث يقترب جيلبير من يوم الاستحقاق الرهيب. كان نفس القلق يستبد بلوبين. اقتربت منه وقالت:

ـ بعد خمسة وخمسين يوماً.. ماذا نستطيع أن نفعل؟ أرجوك.. أرجوك أسرع في انقاذ ولدي...

وكان العمل الذي قام به لوبين منذ صدور حكم الموت على

جيلبير هو قيامه مرة واحدة بزيارة للدوق مونمور. ولكن حوارهما دار فقط حول الرياضة.

وقال برازفيل:

«ليس هناك ما يدعو إلى الافتراض أن دوق مونمور الثري جداً والذي لا يهتم إلّا بالصيد وبأراضيه ولا يتعاطى السياسة يحتجز النائب دوبريك في قصره».

وافقه لوبين على هذا الرأي. وبما أنه قرر ألا يترك شيئاً صدفة قام بتعقب دالبوفكس في الأسبوع الثاني بعد أن شاهده في زي فارس فلحق به إلى محطة الشمال وركب القطار معه في آن.

نزل المركيز في محطة «دمال» حيث كانت تنتظره سيارة نقلته إلى قصر الدوق مونمور.

تناول لوبين طعام الغداء بهدوء واستأجر دراجة ووصل إلى القصر عندما كان المدعوون يدخلون الحديقة في سياراتهم أو على ظهور خيولهم. وكان دالبوفكس من بين الفرسان.

شاهده لوبين ثلاث مرات ذلك اليوم وهو يمارس رياضة الفروسية وعاد ليلقاه في المساء عند المحطة فوق جواده يتبعه سائس.

الدليل كان رداً قاطعاً وليس هناك من شك في هذه الناحية. لماذا بالتالي قرر لوبين ألا يتمسك بالظواهر؟ ولماذا أيضاً أرسل لوباهو ليقوم بتحقيق في جوار مونمور؟ إنها احتياطات وقائية لا ترتكز إلى أي تعليل.

وفي اليوم التالي تسلم من لوباهو، إضافة إلى معلومات لا تهمه، لائحة بأسماء جميع المدعوين والخدم العاملين في القصر

وحراس مونمور.

استرعاه اسم من بين الساسة فأبرق:

«اجمع معلومات عن السائس سيباستياني».

وجاء رد لوباهو سريعاً كالتالي:

«سيبستياني من كورسيكا. أوصى به لدى دوق مونمور المركيز دالبوفكس. يقيم على مقربة من القصر».

عرض لوبين الرد على كلاريس وقال:

ـ إنه هو. إن اسم سيبستياني يذكرني بأن المركيز دالبوفكس هو من أصل كورسيكي أيضاً.. وهناك تقارب في أمور كثيرة..

ـ وماذا تنوي أن تفعل؟

ـ إذا كان دوبريك محتجزاً في ذلك المكان. سأتصل به.

ـ سيحترس منك.

ـ هذه الأيام واستناداً إلى أدلة الشرطة، اكتشفت من هما السيدتان اللتان اختطفتا صغيرك جاك في سان جيرمان واللتان حملتاه، مقنعتين، في مساء نفس اليوم الى «نويي».. انهما فتاتان عجوزان وهما ابنتا عم دوبريك يدفع لهما مبلغاً زهيداً كل شهر. وهما من عائلة روسيلو زرتهما وجعلتهما تثقان بي. وعدتهما أن أجد عمهما وولي نعمتهما.

كبيرتهما، «أوفرازي»، سلمتني رسالة إلى دوبريك تتوسل إليه فيها أن يثق تماماً بالسيد نيقول ويراجعه في كل شيء. إن كل الاحتياطات اتخذت وسأذهب هذه الليلة.

ـ سنذهب هذه الليلة.

ـ أنت أيضاً؟!

ـ هل تريدني أن أعيش في الانعدام والحمى؟! إنها ليست الأيام التي أعد.. بل الساعات..

أدرك لوبين عمق الإصرار عند كلاريس فوجد انه لا لزوم لإقناعها. وعند الخامسة صباحاً غادرا في سيارة يقودها غرونيار.

وكي لا يثير الشكوك اختار لوبين مدينة كبيرة ليجعل منها مقره الرئاسي. فوضع كلاريس في «اميان» وأصبح على بعد ثلاثين كيلومتراً فقط من «مونمور».

عند الساعة الثامنة مساء التقى لوباهو على مقربة من القلعة القديمة والتي تعرف في المنطقة تحت اسم «مورتبيار» فتفحص الأمكنة بقيادة لوباهو نفسه.

وعند مشارف القلعة المطلة على نهر يخترق وادياً عميقاً، قال لوبين.

ـ لا شيء يرجى من هذه الناحية. فالمنحدر صعب يتراوح علوه ما بين ٦٠ إلى ٧٠ متراً والنهر يحيطه من كل الجهات. وجدا على مسافة قصيرة جسراً يؤدي إلى ممر ضيق بين أشجار الصنوبر والسنديان يتصل بغرفة محاطة بقضبان الحديد وبرجين صغيرين.

وقال لوبين: هناك بالتأكيد يقيم السائس سيباستياني؟

ـ نعم. يقيم مع زوجته في شقة وسط الدمار. عرفت أيضاً انه أب لثلاثة شبان وكلهم سافروا يوم اختطف دوبريك.

ـ يا لها من صدفة. وتستحق أن تحفظ غيباً. ومن المحتمل أن تكون عملية الاختطاف تمت على يد هؤلاء الشبان وأبيهم.

وفي المساء عاد لوبين إلى كلاريس مرجي بعد أن قام بجـولة حـول القلعة وبـدأ بالتنقـل بين اميـان ومورتبيـار تاركـاً خلفه غرونيار ولوباهو في وضع مراقبة دائمة.

مـرت ستة أيـام.. وبدا أن تصرفـات سيباستيـاني تخضع إجمالاً لمتطلبات عمله: يذهب إلى قصر مونمور، يتنزه في الغابـة، يقتفي اثر مرور الحيوانات ويقوم بدوريات ليلية.

وفي اليوم السابـع سمع ان دوق مـونمور سيـذهب في رحلة صيد طويلة وان عربة انطلقت إلى محطة دوماك، فاتخـذ مكانـاً له خلف أشجار الدفلى أمام الباب.

وعنـد الساعـة الثانيـة صباحـاً سمع نبـاح رهط من كلاب الصيـد. اقتـربت الكـلاب يصحبهـا صخب ثم ابتعـدت. عـاد وسمع النباح بعـد الظهر ثم تـوقف نهائيـاً. وفجأة سمـع وقع جياد ورأى فارسين يتسلقان ممر النهر.

عرف المركيز وسيباستيـاني. فما أن تـرجلا عن جـواديهما حتى تقدمت امرأة، ويعتقد انها امـرأة السائس، ففتحت لهمـا الباب فيما قام زوجها بربط الجوادين إلى وتـد يبعد فقط ثـلاث خطوات عن لوبين وأسرع سيباستياني الخطى ولحق بالمركيز.. وأقفل الباب من خلفهما.

لم يتردد لوبين ومع أن الوقت في وضح النهـار فاعتمـد على هدوء المكان ودس نفسه داخل الفجوة حيث رأى رجلين وامرأة يسرعون باتجاه آثار البرج.

رفع الحارس ستار شجر اللبلاب واكتشف مدخل سلم فنزله مع دالبوفكس وتركا المرأة في دور الحراسة فوق المصطبة.

وعاد لوبين إلى مخبئه. ولم يطل به الوقت ليرى البـاب يفتح من جديد.

ظهـر دالبوفكس وفي يـده سوط يضرب بـه حـافـة حـذائـه السميك ويردد كلمـات تنم عن غضب شديـد. حاول لـوبين أن يفهم ما يقوله ولكنه عجز عن ذلك في البداية وتمكن منه عندمـا أصبحت المسافة بينهما أقرب فسمع دالبوفكس يقول:

ـ يـا له من تعيس. سـأجبـره عـلى القـول . وهـذا المسـاء بالذات.. أتسمع يا سيباستياني؟ هذا المساء عندما أعـود عند الساعة السادسة.. سنتصرف.. فهمت؟

فك سيباستيـاني الجوادين. والتفت دالبـوفكس نحو المـرآة قائلاً:

ـ ليقم أولادك بحراسة قـوية ومشـددة. إذا حاولـوا إطلاق سراحه فبؤساً لهم.. الفخ هناك وهل يمكنني أن أعتمد عليك؟

ـ واعتمد أيضاً على أبيهم يا سعادة المركيز، أكد السـائس وأضاف: إنهم يعرفون ماذا فعل السيد المركيز من أجـلي وماذا يريد أن يفعل من أجلهم. فهم لا يتراجعون أمام شيء.

وقال دالبوفكس:

ـ هيا بنا إلى الصيد. امتطِ جوادك واتبعني.

وانطلق الإثنـان إلى المكان الـذي يتم فيه احتجـاز دوبريـك وحيث تشرف الأم وأولادها الثلاثة على مراقبته.

أبدى لوبين ارتياحاً بعد أن انتهت الأمور وفق ما افترضه.. فتقدم من كلاريس مرجي وقال:

ـ اليك أين نحن الآن. عند العاشرة من هذا المسـاء سيقوم المركيز بـاستجواب دوبـريك.. سيعتمـد معه العنف ولكن هـذا ضروري إلى حـد مـا ونفس الشيء كنت سـأفعلـه أنـا لـو كنت مكانه.

ـ وسيفضي دوبريك بكل ما لديه من أسرار..

ـ هذا ما أخافه.

ـ وما العمل إذاً؟

ـ إني أحار بين خيارين. إما منع هذا التحقيق.. أو..

ـ وكيف؟

ـ في استباق دالبوفكس. فعند الساعة التاسعة سأقوم أنا وغرونيار ولوباهو بتسلق المنحدرات فنهاجم القلعة ونجرد الحراس من سلاحهم ويصبح دوبريك لنا.

ـ هذا إذا لم يكن أولاد سيباستياني قد رموه في الفخ الذي لمح إليه المركيز.

ـ إني لا أفكر باللجوء إلى هذه الخطة إلا في حالة الاضطرار وفي حال أصبح مخططي الآخر غير قابل للتنفيذ.

ـ وما هو هذا المخطط.

ـ حضور المقابلة. إذا لم يتكلم دوبريك فهذا يساعدنا على اختطافه في ظروف أكثر ملاءمة. أما إذا تحدث وأجبروه على الكشف عن المكان الذي توجد فيه لائحة «السبعة والعشرون» فعندئذ سأعرف الحقيقة كما سيعرفها دالبوفكس وأقسم لك بأنني سأقطف الثمرة قبل أن تمتد يده إليها.

ـ نعم.. نعم.. ولكن بأي عمل ستقوم لتتمكن من حضور المقابلة؟

ـ لا أعرف بعد. وهذا يتوقف على بعض المعلومات التي سيحضرها لي لوباهو.. والتي سأجمعها أنا بنفسي.

خرج من الكوخ ولم يعد إليه إلا بعد ساعة ومع هبوط

الليل. وهناك لحق به لوباهو.

سأله لوبين:

هل عدت بالكتيب.

ـ نعم يا معلمي. إنه فعلاً ما رأيته عند بائع الصحف في دومال. واشتريته بعشرة سنتيمات.

ـ هاته.

وناوله لوباهو كتيباً قديماً مستعملاً وملطخاً عنوانه:

«زيارة إلى مورتبيار، ١٨٢٤، مع رسوم وخرائط».

وعلى الفور بدأ لوبين يبحث عن مخطط القلعة.. توقف لحظات وقال للوباهو:

ـ إنه هذا فعلاً.. يوجد تحت الأرضية ثلاثة أدوار مدمرة نسبياً.. وفي الصخرة دوران: واحد يبدو خرباً تماماً وفي الآخر يحتجز صديقنا دوبريك.. أطلقوا على المكان اسم «غرفة التعذيبات».. يا للصديق المسكين. ويقوم بين السلم والغرفة بابان بينهما فسحة صغيرة أعتقد أن الاخوة الثلاثة مقيمون فيها ويدهم على زناد بنادقهم.

ـ إذاً يستحيل عليك الدخول من هنا دون أن يراك أحد.

ـ مستحيل.. هذا إذا لم نتمكن من المرور من أعلى، أي من الدور المهدم والبحث عن طريق عبر السقف.. ولكن هذا محفوف جداً بالخطر.

استمر يقلب صفحات الكتيب.. وسألته كلاريس مرجي:

ـ أليس هناك من نافذة في تلك الغرفة؟

ـ بلى. من الأسفل. من ناحية النهر.. إني أرى هنا فتحة

صغيرة. ولكن هناك ارتفاع بحدود ٥٠ متراً والصخرة تسقط مباشرة وبزاوية حادة في النهر. وهذا بالتالي مستحيل أيضاً.

استمر لوبين يقلب صفحات الكتيب. وفجأة توقف عند فصل استرعى انتباهه تحت عنوان: «برج العاشقين» وراح يقرأ سطوره الأولى:

«في السابق كان سكان البلدة يطلقون على القلعة اسم «برج العاشقين» تذكيراً بمأساة أدمته في العصور الوسطى وهي أن الكونت دي مورتبيار عندما تأكد من خيانة زوجته له قرر سجنها في غرفة التعذيبات حيث بقيت فيها ٢٠ عاماً. وذات ليلة تجرأ عشيقها (السير دي تانكارفيل) على نصب سلم في النهر وتسلق فوقه على طول المنحدر حتى كوة الغرفة. وبعد نشر قضبان الحديد تمكن من إطلاق سراح عشيقته ونزلا معاً بواسطة حبل حتى بلغ السلم الأساسي حيث كانت مجموعة من الأصدقاء تراقبه.. وفجأة انطلقت رصاصة أصابت الكونت في كتفه، وسقط العشيقان في الهوة».

توقف لوبين عن القراءة ورفع ناظريه نحو كلاريس مرجي وقال مخاطباً رفيقيه: لوباهو ابحث عن حبل رفيع وقوي كي أتمكن من لفه حول خصري وأن يكون بطول ما بين خمسين إلى ستين متراً. وأنت يا غرونيار ابحث عن ثلاثة أو أربعة سلالم اربطها بعضها إلى بعض.

دهش الرفيقان وصرخا معاً:

ـ ماذا تقول يا معلم؟ أتريد أن تلعب دور الكونت العاشق؟ إنه فعلاً لضرب من الجنون.

ـ جنون؟ لماذا؟ ان ما فعله الآخر يمكنني أن أفعله أنا.

ـ ولكنْ هناك واحد في المئة من إمكانية النجاح والنجاة من موت محتم.

ـ وهذا الأمل الضعيف جداً كما تقول يكفيني يا لوباهو.

ـ حاول أن تصرف النظر عن هذه المغامرة.. يا معلم.

ـ لا. تكلمنا ما فيه الكفاية. ولقاؤنا بعد ساعة عند ضفة النهر.

* * *

كانت التحضيرات للمغامرة صعبة جداً.. فبعد تسع ساعات من العمل الشاق، استطاع لوبين ورفيقاه تأمين السلم المطلوب وربطوه بقارب وضعوا مقدمته بين حاجزين خشبيين للتمويه وتركوا مؤخرته قريبة من حافة النهر.

كان الطريق القريب من النهر والذي يعبر الوادي مقفراً وليس هناك من يرى ماذا يفعل لوبين ورفيقاه.. أو يزعجهم من قريب أو بعيد ويعطل شيئاً من سير خطتهم الجهنمية. وكان الظلام حالكاً والسماء ملبدة بغيوم ثقيلة.

أعطى لوبين آخر تعليماته لغرونيار ولوباهو وقال يخاطبهما ضاحكاً:

ـ لا يمكن للبعض أن يتخيل ان منظر سلخ جلدة رأس دوبريك وتقطيع أطرافه هو أمر مسل. ان مغامرتي لها ما يبررها وتستحق هذا العناء.

والتفتَ لوبين إلى كلاريس التي كانت معهم في القارب وقال لها:

ـ إلى اللقاء قريباً. لا تتحركي. مهما يحصل.. لا تصرخي ولا تقومي بأية حركة كانت.

ـ هل تعتقد أنه يمكن أن يحصل شيء ما؟

ـ اللعنة! تذكري ما حدث للسير دي تانكارفيل. ففي اللحظة التي كاد أن يبلغ فيها الهدف خانه الحظ. ولكن اطمئني. سيسير كل شيء على خير ما يرام.

لم تجب بشيء. أمسكت بيده وضغطت عليها بقوة وضع رجله فوق السلم وتأكد من انها لا تهتز كثيراً . وصعد.. بلغ آخر جزء من السلم بسرعة. وهناك بدأت عملية الصعود الخطيرة.. ومن حسن حظه انه كان في الحائط المرتفع أمامه أماكن صغيرة وفجوات يمكنه أن يضع رجليه ويمد يديه ليتعلق بهذا الحجر أو تلك الفجوة.. ولكن بعض الصخور كانت تفلت من تحت قدميه فيتعلق بيديه محاولاً استمرار التسلق.. حدث له أن انزلق مرتين.. وفي كل مرة كاد يظن ان كل شيء انتهى وضاعت الفرصة عليه.

كان الحبل الطويل الذي لف به وسطه يزعجه ويتبعه بدون طائل. قام بتثبيت أحد طرفي الحبل في أعلى بنطلونه وانحل الحبل ليمتد على طول المنحدر. وعاد ليستعملـه عند الهبوط. تمسك من جديد بنتوءات الصخور وتابع التسلق رغم الجروح التي أصابت يديه فسال الدم دون أن يأبه له. كان يتوقع السقوط في كل لحظة ويعتبر أن لا مفر من ذلك. وكان الهمس في القارب لا يزال مسموعاً فيعتبر انه لم يتقدم في عمليته.

وتذكر السير دي تانكارفيل وحيداً بين الظلمات يرتجف عند سماعه الحجارة المنزوعة تتدحرج على مسافة قريبة منه.. أو أن يقوم الآن واحد من حراس دوبريك بالتطلع من برج القلعة إلى أسفل فيراه ويطلق النار عليه ويرديه قتيلاً.

تسلق.. وتسلق.. وتسلق إلى أن ظن انه تعدى الهدف

والواضح انه تمايل إلى اليمين وإلى اليسار ودار في خلده انه سيصل إلى طريق مسدود. استبعد التقدير واعتبره حماقة وتساءل هل يمكن أن تأتي المحاولة بشكل آخر بعد أن تسارعت الأحداث وتسلسلت الوقائع بسرعة لم تسمح له أن يقوم بأية دراسة أو تحضير واقعيين.

غضب وقرر مضاعفة جهوده وارتفع عدة أمتار. انزلق ولكنه تمسك بشجيرة نبتت في الصخر.. وانزلق من جديد وكاد أن يتخلى عن المحاولة لو لم يسمع فجأة أصواتاً سمّرته في مكانه وكأنها تخرج من الصخر الذي ينزلق فوقه.

أصاخ السمع وعرف ان مصدر الصوت من اليمين.. وخيّل له انه شاهد قبساً من نور يخترق ظلمات المدى. استجمع كامل قواه ونجح في الاقتراب من مصدر الصوت.. وإذا به يجد نفسه فوق فوهة عريضة وبعمق ثلاثة أمتار على الأقل تخرق حاجز المنحدر كممر يضيق في نهايته ومقفل بثلاثة قضبان حديدية.

تسلق لوبين ولامس رأسه القضبان فرأى العجب.

٨٠

برج العاشقين

كانت غرفة التعذيب تحتـه مباشرة، واسعـة.. وغير منتظمـة الشكل.. تنبعث من جدرانها روائح الرطوبـة والعفونـة وتغطي بلاطها المياه المتسربة من الصخر. وهناك شاهد دوبريك. وكـان يقف إلى جانبه المركيز داليوفكس وشاهد لوبين من كوته وجهه الشاحب وشاربيـه الكثّين وقـامته الطـويلة النحيلـة.. ينظر إلى سجينه بسرور بالغ ولكنه ممزوج بالكراهية المكبوتة.

مرت دقائق صمت عميق. ثم قال المركيز آمراً:

– أشعـل هذه المشـاعل الثـلاثة يـا سيباستيـاني كي أرى بوضوح أكثر.

وعندما نفذ الخادم الأمـر واستطاع المـركيز رؤيـة دوبريـك بوضوح تام.. تأمله ثم انحنى وقال له بهدوء:

– لا أعرف تماماً ماذا سيحل بنا نحن الاثنـين. ولكن عشت مع ذلك دقائق في هذه الغـرفة مفعمـة بالغبطـة. لقد أسـأت لي كثيراً يا دوبريك. كم بكيت من أجلك.. نعم بكيت حقيقة.. لقـد سرقت مني مالاً.. سرقت ثروة.. ولا تنسَ الخـوف الذي عشتـه بسبب وشايتك.. ان التلفظ باسمي كان يعني خرابي.. وضياع شرفي.. يا لك من نذل سافل!

لم يتحرك دوبريك.

كان يحتفظ بنظارتيه اللتين تعكسان نور المشاعل. ضعف إلى حد الهزال وبرزت عظام خديه بشكل واضح ومخيف.

وعاد المركيز يخاطبه ويضيف:

- هيا. يجب أن ننتهي الآن .. يبدو أن هناك لصوصاً يتجولون في البلاد. ولحسن الصدف انهم لا يفكرون بك ولن يحاولوا إطلاق سراحك وإن هم فعلوا فمعنى هذا نهايتك المباشرة كما تعرف. هل الفخ يعمل جيداً يا سيباستياني؟

اقترب سيباستياني وركع ثم رفع وبرم زردة لم يتمكن لوبين من ملاحظتها إنما عرف انها موجودة عند أسفل رجل السرير. تداعت بلاطة وكشفت عن ثقب أسود.

وعاد المركيز يخاطب دوبريك ويقول:

- كل شيء معد مسبقاً كما ترى، وفي متناول يدي كل ما يلزم.. بما فيه الزنزانات التي يصعب وربما يستحيل الوصول إليها والتعرف إلى مكانها. لا شيء تأمله ولا نجدة تنتظرها. أتريد أن تتكلم؟

لم يجب دوبريك بشيء، واستمر المركيز قائلاً.

- إنها المرة الرابعة التي أسألك فيها. وللمرة الرابعة أيضاً أكلف نفسي عناء الانتقال لأطلب منك الوثيقة التي تملكها والتخلص من مراوغتك. إنها، كما قلت لك، المرة الرابعة والأخيرة. أتريد أن تتكلم؟

ولم يجب دوبريك أيضاً. استمر صامتاً. وهنا أشار المركيز إلى سيباستياني فتقدم يتبعه اثنان من أولاده أحدهما يمسك عصا بيده. فأمره دالبوفكس بعد لحظات انتظار قائلاً. هيا.

فك سيباستياني الأربطة التي تشد قبضتي دوبريك وأدخل العصا بينها وعاد فشدها من جديد وقال يسأل المركيز: أأبرم يا سيدي؟

انتظر المركيز ولكن دوبريك لم يقل شيئاً فعاد ليقول له.

– تكلم ما الفائدة من تعريض نفسك للخطر؟ ولم يلق جواباً. فقال المركيز:

– ابرم يا سيباستياني.

همهم دوبريك متألماً وبدأ العرق يتصبب من جبينه. نظر إليه المركيز بسخرية وقال:

– ألا تريد أن تتكلم؟ أنت تعلم جيداً انني لن أسلمك ومستحيل أن أخضع. إني أمسك بك وسأحطمك حتى الموت إذا اقتضى الأمر. ألا تريد أن تتكلم؟ لا؟ ابرم زيادة يا سيباستياني.

وأطاع الحارس. اهتز دوبريك من الألم وصرخ ثم وقع فوق سريره يلهث.

وصاح المركيز مرتجفاً:

– يا لك من أحمق. تكلم إذن.. ماذا؟ ألم تضجر بعد من هذه اللائحة؟ إنه دور واحد آخر.. هيا.. قل أين هي؟ قل كلمة واحدة وهذا يكفي.. وبعد ذلك نتركك.. وغداً عندما أملك اللائحة.. أطلق سراحك. ستكون حراً.. أسمعت؟ ولكن بالله عليك أن تتكلم.. دورة ثانية يا سيباستياني.

بذل سيباستياني مزيداً من القوة وطقطقت العظام وكادت أن تتكسر. وصرخ دوبريك بصوت أجش. النجدة. النجدة.

حـاول الإفلات فلم يستطـع. أخفض صوتـه وقال: العفـو.. العفو.

منظـر مرعب.. اصفـرت أوجه أولاد سيبـاستياني الثـلاثـة وارتجف لوبين في مخبئه وكاد قلبـه يتقطع من الأسى وإن كـان يعلم في قرارة نفسه انه كان سيفعـل نفس هذا الشيء المخيف. ولكنه سيعرف الآن سر دوبـريك. وعـاد يفكر في الانسـحـاب في سيارته والذهاب إلى بـاريس بعد أن أصبـح النصر قريبـاً جداً منه.

وعاد المركيز يخاطب دوبريك:

ـ تكلم. تكلم. وينتهي كل شيء.

ـ نعم.. نعم..

ـ قل.

ـ فيما بعد.. غداً.

ـ هذا.. لا.. هل أنت مجنون؟ ماذا تقول؟ غداً. دورة ثـانية يا سيباستياني.

ـ لا. لا. توقف.

ـ تكلم.

ـ حسناً. لقد خبأت الورقة...

ولكن الألم كان أقوى منه. رفع رأسه جاهـداً وتلفظ بكلمات غير مفهومة ونجح مرتين في أن يقول: «ماري.. ماري» ثم انقلب مرهقاً وغاب عن الوعي.

سأل المركيز الحارس سيباستياني قائلًا

ـ هل ترانا زدنا الجرعة؟

ـ ولكن فحصاً سريعاً لدوبريك أكد أن الـرجل مغمى عليـه. وهنا بدا عليـه الإعياء فـانهار بنفســه عند رجـل السرير وراح يمسح العرق المتصبب من جبينه ويتمتم:

ـ يا له من عمل قذر ومضن.

وقال الحارس وقد غلبه الانفعال والتأثر:

ـ ربما كان هذا يكفي اليوم.. يمكننا أن نعاود الكـرة غداً.. وبعد غد.

سكت المركيز لحظات وناوله أحد أولاد سيبـاستياني كـأساً فشربه جرعة واحدة واستطرد قائلاً:

ـ غداً، لا. الآن وفوراً.. قليل من الجهد. وفي الوضع الـذي هو عليه الآن يمكن أن نحصل على كـل شيء. ثم أخذ الحـارس على انفراد وقال له:

ـ هل سمعت؟ ماذا تراه أراد أن يقول بكلمـة «ماري» التي كررها مرتين؟

ـ نعم مرتين. وربما تراه عهد بهذه الوثيقة التي تطالبه بهـا إلى شخص يحمل اسم «ماري».

ـ لا. مستحيل. إنه لا يثق بأحد. وإذا كان فعلاً مـا تقولـه فهذا معناه سقوطنا.

ـ ولكن لماذا يا سيدي المركيز؟

ـ لمـاذا؟ سنعـرف كـل شيء عمـا قـريب. وسـوف أخبـرك بالنتيجة.

وفي هذه الأثناء تنفس دوبريك بعمق وتحرك في سريره.

استعاد المركيز برودة أعصابه ولكنـه لم يرفـع ناظـريه عن

دوبريك أبداً. اقترب منه وقال له:

ـ أرأيت يا دوبريك؟ أنت مجنون إذا قاومت. عندما نهزم.. علينا أن ننفذ شريعة المنتصر.. وبدل أن تتركنا نستمر في تعذيبك بوحشية.. الأفضل لك أن تكون عاقلاً وتعترف...

ثم التفت إلى سيباستياني وقال له:

ـ امدد الحبل. اجعله يشعر بذلك قليلاً. هذا يوقظه..

نفذ سيباستياني ما طلبه منه المركيز.. وعلى الفور تململ دوبريك في سريره. فأمره المركيز:

ـ يكفي. يبدو أن أمام صديقي أفضل الفرص المتاحة.. ويفهم ضرورة الاتفاق. أليس صحيحاً يا دوبريك؟ أتريد أن تنتهي من هذا الوضع؟ كم أنت محق في ذلك!

انحنى الرجلان فوق دوبريك. سيباستياني يمسك بعصا والمركيز يمسك بقنديل ليضيء وجه الرهينة وقال المركيز:

ـ شفتاه ترتعشان. سيتكلم.. خفف قليلاً من وثاقه. لا أريد لصديقنا أن يتألم.. مهلاً.. لا. اضغط أكثر يبدو انه يتردد. دورة جديدة.. قف. أعتقد اننا وصلنا.. آه يا صديقي دوبريك. إذا كنت لا تجيد قول أكثر من هذا.. فنحن نضيع الوقت معك.. ماذا؟ ماذا تقول؟

تلفظ أرسين لوبين بكلمات بذيئة. وتكلم دوبريك. ولكن لوبين لم يسمعه جيداً. ولو كان حبس أنفاسه وأصاخ السمع جيداً لفهم شيئاً من اعترافات النائب. ولكنه تساءل على الفور... ما العمل الآن؟

كان على أهبة تناول مسدسه وتوجيه رصاصة واحدة تقضي فوراً على دوبريك. ولكنه امتنع على أساس انه هو سيخسر

أيضاً ويفقد الأمل بالحصول على اللائحة. وقرر متابعة سير الأحداث ليجني أفضل النتائج. فتحته كانت الاعترافات مستمرة وسمع المركيز يقول لدوبريك:

ـ تكلم. هات بعد مما لديك أوضح كل شيء. الاعتراف أفضل لك وأجدى.

واستمر المركيز يسأل الرهينة ويقول:

ـ حسناً. تماماً. غير معقول؟ أعد قليلاً يا دوبريك.. أوه.. هذا مضحك وغريب.. ولكنه لم يخطر في بال أحد كما تقول؟ ولا حتى برازفيل؟ يا له من أحمق. خفف قليلاً يا سيباستياني.. ألا ترى ان صديقنا يلهث ويكاد أن يختنق؟ مهلاً يا دوبريك.. لا ترهق نفسك.. ماذا كنت تقول يا صديقي العزيز؟

كانت هذه هي النهاية. استمع المركيز إلى همسات دوبريك بعناية ولم يستطع لوبين أن يفهم ولو كلمة واحدة.. بعدها وقف المركيز وصاح فرحاً جذلاً:

ـ هذا هو المطلوب. شكراً يا دوبريك.. وتأكد تماماً بأنني لن أنسى ما فعلته. عندما تحتاج إلى شيء أطرق بابي فوراً.. فهناك دائماً في مطبخي كسرة خبز لك وكوب ماء مقطر.. اعتنِ بالنائب يا سيباستياني وكأنه واحد من أولادك. فك وثاقه أولاً.. لا بد أن يكون الإنسان بدون شفقة كي يقدم على معاملة صديق له بهذه الطريقة الوحشية.

وسأل الحارس:

ـ ماذا لو أعطيناه ما يشرب!

ـ تماماً. أعطه شراباً على الفور.

تناول دوبريك جرعة طويلة من النبيذ وما أن هم بتناول

الجرعة الثانية حتى أخذ المركيز الكأس من يده وقال:

ـ ستتحسن الآن. بعد ساعات تختفي كل علامات التعذيب.
ثم نظر إلى ساعته وأضاف:

ـ ثرثرنا كثيراً يا سيباستياني. فليسهر أولادك على حراسة النائب. وتعالَ أنت وانقلني إلى المحطة حتى لا يفوتني القطار الأخير.

ـ وستتركه هكذا يا سعادة المركيز حراً؟

ـ ولِمَ لا؟ أتعتقد اننا سنحتفظ به هنا حتى مماته؟ لا. كن عاقلاً يا دوبريك. سأذهب بعد غد إلى منزلك.. وإذا كانت الوثيقة فعلاً في المكان الذي ذكرته.. سأبرق إلى هنا على الفور ويطلق سراحك.

عاد وانحنى فوق دوبريك وقال:

ـ لا أريد حماقات. إياك أن تقدم على واحدة منها. قد أخسر أنا يوماً آخر.. ولكن ستخسر أنت الأيام الباقية من حياتك. لا. لا. المخبأ جيد جداً. ولا أعتقد انهم يخترعون هذا من أجل التسلية. غداً ستصلك البرقية يا سيباستياني.

ـ وإذا لم يدعوك تدخل المنزل يا سعادة المركيز؟

ـ لماذا؟ ما المانع؟

ـ المنزل في ساحة لامارتين يشغله بعض رجال برازفيل

ـ لا تقلق. سأدخل وإذا لم يفتحوا لي الباب.. فلماذا وجدت النوافذ؟ وإذا لم تفتح هذه الأخيرة سأعرف كيف أتدبر الأمر مع أحد رجال برازفيل. إنها قضية مال. وأشكر الله أن ليس هذا الذي ينقصني من الآن فصاعداً. ليلة سعيدة يا دوبريك.

خرج يرافقه سيباستياني وانغلق الباب الضخم من خلفهما.

كانت خطة لوبين جاهزة وهي تقضي بأن ينزل الجدار المنحدر وينطلق على الفور مع أصدقائه إلى محطة دومال وهناك يهاجمون المركيز وسيباستياني.. ويلقون القبض عليهما.. وعندما يصبحان سجينين لا بد لأحدهما أن يتكلم. فقد برهن دالبوفكس كيف يجب التعامل معه.. ومن أجل سلامة ابنها تعرف كلاريس كيف تتصرف دون أن تهن.

سحب الحبل المزود به وبحث تلمساً علّه يعثر على نتوء في الصخر يمكنه أن يربطه به. وعندما وجد ما يبحث عنه وبدلاً من أن يتصرف بسرعة نظراً لخطورة الوضع وضغطه إذا به يتوقف ويغرق في تفكير عميق. لقد وجد في اللحظة الأخيرة ان مشروعه لا يسره على الإطلاق.

وقال في نفسه: غريب ما سأقوم به وغير منطقي. ماذا يبرهن لي على أن دالبوفكس وسيباستياني لن يفلتا من يدي؟ ماذا يؤكد لي على أنهما إذا وقعا في يدي سيعترفان بما لديهما من أسرار ومعلومات؟ لا. سأبقى.. والأفضل لي أن أحاول. انهما ليسا الشخصين اللذين يجب أن أهاجمهما. المهاجمة الصحيحة يجب أن تكون دوبريك نفسه. انه منهك ولن يقاوم. إذا أفشى سره إلى المركيز فليس هناك ما يمنعه من أن يفشيه لي أيضاً، وخاصة عندما أستخدم أنا وكلاريس نفس الأسلوب الذي استخدمه المركيز. اتفقنا. لنخطف دوبريك.

وقال يخاطب نفسه أيضاً: وما الخطر الذي يعترضني في ذلك؟ إذا فشلنا سأعود أنا وكلاريس إلى باريس، وبالتنسيق مع برازفيل نقيم في منزلنا في ساحة لامارتين عملية مراقبة دقيقة كي لا يستفيد دالبوفكس من الاعترافات التي أدلى بها

دوبريك. المهم هو إخطار برازفيل بالأمر. وأعرف كيف أخطره.

دقت الساعة مشيرة إلى منتصف الليل في كنيسة قرية مجاورة. ووجد لوبين ان أمامه ما بين ست إلى سبع ساعات لتنفيذ خطته الجديدة. فبدأها على الفور.

ابتعد عن كوة الدهليز وتمسك بعدد من الشجيرات النابتة في الصخر. تناول سكينه واقتطع منها مجموعة جعلها في مقاس واحد وأحكم ربطها ببعض ووصلها بحبله ليصبح لديه سلماً بطول ستة أمتار على الأقل. وعندما عاد إلى مركزه فوق الكوة ونظر إلى غرفة التعذيب في الأسفل لم يجد سوى واحد من الأولاد الثلاثة إلى جانب سرير دوبريك. كان يدخن غليونه إلى جانب اللمبة ودوبريك يغط في نوم عميق.

وتساءل لوبين: هل سيمضي هذا الولد ليلته هناك؟ في هذه الحالة يجب التريث.

إن فكرة حصول دالبوفكس على أسرار دوبريك كانت تؤلم لوبين. ومن المقابلة التي حضرها خلص إلى نتيجة واحدة وهي أن المركيز يعمل لحسابه الخاص. وانه لا يريد فقط من خلال سرقته للقائمة أن يخضع لعمل دوبريك، بل الاستيلاء على قوة هذا الأخير وإعادة بناء ثروته وبنفس الوسائل التي استخدمها دوبريك شخصياً.

كانت هذه عندئذ بداية معركة جديدة سيشنها لوبين ضد عدو جديد. ولم يكن سير الأحداث السريع ليسمح بالتفكير في افتراض كهذا. كان يجب قطع الطريق على دالبوفكس مهما كان الثمن وذلك عن طريق إخطار برازفيل.

ولكن لوبين بقي متسمراً في مكانه يراوده الأمل بوقوع حادث ما يتيح له فرصة التصرف.

أشارت دقات الساعة إلى الواحدة بعد منتصف الليل ولوبين في موقعه ينتظـر. وهبت من الوادي ريـاح خفيفة بـاردة خرقت عظامه. ثم سمع جواداً يخب في البعيد، فقال في نفسـه: ها هـو سيباستياني وقد عاد من المحطة

كان الفتى الذي يراقب دوبريـك قد أنهى علبـة التبغ وطلب إلى أخويه إذا كان لديهما ما يحشو به غليونه الأخير. وبناءً على جوابهما ترك الغرفة وذهب إلى الجناح.

اعترت الدهشـة لوبـين.. فالبـاب لم يغلق.. وإذا بدوبـريك، الذي كان يعتقد انه ينام نوماً عميقاً، يجلس فوق فراشـه يضع رجله فوق الأرض ثم الرجل الأخرى ويقف مترنحـاً في البدايـة ثم راح يستجمع قواه.

ابتسم لوبين وقـال في نفسه: رائـع. لا يزال الـرجل يمتلـك بعض القـوة التي ستساعـده عـلى خطف نفسـه بنفسـه. هـل سأتمكن من إقناعـه بأن يتبعني؟ ألن يعتقـد بأن هـذه النجدة العجائبية التي هبطت عليه من السماء هي في الواقع فخ جديد نصبه له المركيز؟

ولكن فجأة تذكـر لوبـين تلك الـرسالـة التي كتبتها إحـدى ابنتي عم دوبريك العجوزين وهي رسالة توصيـة وان الشقيقة الكبرى وقعتها باسم أوفرازي روسلو.

كانت الرسالة في جيبه. أخذهـا وأصاخ السمـع. ليس هناك من ضجة سوى وقع أقدام دوبريك فوق البلاط. وجد لوبين ان الفرصة مواتية فمد ذراعه بين قضبان الكـوة الحديـدية ورمى بالرسالة.

بدا دوبريـك وكأن صـاعقة تنقض عليـه. تطايـر المغلف في الغرفة ثم استقر على بعد ثلاث خطوات منه. من أين جاء هذا؟

تطلـع نحو النـافذة وحـاول اختراق الظـلام الذي يحجب كـل الجزء الأعلى من الغرفة.. ثم نظر إلى المغلف دون أن يتجرأ بعد على لمسه وكأنه يحتوى على مصيدة ما. وفجـأة، وبعد آن نظـر باتجاه الباب انحنى بسرعة والتقط الظرف وفضه.

وما أن رأى التوقيع حتى تنفس بارتياح وراح يقرأ الرسالـة بصوت خافت: «يجب أن تثق تماماً بحـامل هـذه الكلمة. وهـو الذي استطاع بفضل المال الـذي أعطيناه إيـاه أن يكتشف سر المركيز ووضـع خطة الهـرب. كل شيء جـاهز للفـرار. أوفرازي روسلو..».

أعاد دوبريك قراءة الرسالة مثنى وثلاث ورفع رأسه وتمتم: «أوفرازي.. أوفرازي».

وهمس لوبين في ذاته. يلزمني سـاعتان أو ثـلاثة لنشر هـذه القضبان. هل سيعود سيباستياني وأولاده؟

وأجاب دوبريك بصوت هادىء:

ـ نعم.. بدون شك. ولكنهم سيتركونني.

ـ ولكنهم ينامون في الغرفة المتاخمة؟

ـ نعم.

ـ ألن يسمعوا؟

ـ لا. الباب ضخم جداً.

ـ حسناً. وفي هذه الحالة لن يطول بنا الأمـر. لدي سلم من الحبال. هل يمكنك أن تصعد وحدك دون مساعدتي؟

ـ أعتقـد. سـأجـرب. لقـد حطمـوا قبضتيّ. يـا لهم من وحوش.. بالكاد أستطيع تحريك يديَّ.. وقوتي تكـاد أن تنهار..

ومع ذلك سأجرب..

توقف عن الكلام وأصاخ السمع ثم وضع اصبعه فوق فمه وهمس: هس.

عندما دخل سيباستياني وأولاده كان دوبريك قد أخفى الرسالة على عجل وعاد فتمدد فوق سريره وتظاهر بالاستيقاظ مرتبكاً. أحضر له الحارس زجاجة من النبيذ وبعض الطعام وقال:

– كل شيء على ما يرام يا سعادة النائب؟ أعتقد انهم ضغطوا أكثر من اللازم هذه المرة. مثل هذه الأشياء كانت تحدث كثيراً أيام الثورة الكبرى. اختراع رائع.. نظيف.. دون دم ينزف... بعد عشرين دقيقة فقط ستنطق بكلمة السر.

وانفجر سيباستياني ضاحكاً:

ولكن الحارس تابع مخاطباً دوبريك:

– على فكرة يا سعادة النائب. أحر التهاني. المخبأ ممتاز. إن ما كان يخدعنا، المركيز وأنا، هو اسم ماري الذي لفظته في البداية. لم تكذب.. ولكن كلمة السر لا تزال عالقة.. يجب أن ننتهي. لقد وجدنا ما يسلي فوق مكتبك..

نهض الحارس وراح يذرع أرض الغرفة ويفرك يديه.. ثم عاد والتفت إلى دوبريك واستطرد قائلاً:

– سعادة المركيز مسرور جداً.. وهذا ما سيجعله يعود مساء غد ليطلق سراحك بنفسه. نعم لقد فكر ووجد ان هناك بعض الإجراءات.. فتقوم بتوقيع شيكات وتدفع للمركيز أمواله وأتعابه.. كل هذا يعتبر بسيطاً بالنسبة لك وليس بالكثير إذا قيس بضخامة ثروتك. انتهت القيود منذ الآن وستعامل كملك.

وتأكيداً لذلك.. إني مخول أن أقدم لـك الآن زجاجـة من النبيذ المعتق وإناءً من الكونياك الفخم.

حمل سيباستيـاني اللمبة وألقى نظـرة فاحصــة أخيرة عـلى الغرفة وقال لأولاده:

– دعوه ينم. واذهبوا أنتم الثلاثة أيضاً وارتاحوا. إياكم أن تغفوا. لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث.

وغادروا الغرفة.

تريث لوبين وقال بصوت خافت:

– هل أستطيع أن أبدأ؟

– نعم. ولكن انتبه. لا أستبعد أن يقوموا بجـولة تفتيشيــة بعد ساعة أو ساعتين.

– وبدأ لوبين العمل فـوراً. كان يملـك منشاراً قـوياً وكـانت القضبان قد تـآكلت مع مـرور الزمن من جـراء المطر والهـواء والصدأ. توقف مرتين عن العمل: مرة عنـدما سمـع صوصـأة جرذ ومرة ثانية عندما فاجأه طائر حط فوق نتوء صخري قريباً منه. كانت عيناه مصوبتين على دوبريك القابع عند باب غـرفة التعذيب ليخطره بأدنى تحرك يسمعه.

انتهى من النشر وأحدث متسعاً بين القضبان يسمح بانزلاق رجل من بينها.. ثم همس منادياً دوبريك.

– انتهينا. هل أنت مستعد؟

– نعم. هـا أنا. دعني أستمـع ثانيـة واحدة. حسنـاً. إنهم نيام. أعطني السلّم.

– هل يجب أن أنزل؟

ـ لا. إني متعب قليلاً.. ولكن سأتدبر الأمر.

وصل دوبريك إلى مدخل الممر وبدأ يستعد ليتبع منقذه. أزعجه الهواء القوي. وليتحمل المشقة ويستعيد قواه جرع نصف زجاجة النبيذ دفعة واحدة وربط نفسه بطرف السلم فيما قام لوبين بربط الطرف الآخر بقضيب حديد متين استعداداً لسحبه كطرد بريدي. ولكن دوبريك انهار ووقع فوق البلاط مدة نصف ساعة على الأقل كاد صبر لوبين أن ينفد معها وعندما استيقظ وجد انه نشيط وقادر على المغامرة، فهمس منادياً لوبين:

ـ إني في وضع جيد الآن. هل المسألة طويلة؟

ـ نوعاً ما. اننا على ارتفاع خمسين متراً

ـ كيف لم يتوقع داليوفكس أن عملية هروب يمكن أن تتم من هنا؟

ـ الصخرة مرتفعة والانحدار قوي جداً.

ـ واستطعت أنت أن...

ـ بنتا عمك أصرتا جداً.. يجب أن نحيا. أليس كذلك؟ وهما كريمتان إلى أبعد حدود الكرم.

ـ يا لهما من فتاتين شجاعتين.. أين هما؟

ـ تحت. في القارب.

ـ هناك نهر عند أسفل الصخرة؟

ـ نعم. ولكنه خطر.. ولن نتحدث عنه.

ـ كلمة واحدة فقط. كم بقيت حيث أنت.. وقبل أن ترمي لي بالرسالة؟

ـ لا. لا. ربع ساعة فقط. سأشرح لك فيما بعد. علينا أن نسرع الآن.

بعد أربعين دقيقة تقريباً كان لوبين ودوبريك يقفان فوق فسحة ترابية في أعلى الصخرة وينظران إلى النهر ويتأملان المنحدر الصعب وكيفية الهبوط بسلام.

سمع لوبين أصواتاً بعيدة فقال:

ـ اصمت.

ـ ماذا؟

ـ إني أسمع ضجة فوق.

أصاخا السمع. وهنا وردت في ذهن لوبين حادثة السير دي تانكارفيل والحارس الذي رماه بسهم فقتله. ارتجف خوفاً وقال في نفسه: لا يا للتعاسة. لا يمكن أن ينالوا منا هنا.

ـ من ينالنا؟

ـ لا شيء. فكرة سخيفة راودتني.

تلمس أطراف السلم وعاد يخاطب دوبريك قائلاً:

ـ خذ. هذا هو السلم المركز في قاع النهر. أحد أصدقائي يتولى حراسته.. وكذلك ابنتا أخيك.

ثم صفر لوبين وقال:

ـ ها أنا. أمسكوا جيداً بالسلم.

وقال لدوبريك: سأنزل.

واعترض الأخير بقوله:

ـ من الأفضل أن أنزل أنا قبلك.

ـ لماذا؟

ـ إني متعب. اربط حبلك بوسطي وأمسك بي.. وإلا كنت عرضة لـ ...

ـ أنت على حق. اقترب.

اقترب دوبريك وركع فوق الصخرة. ربطه لوبين فتقوس على نفسه وأمسك جيداً بالحبل كي لا يترنح. وقال لوبين هيا. انزل. ولكنه شعر في هذه اللحظة بألم في كتفه. فقد طعنه دوبريك بسكين حاد في أعلى رقبته اليمين.

وتأوه لوبين مردداً: «يا للتعيس الشقي».

وفي الظل شاهد دوبريك وهو يحاول التخلص من الحبل المشدود على وسطه وسمعه يتمتم:

ـ إنك لحيوان كبير. تأتيني برسالة من ابنتي أخي روسلو حيث تعرفت فوراً على خط الصغيرة اديليدي وأصرت الكبرى على التوقيع دائماً تحت اسم أوفرازي روسلو.. فكرت قليلاً: «ألست أنت السيد أرسين لوبين حامي كلاريس ومنقذ جيلبير؟ مسكين يا لوبين. أعتقد ان موضوعك صعب جداً وسيء للغاية. إني لا أضرب دائماً.. ولكن عندما أضرب. تكون ضربتي موجعة.

ثم انحنى فوق الجريح وراح يفتش في جيوبه.. تركه وعاد يقول:

ـ أعطني مسدسك. أصدقاؤك سيفهمون على الفور بأنني لست معلمهم وسيحاولون احتجازي.. وبما أن قواي قد خارت.. ان رصاصة واحدة أو رصاصتين.. وأقول لك وداعاً يا لوبين.. سنلتقي في العالم الآخر.. احجز لي شقة مجهزة بكافة

وسائل الراحة الحديثة.. وداعاً يا لوبين.. ومع جزيل الشكر والاحترام.. فعلاً.. لولاك لما عرفت ماذا كان سيحل بي.. ويسرني جداً أن ألتقي ذلك الوحش دالبوفكس ذات يوم أرجو أن يكون قريباً جداً.

أنهى دوبريك استعداداته وصفر من جديد فردوا عليه من القارب. فقال: ها أنا قادم.

مد لوبين يديه بصعوبة بالغة محاولاً إيقافه.. فلم يجد سوى الفراغ.. حاول أن يصرخ ويخطر رفاقه في القارب ولكن صوته خانه واختنق في حنجرته.

أحس لوبين انه يختنق وأن صدغيه سينفجران. وفجأة سمع أصواتاً من أسفل تستغيث وتلاها انفجار.. ثم آخر.. وصراخ نسوة وعويل وأنين.. ثم تلا ذلك بعد قليل انفجاران قويان.

فكّر لوبين بكلاريس إذا ما كانت أصيبت بجراح وماتت وبدوبريك الذي هرب منتصراً وبدالبوفكس والسدادة البلورية التي سيستولي عليها واحد من الخصمين دون أن يعترض أحد. وجالت في خياله فجأة صورة السير دي تانكارفيل وهو يسقط مع حبيبته، فتمتم عدة مرات: كلاريس.. كلاريس.. جيلبير.

وخلد إلى صمت عميق. اجتاحه سلام لا حدود له.. واعتراه شعور بأن جسده المنهك لم يعد قادراً على التحمل ويندفع باتجاه الصخرة، نحو الهوة.

■ ٩ ■

في الظلمات

كان لوبين ممدداً فوق سرير في إحدى غرف فندق في اميان.. وعندما بدأ يعود إلى وعيه وجد كلاريس إلى جانبه برفقه لوباهو. فأغمض عينيه وحاول أن ينام.

كانت كلاريس تتحدث إلى لوباهو ولوبين يستمع مغمض العينين. ومن خلال حديثهما فهم انهما كان يتخوفان على صحته ولكن الخطر زال ولم يعد هناك من داع للتخوف. ومن خلال المحادثة عرف تماماً ما حدث أثناء تلك الليلة المأساوية في مورتبيار وهبوط دوبريك ودهشة رفاقه الذين فشلوا في التعرف على معلمهم، ثم الصراع القصير وهجوم كلاريس على دوبريك وإصابتها برصاصة في كتفها.. وكيف قفز دوبريك إلى الشاطيء وإطلاق غرونيار الرصاص واللحاق به للقبض عليه، وأخيراً تسلق لوباهو السلم ليجد معلمه ممدداً أرضاً ومغمياً عليه.

ويشرح لوباهو مغامرته فيقول:

ـ لا زلت أتساءل حتى الآن كيف لم يتدحرج. كان هناك فراغ كبير في ذلك المكان.. الفراغ نفسه كان يحتاج لرجل بكامل قواه الجسدية كي ينجو منه إذا سقط فيه. جئت فعلاً في الوقت المناسب.

كان لوبين يستمع بدون أمل فاعتراه اليأس والخوف.. استجمع قواه علـه يفهم. سمع فجأة جملة واحدة لفظتها كلاريس باكية وتحدثت فيها عن الثمانية عشر يوماً التي مرت واعتبرتها أياماً ضائعة من أجل العفو عن جيلبير.

ارتعب لوبين عند سماعه الرقم. ظن ان كل شيء انتهى وانه لن يشفى ليتابع المعركة وان فوشري وجيلبير ميتان لا محالة.. توقف دماغه عن البحث والتفكير.. انها الحمى والهذيان.

رغم المعالجة والعناية الفائقة التي أولتها كلاريس ولوباهو للوبين وتماثله البطيء للشفاء إلا أنه كان مصمماً على استمرار المعركة مع دوبريك. كان يفكر ساعات طويلة ويردد: أريد أن أشفى.. أريد أن أشفى.

لم يتحرك من سريره طيلة عدة أيام كي لا يفسد ضماده أو يثير أعصابه. حاول ألا يفكر بدوبريك.. ولكن صورة هذا الخصم القوي كانت تطارده باستمرار.

وذات صباح استيقظ أرسين لوبين وقد اندمل جرحه وبدت درجة حرارته شبه طبيعية وأكد له طبيب من أصدقائه كان يتردد على باريس يومياً ان بإمكانه مغادرة الفراش. ومنذ ذلك اليوم، وفي غياب شريكيه والسيدة مرجي الذي ذهبوا يبحثون عن معلومات، أصبح باستطاعة لوبين الاقتراب من النافذة. وبدأ النشاط يدب فيه تدريجياً واتخذت أفكاره مجرى تسلسلها الطبيعي فبات يرى ما يدور حوله بصورة أفضل وأشمل.

وفي المساء تلقى برقية من كلاريس تخبره فيها بأن الوضع سيء وهي مضطرة للبقاء في باريس مع غرونيار ولوباهو. أقلقته البرقية وجعلته يمضي ليلة مرهقة.. وتساءل ما هي الأنباء التي

جعلت كلاريس تبرق له؟

ولكنها وصلت في اليوم التالي إلى غرفته، شاحبة، دامعة، فانهارت أرضاً وقالت متلعثمة:

ـ محكمة الاستئناف رفضت إعادة النظر في الحكم.

سيطر على نفسه وقال بصوت مندهش:

ـ هل كنت تعولين عليها؟

ـ لا. لا. ولكن الأمل مع ذلك مسموح.

ـ رفضت أمس؟

ـ منذ ثمانية أيام. ولكن لوباهو أخفى الأمر عني. ولم أجرؤ على قراءة الصحف.

وقال لوبين:

ـ يبقى العفو..

ـ العفو؟ أتعتقد أنهم سيعفون عن شريكي لوبين؟

وعاد لوبين يقول:

ـ ربما لن يعفوا عن فوشري.. ولكنهم سيرأفون بجيلبير.. نظراً لشبابه.

ـ لن يرأفوا به.

ـ ومن قال لك هذا؟

ـ رأيت محاميه.

ـ رأيت محاميه! وقلت له..

ـ قلت له اني أم جيلبير وسألته انه في حال الإعلان عن

هويته ألا يؤثر هذا على النهاية أو تأخير عملية إعدامه على الأقل.

ـ أفعلت هذا.. وجئت ترددينه الآن أمامي؟

ـ إن حياة جيلبير هي في الدرجة الأولى. ماذا يهمني اسمي.. واسم زوجي.

ـ واسم صغيرك جاك أيضاً؟ هل يحق لك خسارته وأن تجعلي منه شقيق محكوم بالإعدام؟

أخفضت رأسها فيما تابع لوبين قائلاً.

ـ بماذا أجابك المحامي؟

ـ أخبرني ان عملاً كهذا لا يمكن أن يفيد جيلبير بشيء.. ورغم احتجاجاته فإن لجنة العفو ستقرر في النهاية التوصية بإعدامه.

ـ هذا عن اللجنة. ولكن ماذا عن رئيس الجمهورية؟

ـ إن الرئيس يتصرف عادة على ضوء قرار اللجنة.

ـ ولكنه لن يفعل ذلك هذه المرة.

ـ ولماذا؟

ـ لأنه سيتعرض لضغوط.

ـ كيف؟

ـ بالتسليم المشروط للائحة «السبعة والعشرون».

ـ أهي معك؟

ـ لا.

ـ وكيف إذاً؟

ـ سأحصل عليها.

هزت كتفيها بهدوء وبدا أن ثقتها في لوبين بدأت تخف.. ثم قالت:

ـ إذا لم يسرق دالبوفكس اللائحة منه.. فدوبريك هو الرجل الوحيد القادر على التصرف.

وأجابها لوبين:

ـ لقد أقسمت لي، وأنا أذكرك الآن بذلك القسم. اتفقنا على أن أتولى أنا قيادة المعركة ضد دوبريك دون أن يكون أي احتمال لقيام اتفاق بينك وبينه.

وردت قائلة: لا أعرف حقيقة أين هو، ولو عرفت لكنت أيضاً على علم بالأمر.

لم يقنعه جوابها. ولكنه لم يلح وقرر أن يراقب تصرفاتها في الوقت المناسب.. وعلى اعتبار أنه لم يحصل بعد على كافة التفاصيل فسألها:

ـ لا أحد يعرف إذاً ماذا حل بدوبريك؟

ـ لا أحد. من المؤكد أن غرونيار أصابه برصاصة.. فقد عثرنا في يوم هروبه على منديل ملطخ بالدماء. ويقال أن بعضهم شاهد رجلاً في محطة دومال كان يبدو مرهقاً ويمشي بصعوبة. اشترى تذكرة إلى باريس وصعد إلى القطار. وهذا كل ما نعرفه.

ـ لا بد أنه أصيب بجرح بليغ ويعالج في مخبأ آمن. وربما قرر الاختفاء لمدة أسابيع بعيداً عن أعين الشرطة ودالبوفكس وعنك وعني وعن جميع أعدائه..

توقف قليلاً ثم أضاف:

ـ ماذا حدث في مورتبيار بعد الهروب؟ ألم يقولوا شيئاً في البلد؟

ـ لا. تمّ سحب الحبل عند الفجر. وهذا يدل على أن سيباستياني وأولاده اكتشفوا هروب دوبريك. وبقي سيباستياني غائباً طوال ذلك اليوم.

ـ طبعاً. وذهب وأخبر المركيز بما جرى. ولكن أين هو هذا الأخير؟

ـ في منزله. واستناداً إلى تحريات غرونيار ليس هناك ما يدعو إلى الشك.

ـ هل تأكدوا أنه لم يدخل إلى المنزل في ساحة لامارتين؟

ـ تأكيد تام.

ـ وكذلك عن دوبريك؟

ـ وكذلك عن دوبريك...

ـ هل رأيت برازفيل؟

ـ برازفيل في إجازة. إنه مسافر. ولكن المفتش الرئيسي بلانشون الذي كلفه برازفيل بهذه المهمة وعملاءه الذين يتولون حراسة المنزل ليلاً نهاراً أكدوا أنهم لم يشاهدوا أحداً يدخل.

ـ مبدئياً. أعتقد أن السدادة البلورية لا تزال في مكتب دوبريك. أليس كذلك؟

ـ إذا كانت فيه قبل اختفائه.. فبالتأكيد أنها لا تزال هناك حتى الآن.

ـ وفوق مكتبه.

ـ فوق مكتبه؟ لماذا تقول هذا؟

ـ لأني أعرف. ولم أنسَ بعد عبارة سيباستياني.

ـ هل تعرف المكان الذي أخفيت فيه السدادة؟

ـ لا.

بدأ لوبين يتعب من الكلام. وبما أنه لم يرد ارتكاب أية حماقة في الوقت الراهن.. قال لكلاريس:

ـ اسمعي. أطلب منك يومين أو ثلاثة. اليوم هو الاثنين ٤ آذار (مارس). وبعد غد الأربعاء... أو الخميس على أبعد تقدير.. سأكون تعافيت تماماً. وكوني على ثقة بأننا سننجح.

ـ وماذا أفعل حتى ذلك الحين؟

ـ عودي إلى باريس. أسكني مع غرونيار ولوباهو في الفندق الواقع في جادة فرانكلين روزفلت القريبة من التريكاديرو وراقبوا جيداً منزل دوبريك. حاولوا دائماً تضليل العملاء والخدم.

ـ وإذا عاد دوبريك؟

ـ هذا من حسن حظنا. سنلقي القبض عليه.

ـ وإذا مر في الفندق مرور الكرام؟ وفي هذه الحالة سيقوم غرونيار ولوباهو بتتبع آثاره.

ـ وإذا فقدا الأثر؟

لم يجب لوبين. كان الضيق بادياً عليه ويأسف لكونه بعيداً، رغماً عنه، عن ساحة المعركة.

التف ناحية كلاريس وقال:

ـ اذهبي الآن. أتوسل إليك.

كان بينهما انزعاج بدأ يتنامى مع اقتراب اليوم المرعب. كان إحساسها الطاغي أنها هي التي دفعت ولدها نحو مغامرة انجيان، ولكنها لم تنسَ أن العدالة تلاحق جيلبير بشدة ليس كمجرم بقدر ما تلاحقه كشريك للوبين. وتساءلت إلى أي نتيجة وصل هذا الأخير رغم الجهود التي بذلها والتقدم الملموس في طاقته. وفي ماذا أفاد تدخله قضية جيلبير؟ نهضت بعد قليل فغادرت الغرفة وتركته وحيداً.

وفي اليوم التالي شعر لوبين بتوعك ونصحه طبيبه بملازمة الفراش حتى نهاية الأسبوع. وسأل:

ـ ماذا يحدث إذا لم أفعل؟

ـ ارتفاع في درجة الحرارة.

ـ ليس أكثر؟

ـ لا. الجرح التأم كلياً تقريباً.

ـ إذاً ليحدث ما يحدث. سأصعد معك في سيارتك. وعند الظهر نبلغ باريس.

إن ما كان يحث لوبين على الذهاب فوراً هو أولاً الرسالة التي تلقاها من كلاريس ذكرت فيها. «لقد عثرت على أثر دوبريك» وثانياً البرقية التي قرأها في صحف اميان تتحدث عن القاء القبض على المركيز دالبوفكس المتهم في قضية القنال. وهذا يعني بالنسبة للوبين أن دوبريك نجح في انتقامه. ولكن إذا كان دوبريك استطاع أن ينتقم فهذا يعني أيضاً ـ ودائماً بالنسبة للوبين ـ أن المركيز لم يستطع توقع هذا الانتقام ليأخذ الوثيقة الموجودة على طاولة المكتب.. وبالتالي فإن العملاء الذين نصبهم برازفيل مع المفتش بلانشون قاموا بواجبهم على أكمل

وجه في المنزل الكائن في ساحة لامارتين. وبالتالي فالسدادة البلورية لا تزال موجودة هناك.

كانت السدادة البلورية هناك كما توقع لوبين، وهذا يدل على أن دوبريك لم يجرؤ على العودة إلى منزله أو أنه مصاب بجراح كبيرة وأن وضعه يمنعه من ذلك أو ربما شك في مخبأ الزجاجة البلورية ولم يكلف نفسه عناء الانتقال.

وعلى كل حال، لم يكن هناك شك حول السلوك الذي يجب اتباعه: كان يجب التصرف.. وبسرعة. يجب استباق دوبريك والاستيلاء على السدادة البلورية.

وما أن عبرت السيارة غابة بولونيا واقتربت من ساحة لامارتين نزل منها لوبين وودع صديقه الدكتور. وانضم إليه غرونيار ولوباهو اللذان كانا على موعد معه. وسألهما:

ـ أين السيدة مرجي؟

ـ لم تعد منذ أمس ونعرف أنها شاهدت دوبريك يخرج من منزل قريبته ويصعد إلى السيارة. لديها الرقم ويجب أن تطلعنا على التطورات.

ـ ومنذ ذلك الحين؟

ـ لا شيء.

ـ ليس هناك من أخبار جديدة؟

ـ بلى. صحيفة باري ـ ميدي نشرت أن دالبوفكس حاول الانتحار بتفجير زجاجة جرحت شرايين معصمه. ويبدو أنه ترك وراءه رسالة طويلة يعترف فيها بخطئه ولكنه يتهم في نفس الوقت دوبريك بموته ويعرض الدور الذي لعبه هذا الأخير في قضية القنال.

ـ هذا كل شيء؟

ـ لا. وأعلنت الصحيفة نفسها أن لجنة العفو رفضت الطلب المقدم من جيلبير وفوشري ومن المحتمل أن يلتقي رئيس الجمهورية يوم الجمعة محامييهما.

ارتجف لوبين وقال في نفسه:

ـ الأمور تسير على عجل، ويبدو أن دوبريك أعطى، منذ اليوم الأول، دفعاً جديداً للماكينة القضائية. أسبوع آخر ويهوي الاثنان. مسكين يا جيلبير، إذا لم يستطع محاميك بعد غد تضمين العرض غير المشروط للائحة «السبعة والعشرون» والذي سيقدم إلى رئيس الجمهورية، فهذا معناه أن فرصتك بالخلاص تبددت نهائياً.

ـ هيا بنا يا معلم. هل أنت الذي بدأ يتراجع ويفقد الشجاعة؟

ـ أنا! يا للحماقة. بعد ساعة تكون السدادة البلورية في يدي وبعد ساعتين سأقابل محامي جيلبير.. وينتهي الكابوس.

ـ رائع يا معلم. بدأنا نجدك. هل ننتظرك هنا؟

ـ لا. عودا إلى الفندق. سألحق بكما.

افترقوا وسار لوبين نحو الفندق وقرع جرس المدخل. فتح له شرطي عرفه على الفور وسأله:

ـ السيد نيقول. أليس كذلك؟

ـ نعم. أنا هو. هل المفتش الأول بلانشون موجود؟

ـ نعم، موجود

ـ أيمكن أن أتحدث إليه؟

دخل إلى مكتب المفتش بلانشون الذي استقبله بحفاوة بالغة وقال له:

ـ تلقيت أوامر يا سيد نيقول بأن أضع نفسي تحت تصرفك. وإني لمسرور جداً أن أراك اليوم.

ـ ولماذا يا سعادة المفتش؟

ـ لأنه حدثت أشياء جديدة.

ـ خطيرة؟

ـ نعم، خطيرة جداً.

ـ هات. وتكلم بسرعة.

ـ لقد عاد دوبريك.

ـ دوبريك عاد. هو هنا؟ أين هو؟

ـ لقد ذهب.

ـ ودخل إلى هذا المكتب؟

ـ نعم.

ـ متى؟

ـ هذا الصباح.

ـ لم تحاول منعه؟

ـ وبأي حق؟

ـ وتركته وحيداً؟

ـ بناءً على أمر عال.. نعم تركناه يذهب وحده.

شعر لوبين بارتخاء وكاد أن يتهاوى وقد امتقع وجهه وعلاه

الشحوب فقد عاد دوبريك يبحث عن السدادة البلورية.

التزم الصمت فترة وعاد يسائل نفسه: عاد يبحث عنها.. خاف أن يجده أحد.. وكان لا بد لدوبريك أن يدافع عن نفسه. القضية صعبة بالنسبة له. فبعد أشهر طويلة من السرية والتكتم سيعرف الجمهور أن الشخص الذي خطط لمأساة «السبعة والعشرون» والذي يقتل ولا يخجل هو النائب دوبريك. ماذا يحل بالسدادة إذا لم يحرسها مالكها؟ ولهذا قرر استعادتها.

وسأل بلانشون هامساً.

ـ هل بقي طويلاً؟

ـ عشرين ثانية تقريباً.

ـ كيف عشرين ثانية.. ليس أكثر؟

ـ ليس أكثر.

ـ كم كانت الساعة؟

ـ العاشرة.

ـ هل كان على علم بانتحار دالبوفكس؟

ـ أجل. شاهدت في جيبه نسخة من الصحيفة التي نشرت الخبر في طبعة خاصة.

ـ هذا هو.. هذا هو.

وعاد يسأل المفتش الأول:

ـ ألم يعطك برازفيل تعليمات خاصة تتعلق بعودة دوبريك المحتملة؟

ـ لا. وأثناء غياب برازفيل. اتصلت بمقر الشرطة وانتظرت. ان اختفاء دوبريك، كما تعلم، أثار ضجة كبيرة ووجودنا هنا مقبول في نظر الجمهور طالما أن الاختفاء قائم. وبما أن دوبريك عاد ولدينا الأدلة على أنه لم يختطف ولم يمت، هل يمكننا البقاء في هذا المنزل؟

ـ ما الأهمية في ذلك. وما يهم إذا كان هذا المنزل محروساً أو لا؟ دوبريك عاد. وبعودته اختفت السدادة البلورية.

وما كاد أن ينتهي من هذه الجملة حتى جال في ذهنه سؤال وهو: إذا كانت السدادة البلورية اختفت أليس هناك ما يؤكد هذا الاختفاء مادياً؟ إن سرقة هذا الشيء الذي كان مخبأ في شيء آخر، هل تركت أثراً ما أو فراغاً على الأقل؟

الملاحظة كانت سهلة. كان يكفي ببساطة فحص الطاولة لأن لوبين يدرك من خلال أقوال سيباستياني التي يعتقد أنها كانت مخبأ السدادة. ولا يمكن أن يكون المخبأ معقداً طالما أن دوبريك لم يبق في مكتبه سوى عشرين ثانية.. الوقت الكافي لدخوله وخروجه.

ألقى لوبين نظرة فاحصة على الطاولة وكل ما فوقها من أشياء.. فوجد أن واحداً منها فقد.. هزه الفرح وقال في نفسه: كل شيء مطابق. حتى الكلمة الأولى التي انتزعت من دوبريك أثناء عملية تعذيبه في مورتبيار. اللغز انكشف. وهذه المرة لا مجال للتردد. لقد بلغنا الهدف. ودون أن يجيب على أسئلة المفتش، بدأ يفكر ببساطة المخبأ وتذكر هنا قصة ادغار آلان بو الرائعة عندما كان الناس يبحثون بلهفة عن الرسالة المسروقة وهي كانت ماثلة أمامهم.

خرج لوبين منفعلاً من جراء الاكتشاف الذي توصل إليه،

يردد في نفسه: مكتوب في هذه المغامرة أن أصدم حتى النهاية بأسوأ خيبات الأمل. كل ما بنيته ينهار لتوه. وكل تحقيق ينتهي بكارثة.

ومع ذلك لم يهن ولم ييأس. فهو يعرف تماماً الطريقة التي يتبعها دوبريك لإخفاء السدادة البلورية من جهة ومن جهة ثانية، يجب أن تعرف كلاريس مرجي المكان الذي يرتاح فيه دوبريك. ويصبح الباقي عملية صبيانية بالنسبة له.

كان غرونيار ولوباهو ينتظرانه في فندق فرانكلين القريب من التروكاديرو. ولم تكن كلاريس قد كتبت إليهما بعد. وقال لوبين في نفسه: فليكن. إني أثق بها، وهي لن تترك دوبريك قبل أن تهتدي إلى مكانه وتتأكد من وجوده فيه.

إلّا أنه بدأ يقلق بعد الظهر وكاد أن يفقد صبره. وقرر خوض معركة جديدة ـ تمناها أن تكون الأخيرة ـ وحيث أن أدنى تأخير في التنفيذ يمكن أن يفسد كل شيء. فماذا يحدث لو أن دوبريك هو الذي يتعقب أثر كلاريس الآن؟ وإذا حدث هذا تضيع عليه فرصة تصحيح الأخطاء المرتكبة خلال أيام أو أسابيع ويجد نفسه في هذه الحالة أمام حيز من الوقت ضيقٍ جداً وغير كاف.

وما أن شاهد صاحب الفندق حتى اقترب منه بسرعة وسأله:

ـ أنت متأكد أنه ليس هناك شيء باسم صديقيَّ؟

ـ تمام التأكد، يا سيد.

ـ وباسمي انا؟ السيد نيقول؟

ـ لا شيء أيضاً.

ـ غريب. اننا ننتظر اخباراً من السيدة اودران (وهو الاسم الذي نزلت به كلاريس في الفندق).

ـ ولكن هذه السيدة عادت.

ـ ماذا؟

ـ نعم. عادت. وعندما لم تجد الشخصين اللذين ذكرت تركت لهما رسالة في غرفتها. الم يحدثك الخادم عنها؟

وبسرعة صعد لوبين ورفيقاه.

فعلاً، كانت هناك رسالة على الطاولة. وقال لوبين:

ـ خذ انها مفتوحة. كيف هذا؟ ولماذا تقاطيع المقص هذه؟
وقرأ لوبين نص الرسالة:
«أمضى دوبريك الاسبوع في فندق سنترال. وفي هذا الصباح قام بنقل عفشه إلى محطة...، وطلب ان يحجزوا له سريراً في القطار إلى... لا اعرف ساعة انطلاق القطار. ولكني ساعرف كل شيء بعد الظهر في المحطة. تعالوا انتم الثلاثة في اسرع وقت ممكن لنعد عملية الاختطاف».

وتساءل لوباهو: «أي محطة؟ وإلى أي مكان يتجه؟ لماذا تراها حذفت بالمقص هاتين الكلمتين؟

وأجابه غرونيار.

ـ أهم ما في الرسالة حذف، كيف سنتصرف. هل اصابها مس من الجنون وفقدت عقلها؟
لم يتحرك لوبين ابداً ..
بدأ الدم يتدفق إلى صدغيه فأمسك بهما وشد بقوة. عاودته الحمى وارتفعت حرارته وبدأت يداه ترتجفان ولكنه تماسك حتى لا تفضحه انفعالاته ويصبح الخاسر بدل الرابح!

تنفس بقوة وتمتم: دوبريك جاء إلى هنا.

– دوبريك!

– هـل يمكننا الافتـراض بأن السيـدة مرجي كـانت تتسلى وحذفت هاتين الكلمتين بنفسها؟ دوبريك جاء إلى هنـا واعتقدت السيدة مرجي انها تراقبه. ولكن يبدو لي في الواقع انه هو الذي كان يراقبها.

– كيف؟

– بـواسطة ذلـك الخادم الـذي لم يخطرنـا بمرور السيـدة مرجي في الفندق.. ولكنه أخطر دوبريك، الذي قرأ الرسالة وقام بقص الاسمين فيها.

– يمكن ان نعرف إذا سألنا...

– ما الفائدة إذا عرفنا كيف جاء طالما اننا نعرف تماماً كيف جاء.

عاد وتفحص الرسـالة مثنى وثـلاث ثم قلّبها بـين يديـه ثم وقف وقال:

– هيا بنا نذهب.

– ولكن إلى اين؟

– إلى محطة ليون.

– أنت متأكد؟

– التأكد بـالنسبة لـدوبريـك غير ممكن... ولكن طـالما اننـا سنختار، ووفقاً لمضمون الرسـالة. فـأنا اعتقـد ان المحطة هي محطـة ليون وليست محطـة الشرق.. وان دوبريـك هـو الآن في طريقه إلى مـرسيليا وليس إلى شرق فـرنسا. هـو يفضل البحـر

والشاطيء اللازوردي أكثر من الريف وضواحي المدن الكبرى.

كانت الساعة تشير إلى ما بعد السابعة عندما غادر لوبين ورفيقاه فندق فرانكلين. عبروا باريس بسرعة كبيرة.. ولكنهم لاحظوا، خلال دقائق، ان كلاريس مرجي ليست خارج المحطة ولا في داخلها ولا فوق الارصفة.

وفجأة تساءل لوبين وقد أخذ منه التوتر مأخذه وتزايد القلق مع تزايد العوائق: إذاً كان دوبريك حجز سريراً للنوم في القطار فهذا في قطار المساء. والساعة الآن لم تتعد السابعة والنصف.

وما ان انطلق قطار الليل السريع حتى سارع الثلاثة إلى التجول في المحطة فلم يعثروا على احد في الممرات.. لا السيدة مرجي ولا النائب دوبريك.

وعندما كانوا يهمون بمغادرة المحطة، اقترب منهم حمال وسألهم:

ـ مَن من السادة يدعى لوباهو؟

ـ نعم. أنا. أنا. قل بسرعة ـ ماذا تريد؟

ـ أهذا انت يا سيد؟ السيدة قالت لي انكم ستكونون ثلاثة، وربما اثنين.. لا غير.

ـ ولكن قل. بربك، عن أية سيدة تتكلم؟

ـ السيدة التي امضت نهاراً كاملاً على الرصيف. تنتظر قرب عفشها.

ـ وماذا بعد.. قل... هل ركبت القطار؟

ـ نعم. القطار الضخم.. عند الساعة السادسة والنصف.. وقررت في آخر لحظة.. كما طلبت مني ان أقول لكم أيضاً ان السيد هو في ذلك القطار وفي طريقه إلى مونت كارلو.

وصاح لوبين: يا لسوء الحظ. كان علينا ان نركب القطار السريع الذي انطلق منذ لحظات. لم يعد هناك سوى قطارات المساء. لقد أضعنا ثلاث ساعات.

بدا لهم ان الوقت لن ينتهي. حجزوا اماكنهم في أول قطار مسائي واتصلوا بصاحب فندق فرانكلين كي يرسل لهم ما يتلقونه من مراسلات إلى مونت كارلو. تناولوا طعام العشاء وقرأوا الصحف. وعند الساعة التاسعة والنصف انطلق قطارهم.

وعاد لوبين إلى المغامرة من جديد بعد ان أدار ظهره ولو مؤقتاً للمعارك. عاد يبحث عن العدو اللدود الذي يعتبر من الأعداء الذين لم يسبق له ان قاتلهم.. كل ذلك يحدث قبل اربعة او خمسة أيام قبل تنفيذ الحكم المبرم والذي لا مفر منه بحق جيلبير وفوشري.

كانت ليلة قاسية ومؤلمة بالنسبة للوبين. فكلما أمعن في دراسة الوضع كلما بدت له الأمور مرعبة وأكثر تعقيداً. كانت الحيرة والظلمات تحيط به من كل حدب وصوب.

كان يعرف جيداً سر السدادة البلورية. ولكن من اين له ان يعرف بالمقابل إذا ما كان دوبريك سيعدل أو بالاحرى عدّل تكتيكه؟ كيف يمكن ان يعرف ان قائمة «السبعة والعشرون» لا تزال مخبأة في السدادة البلورية حيث خبأها دوبريك في البداية؟ يضاف إلى كل هذا عامل هام آخر وهو ان كلاريس كانت تعتقد انها تراقب دوبريك واتضح للوبين ان دوبريك هو الذي يراقبها ويتتبع خطواتها ويجرها إلى اماكن من اختياره هو لتكون بعيدة عن أي مساعدة يمكن ان تقدم لها في حال حاجتها إليها.

لعبة دوبريك كانت واضحة. الم يكن لوبين يعرف ترددات المرأة التعيسة؟ الم يكن يعرف، وقد قال له ذلك غرونيار ولوباهو بطريقة قاطعة - بأن كلاريس تعتبر كل ما يقدمه دوبريك ممكناً ومقبولاً؟ وفي هذه الحالة كيف يمكن ان ينجح هو؟

ان منطق الاحداث التي يقودها دوبريك بهذه القوة ستؤدي لا محالة إلى نهاية مميتة: يترتب على الأم ان تضحي من أجل انقاذ ابنها وتتنازل عن كل شيء، بما فيه شرفها

وصلوا عند الثالثة والنصف بعد ظهر اليوم التالي. وعلى الفور اصيب لوبين بخيبة أمل كبرى عندما لم يجد كلاريس بانتظارهم على رصيف محطة مونت كارلو.

انتظر. ولكن احداً لم يقترب منه

سأل المراقبين وطاقم القطار فأفادوه انهم لم يروا بين الركاب مسافرين تنطبق عليهما اوصاف دوبريك وكلاريس.

كان لا بد من الملاحقة، والبحث في فنادق الامارة عملية كبيرة لإضاعة وقت أكبر.

ومساء اليوم التالي تأكد لوبين ان دوبريك وكلاريس ليسا في مونت كارلو ولا في موناكو كلها..

ارتجف وتساءل إذاً ماذا؟ اين تراهما اختفيا؟

ومساء يوم السبت تلقى بريداً من صاحب فندق فرانكلين ففتحه ووجد رسالة من كلاريس تقول.

«نزل في كان وغادر إلى سان ريمو حيث يقيم في فندق السفراء».

كانت الرسالة مؤرخة من الأمس. وأنحى لوبين على نفسه باللائمة فقال:

– تباً لهما. مرا في مونت كارلو. كان يجب ان يبقى واحد منا في المحطة. فكرت فعلاً في الأمر... ولكن نسيت وسط هذه المعمعة.

قفز لوبين ورفيقاه في أول قطار ذاهب باتجاه ايطاليا.

وعند الظهر عبروا الحدود ودخلوا محطة سان ريمو في الواحدة إلا ربعاً.

شاهدوا على الفور حمالاً يرتدي ثياباً مميزة وقبعة في مقدمتها عبارة «فندق السفراء» وكأنه يبحث عن أحد بين المسافرين.

اقترب منه لوبين وسأله:

– اتبحث عن السيد لوباهو. اليس كذلك؟

– نعم، السيد لوباهو وسيدين آخرين.

– ومن قبل سيدة.. اليس كذلك؟

– نعم، السيدة مرجي.

– انها تنزل في فندقكم؟

– لا، لم تنزل من القطار. اشارت اليّ ان أقترب منها واعطتني اوصاف هؤلاء السادة وقالت لي: اخبرهم اننا في طريقنا إلى جنوى.. فندق كونتيننتال.

– كانت وحدها؟

– نعم.

* * *

صرف لوبين الرجل بعد ان أنقده مبلغاً ما وعاد نحو رفيقيه ليقول لهما:

- «إننا اليوم السبت. وإذا كان تنفيذ حكم الاعدام بجيلبير وفوشري سيتم يوم الاثنين فمعنى هذا اننا لن نستطيع عمل شيء من اجلهما.. ولكن لا اعتقد ان التنفيذ سيتم ذلك اليوم.. يجب ان القي القبض على دوبريك واكون في باريس مساء الاثنين وبيدي الوثيقة. انها فرصتنا الأخيرة. هيا بنا...

ذهب غرونيار إلى شباك التذاكر واشترى ثلاث بطاقات إلى جنوى وصفر القطار.

تردد لوبين وقال في نفسه: انه عمل احمق. ماذا نفعل؟ يجب ان نكون في باريس.. يجب علينا ان نفكر بجدية...

كان على اهبة فتح الباب والقفز من القطار. ولكن رفيقيه أمسكا به. انطلق القطار. وجلس الثلاثة في مقاعدهم.

لم يكن يفصلهم آنذاك عن موعد تنفيذ حكم الاعدام بجيلبير وفوشري سوى يومين.

* * *

.١٠.

سان ريمو

نزلت كلاريس مرجي في فندق ضخم وسط غابات مطلة على مدينة سان ريمو. وكانت وصلت إلى الفندق عند الظهر واختارت الغرفة رقم ١٣٠ في الدور الأول. هذا فيما كان لوبين وغرونيار ولوباهو يتجولون في ايطاليا.

الغرفة التي اختارتها كلاريس مرجي كانت منفصلة عن الغرفة ١٢٩ بباب مزدوج. وما ان اصبحت كلاريس وحيدة في الغرفة حتى سارعت إلى ازاحة الستارة التي تحجب الباب الأول وسحبت المزلاج ووضعت اذنها فوق الباب الثاني وقالت في نفسها: انه هنا. يرتدي ملابس للذهاب إلى النادي.. كما فعل أمس.

وعندما خرج جارها انتقلت هي إلى الممر وعندما تأكدت من خلوّه من المارة.. اقتربت من باب الغرفة ١٢٩، فوجدته مقفلاً بالمفتاح.

انتظرت طوال الأمسية عودة جارها ولم تنم إلا عند الساعة الثانية صباحاً. وصباح يوم الأحد عادت إلى عملية التنصت.

غادر الجار غرفته عند الحادية عشرة، ولكنه ترك المفتاح هذه المرة في باب الممر.

فتحت كلاريس الباب ودخلت بسرعة واتجهت فوراً إلى الباب الفاصل ومنه دخلت غرفتها وراحت تتنصت إلى حوار بين خادمات الفندق في غرفة الجار. انتظرت إلى ان غادرن الغرفة. وعندما تأكد لها انها ستكون في مأمن الآن ولن يزعجها احد، تسللت من جديد إلى الغرفة الثانية.

اسندت نفسها إلى كرسي مخافة ان تقع من شدة التأثر. فبعد ايام وليال من المطاردات المضنية، استطاعت ان تدخل غرفة يسكنها دوبريك، ويمكنها الآن ان تفتش فيها بكل راحة واطمئنان. وإذا لم تعثر على السدادة البلورية.. يمكنها على الأقل ومن خلال مخبأ بين دفتي الباب الضخم رؤية دوبريك والتجسس على حركاته وكشف سره.

بحثت في حقيبة سفره. دون جدوى.

بحثت في الخزانة.. بين الكتب.. في الادراج.. في غرفة الحمام وكل ما وقعت عليه يداها من اثاث.. فلم تحصل على شيء.

اهتزت عندما شاهدت صدفة ممسحة من الورق مرمية في زاوية الشرفة.. وتساءلت: هل هذه واحدة من حيل دوبريك؟ ألا يمكن ان تحتوي تلك الممسحة على...؟

ـ لا.. اجابها صوت عندما همت بوضع يدها فوقها.. استدارت فشاهدت دوبريك

لم تدهش وترتعب. حتى انها لم تشعر بأي انزعاج من وجوده امامها. كانت تتألم منذ أشهر ولم يعد يهمها ما سيقوله دوبريك فيها.. كأن يقول مثلاً انه فاجأها اثناء قيامها بعملية تجسس في منزله.

جلست منهكة فقال دوبريك ساخراً:

ـ لا. هناك خطأ يا صديقتي العزيزة. انت «لا تحترقين» كما يقول الاولاد الصغار. هل يجب ان اساعدك؟ إلى جانبك يا صديقتي العزيزة وفوق تلك الطاولة ما يلزم للقراءة والكتابة والتدخين.. والأكل.. هل تريدين بعض الفواكه المجففة؟ ام تنتظرين الوجبة الدسمة التي أمرت باحضارها قبل قليل؟

لم تجب كلاريس بشيء. وبدت وكأنها لا تسمع ما يقول أو أنها كانت تتوقع ان تسمع كلمات مختلفة جداً عن هذه وهو قادر على التلفظ بها.

ازاح عن الطاولة كل الأشياء التي تربكها ثم وضعها فوق المدفأة. ودق الجرس.

دخل خادم الفندق، فقال له:

ـ هل الغداء الذي طلبته جاهز؟

ـ نعم، يا سيدي.

ـ لشخصين؟

ـ نعم.

ـ ومع شمبانيا؟

ـ نعم.

ـ ومن النوع الناشف جداً؟

ـ نعم.

ودخل خادم آخر يحمل طبقاً ووضع فوق الطاولة غداءً لشخصين مكوناً من اللحوم الباردة والفواكه وسطلاً من الثلج وزجاجة شمبانيا. ثم انسحب الخادمان على الفور.

ابتسم والتفت إلى كلاريس قائلاً:

ـ إلى المائدة يا سيدتي. وكما ترين، حسبت حسابك وطلبت غداءً لشخصين.

ودون ان يلحظ ان كلاريس غير مهتمة اطلاقاً بدعوته، جلس وبدأ الأكل واستمر يخاطب كلاريس:

ـ كنت اتمنى مثل هذا اللقاء. وجها لوجه . منذ ثمانية أيام وانت تراقبينني وتقتفين أثري. سألت نفسي أكثر من مرة: ماذا تراها تفضل الشمبانيا الحلوة أم الناشفة؟ كنت حقاً محتاراً في أمري. وخاصة منذ ان غادرنا باريس. فقدت اثرك وخفت ان تفقدي انت اثري أيضاً وتصرفين النظر عن ملاحقتي التي تفرحني جداً. كنت افتقد عينيك السوداوين الحلوتين اللتين تبرق بالكراهية في نزهاتي. ولكن هذا الصباح عرفت ان الغرفة المتاخمة لغرفتي هي فارغة وان صديقتي كلاريس ستنزل فيها. ارتحت جداً. وبدلاً من ان اتناول الطعام في الخارج وجدت انه من الأفضل تناوله في الغرفة بصحبتك.

كانت تنظر إليه الآن مرعوبة وتتساءل في نفسها: أدوبريك يجيد التجسس أيضاً؟ كان يلاحقها منذ اسبوع ويهزأ منها ومن مناوراتها؟

نظرت إليه قلقة وسألته بصوت منخفض:

ـ فعلت ذلك خصيصاً؟ لم تذهب إلا لأجلي؟

ـ نعم.

ـ ولكن لماذا؟ لماذا؟

ـ وتسألين لماذا يا صديقتي العزيزة؟

نهضت من فوق مقعدها وانحنت نصفياً نحوه ثم فكرت، كما في كل مرة، بالجريمة التي يمكن ان ترتكبها. طلقة واحدة من

مسدسها في الرأس الكريه وينتهي كل شيء.

دست يدها على مهل في صدرها تتلمس مسدسها. وقال دوبريك:

ـ لحظة واحدة.. يا صديقتي العزيزة. ستفرغين كل شي فيما بعد. ولكن ارجوك قبل كل هذا ان تقرئي هذه البرقية التي استلمتها قبل قليل.

ترددت وهي لا تدري أي فخ ينصبه لها.. ولكنه حدد الموضوع عندما أخرج من جيبه ورقة زرقاء وقال:

ـ هذا يتعلق بولدك.

ارتجفت وسألت هلعة:

ـ جيلبير؟

ـ نعم، جيلبير. خذي واقرئي.

وقرأت: «حكم الاعدام سينفذ يوم الثلاثاء».

صرخت فجأة ثم ارتمت فوق دوبريك تهزه بعنف وتقول.

ـ هذا ليس صحيحاً.. انها كذبة تفعل ذلك لارهابي. إني اعرفك.. انت قادر على كل شيء.. ولكن اعترف. لن ينفذ الحكم يوم الثلاثاء.. أليس كذلك؟ في يومين.. لا. لا. انا أقول لك انه لا يزال امامنا ما بين اربعة إلى خمسة أيام لإنقاذه اعترف.

خارت قواها وأصبحت كلماتها غير مفهومة. تأملها لحظات ثم ملأ كأسه بالشمبانيا واجترعه دفعة واحدة. طرق ارض الغرفة من اليمين إلى الشمال. ثم اقترب منها وقال:

ـ اسمعيني يا كلاريس. .

وقبل ان يكمل نهضت وصرخت فيه واعتبرت رفع الكلفة

بينهما سبة وقالت:

- اني امنعك ان تكلمني هكذا. انها اساءة لا اقبلها على الاطلاق. يا لك من بائس خسيس.

هز كتفيه دون مبالاة وتابع قائلاً:

- لا الومك. ربما كان هذا ما تبقى لك من أمل في المساعدة. ومصدره برازفيل؟ ربما. انت الساعد الايمن لهذا الشخص الممتاز. لقد وقعت في خطأ يا عزيزتي. تصوري ان برازفيل متورط بصورة غير مباشرة في قضية القنال.. أي ان اسمه ليس في قائمة «السبعة والعشرون» ولكنه مسجل فيها تحت اسم النائب فورينغلاد، صديقه القديم. كنت أجهل كل ذلك.. حتى اعلنوا لي هذا الصباح ان هناك رزمة من الوثائق تدين برازفيل.. ومن قال لي هذا؟ هو فورينغلاد نفسه.. الذي مل البؤس واراد ان يغرر ببرازفيل مخافة ان يقبض عليه ولا يطلب سوى الاجتماع بي. ولكن اعرف كيف ساقابله هذه المرة.. سيدفع الثمن غالياً..

فرك يديه ابتهاجاً بهذا الانتقام الجديد وتابع قائلاً:

- كدت أنسى.. هل تنكرين ان السادة ارسين لوبين، وغرونيار ولوباهو لم يكونوا مجلين وان كل الحيل التي لجأوا إليها لم تمكنهم من النيل مني ومنعي من السير في الطريق الذي رسمته؟ انهم يعتقدون ان لا مثيل لهم في الدنيا. تعتقدين ان لوبين سينقذ ابنك وانه هو الوحيد القادر على ذلك. سأريك كيف اعري هذا الشبح.

تناول جهاز الهاتف وطلب استعلامات الفندق.

يا آنسة .. هنا الغرفة رقم ١٢٩ ارجوك ان تجعلي الشخص الجالس امامك يصعد إلى الغرفة.. نعم.. انه يرتدي

قبعة رمادية.. نعم. نحن على موعد.

اعاد السماعة إلى مكانها والتفت إلى كلاريس وقال:

ـ لا تخافي. هذا الرجل هو السرية بنفسها. شعاره الحرص والتغاضي. موظف أمن سابق. أسدى إليّ خدمات جلى.. منها تتبعك عندما كنت تتبعينني.. وإذا لم يهتم بك تماماً عندما وصلنا إلى «الميدي» فذلك بسبب اهتمامه باشياء أخرى. ادخل يا جاكوب.

ودخل رجل نحيف، صغير القامة، ذو شاربين كثين أشقرين.. قال له دوبريك:

ـ جاكوب. تفضل وقل للسيدة بايجاز ماذا فعلت منذ مساء يوم الاربعاء حيث تركتها تصعد إلى القطار الضخم الذي حملني إلى الميدي وبقيت انت على رصيف محطة ليون.. لا يهم السيدة كيف امضيت وقتك هناك.. ولكن ما يهمها هي المهمة التي أوكلتها إليك.

تناول جاكوب من جيب سترته الداخلي دفتراً صغيراً راح يقلب اوراقه، ثم بدأ يقرأ:

«الاربعاء مساء الساعة السابعة والربع. محطة ليون. انتظار السيدين غرونيار ولوباهو. وصلا مع شخص ثالث لا اعرفه بعد والذي لا يمكن ان يكون غير السيد نيقول نفسه. دفعت ١٠ فرنكات واستعرت قبعة وقميص احد العاملين داخل القطار. اقتربت من هؤلاء السادة وقلت لهم من طرف سيدة في طريقها إلى مونت كارلو. ثم اتصلت بخادم فندق فرانكلين وطلبت إليه ان يقرأ المراسلات الموجهة إلى سيدهما ويحذف منها غير المناسب.

الخميس. مونت كارلو. يقوم هؤلاء السادة بعمليات بحث في الفنادق.

الجمعة: جولة في مناطق مونت كارلو. السيد دوبريك يتصل بي هاتفياً. ويرى من الانسب ارسال هؤلاء السادة إلى ايطاليا.. ولهذا يوجه إليهم من خلال خادم فندق فرانكلين برقية يعين لهم فيها موعداً في سان ريمو.

السبت: سان ريمو. رصيف المحطة. دفعت عشرة فرنكات واستعرت قبعة عمال فندق السفراء. وصول هؤلاء السادة.. أقترب منهم وأشرح لهم من قبل المسافرة السيدة مرجي بأنها سافرت إلى جنوى وتنزل في فندق كونتيننتال، يتردد السادة. السيد نيقول يريد النزول من القطار. يمسك به رفيقاه. يقلع القطار. حظاً سعيداً يا سادة، وبعد ساعة استقل القطار إلى باريس واتوقف في نيس بانتظار اوامر جديدة».

يقفل جاكوب دفتره ويقول:

ـ هذا كل شيء. حصيلة اليوم لا تسجل إلا هذا المساء.

ـ يمكنك ان تبدأ بتسجيل وقائعها ابتداءً من الآن:

«عند الظهر يرسلني السيد دوبريك إلى شركة قطارات النوم. احجز سريرين إلى باريس في القطار المغادر عند الساعة الثانية والدقيقة الثامنة والاربعين وارسل البطاقات إلى السيد دوبريك بالبريد السريع. ثم استقل قطار الواحدة إلا دقيقتين ظهراً إلى فينتيميل ـ وهي محطة على الحدود الفرنسية ـ الايطالية، حيث امضيت النهار بكامله في مراقبة المسافرين الداخلين. إلى فرنسا.. وإذا خطر في بال السادة نيقول وغرونيار ولوباهو مغادرة ايطاليا والعودة إلى باريس عن طريق نيس، كانت لدي تعليمات بالاتصال بالشرطة واخبارهم بأن ارسين لوبين واثنين

من رفاقه هم في القطار رقم اكس..».

انهى دوبريك كلامه وقاد جاكوب إلى الباب مودعاً. غادر جاكوب الغرفة وقام دوبريك فأقفل الباب واقترب من كلاريس وقال لها: اسمعيني الآن يا كلاريس.

* * *

لم تحتج أبداً هذه المرة. ماذا يمكنها ان تفعل ضد عدو يتمتع بهذه القوة والعبقرية والذي يلم بكافة تفاصيل الأحداث ويتلاعب بأخصامه بمنتهى الذكاء والحنكة؟ وإذا كانت تأمل بتدخل لوبين فهل هي ما زالت على هذا الأمل وهو الآن يتجول في ايطاليا يلاحق الاشباح؟

وفهمت كلاريس الآن لماذا بقيت البرقيات الثلاث التي ارسلتها إلى فندق فرانكلين بدون إجابة كان دوبريك في الظل يسهر ويحيك الفراغ من حولها ليفصلها عن رفاقها ويجعلها رويداً رويداً سجينة هذه الغرفة الصغيرة

شعرت بضعفها وعرفت انها تحت رحمة هذا الوحش، عليها ان تصمت وتمتثل.

وكرر دوبريك كلامه جذلاً شامتاً:

ـ اسمعيني جيداً يا كلاريس وفكّري بكلماتي هذه. حللي معانيها بدقة. الوقت ظهراً الآن. القطار الأخير يغادر عند الساعة الثانية والدقيقة الثامنة والاربعين وهو الذي سيقودني إلى باريس غداً الاثنين وفي الوقت المناسب لانقاذ ابنك. القطارات الفخمة كلها مملوءة يجب ان اغادر عند الساعة الثانية والدقيقة الثامنة والاربعين.. هل يجب ان اذهب؟

ـ نعم.

ـ غرف نومنا محجوزة. هل ترافقينني؟

ـ نعم.

ـ هل تعرفين شروط تدخلي؟

ـ نعم.

ـ وتقبلين بها؟

ـ نعم.

ـ وتكونين زوجتي؟

ـ نعم.

إجابات مرعبة ادلت بها الأم المسكينة ببلاهة وألم ولم تفكر على الاطلاق بما تعهدت وأقسمت. المهم هو انقاذ جيلبير. وعندما يتقدم منها دوبريك ويعرض الزواج منها ستعرف كيف تتصرف لتتخلص منه.

كان دوبريك على مقربة منها فقال:

ـ هذا ما اعرضه انا.. ماذا يجب ان يحدث في المستقبل. سأطلب والح على تأجيل اعدام جيلبير لثلاثة أو اربعة اسابيع. سنختلق أية حجة. هذا لا يعنيني.. وعندما تصبح السيدة مرجي السيدة دوبريك، عندئذ فقط ساطالب بالعفو عنه.. اطمئني. سأحصل عليه.

ـ أقبل.. أقبل..

ضحك من جديد وعاد يقول:

ـ نعم تقبلين لأن هذا سيتم خلال شهر.. ومن الآن وحتى ذلك الحين ستحاولين اختلاق الحيل والاعذار الجديدة

والاستنجاد، مثلاً، بأرسين لوبين..

ـ أقسم على رأس ولدي.

ـ رأس ولدك . ولكنك تضحين بكل شيء حتى لا تتدحرج..

ـ نعم، بكل شيء.

اقترب منها أكثر وكاد يلاصقها.. ثم همس بصوت خافت.

ـ إني لا أطلب نفسك يا كلاريس. ان نفسي تدور حول هذا الحب منذ ثلاثين سنة.. وانت المرأة الوحيدة التي احببت.. اكرهيني.. احتقريني.. سيان عندي.. ولكن لا ترفضي.. ان انتظر شهراً آخر أيضاً؟ لا... مستحيل. يا كلاريس.. اني أنتظر منذ سنوات...

تجرأ ولمس يدها. شعرت بالقرف وأبعدتها. وصرخ دوبريك كالمجنون:

ـ أقسم لك بالله ايتها الجميلة ان الجلاد لن يستغرق طويلاً عندما يمسك بابنك. فكري جيداً هذا سيحدث بعد ثمان واربعين ساعة ليس أكثر. اتترددين أيضاً؟ أنظري إلى الأمور جيداً. فبعد قسمك اصبحت انت الآن زوجتي، خطيبتي.. ومنذ الآن.. كلاريس.. كلاريس.. اعطني شفتيك..

لف ذراعه حول عنقها. دفعته ولكن عبثاً. كان أقوى منها وقد تأججت فيه الرغبة... شدها إليه يقبلها ويتمتم:

ـ انقذي ابنك.. افتكري بالصباح الأخير واعداد الجنازة.. سانقذه يا كلاريس.. ثقي بي.. ان حياتي كلها ملك لك.. يا كلاريس.

لم تعد تبدي أية مقاومة. لقد انتهى كل شيء.. عبثاً تحاول الرجل يسيطر عليها ولا مناص في الخلاص منه. واجبها الآن

ان تخضع لقدرها وتطيعه. كانت تعرف ذلك منذ زمن طويل. فهمت ما يدور. أغمضت عينيها كي لا ترى الوجه الكريه امامها وهو يهم بالتمرغ بها.. وقالت

- ابني.. ابني المسكين.

مرت ثوان دون ان يتحرك دوبريك أو يقول شيئاً.. ظنت انه تراجع عن سفالته او شعر بتأنيب الضمير. فاقلع عن مغامرته القذرة.

رفعت حاجبيها واصابها ما رأت بالدهشة والذعر الشديدين. شاهدت وجها ممتقعاً.. كادت ألا تعرفه، وعينين جاحظتين تنظران إلى أعلى.. دون حراك.. وكأن الرجل أسلم الروح.

استدارت كلاريس ورأت مسدسين مصوبين فوق رأس دوبريك.. لم تتبين ملامح المسلحين. كانت تحدق في الأيدي القوية الممسكة بالمسدسات.. لم تشاهد غير ذلك.. وفجأة اطبق عليه بعنف شخص آخر فرماه ارضاً ويده لا زالت تمسك بعنقه ثم وضع فوق وجهه قناعاً من القماش.. فاحت منه رائحة الكلوروفورم المخدرة القوية.

عرفت كلاريس السيد نيقول. وسمعته يقول

- دعوه لي اتركه. يا غرونيار. ابتعد يا لوباهو.. اني امسك به. اتركا مسدسيكما. شدا وثاقه.. لا خوف منه.

انطوى دوبريك على نفسه وسقط فوق ركبتيه منهاراً بتأثير قوة المخدر.

لفه غرونيار ولوباهو بغطاء السرير وربطاه جيداً وقفز لوبين قائلاً بعد ان أنهى رفيقاه عملهما: يكفي. انه لنا الآن.

* * *

ابتسامة حزينة اضاءت وجه السيدة مرجي. انها ابتسامتها الأولى منذ أشهر وأشهر. استوعبت الوضع بسرعة، وقالت تتوسل إلى لوبين:

ارجوك. دعنا الآن نفكر بجيلبير.

أسرع نحوها وأمسك بذراعيها وقال يمازحها فابتسمت وطبع على خديها قبلتين قويتين وقال:

– خذي يا سيدتي. هذه قبلة من رجل شريف.. ها انا اقبلك. بدلاً من دوبريك. آه.. كم انا مسرور ثم ركع امامها وقال باحترام:

– اطلب السماح يا سيدتي. لقد انتهت الأزمة.

نهض بسرعة وراح يتمشى في الغرفة في الوقت الذي كانت كلاريس تسائل نفسها إلى أي مدى يريد ان يصل. ابتسم وعاد يقف إلى جانبها ويقول:

– ماذا ترغب سيدتي؟ ربما براءة ابنها؟ اتفقنا. أني امنحك إياها. تخفيف الاعدام إلى اشغال مؤبدة ثم هروبه. هذا هو الحل. امر متفق عليه أليس كذلك يا غرونيار؟ وانت يا لوباهو؟ سنبحر غداً إلى نوميا قبل الظلام وهناك نجهز كل شيء. يا لك من رجل محترم يا دوبريك.. نحن مدينون لك بالكثير. ونضيء شمعة تقدير منا لخدماتك. ايليق بك ان تعامل لوبين بقسوة او عدم مبالاة على الأقل وتصفه بالشبح؟ ادركت الآن ان الشبح عرف كيف يناور ويتصرف؟ ماذا تريد يا اسوأ من مثل شعبه؟ حلوى؟ لا لن تنال سوى غليون واحد من التبغ.. تدخنه.. وقد يكون الأخير في حياتك.

تناول لوبين علبة التبغ الخاص الذي يدخنه دوبريك وراح

يحشو له غليوناً ويسخر، كان يقوم بالعملية وكأنه جراح ماهر يحاول ألا يفوته شيء من الملاحظة والحرص حفاظاً على سلامة مريضه. وفجأة سحب من بين فتات التبغ شيئاً يلمع عرضه امام المشاهدين.

ندت عن كلاريس صرخة قوية.

ـ انها السدادة البلورية.

ركضت نحو لوبين وانتزعتها منه وهي ترتجف وقالت:

ـ ها هي.. ها هي.. انظر إلى ذلك الخط الذي يزنرها في الوسط.. حيث تنتهي التقاطيع الذهبية. يا الهي.. لقد خارت قواي.. اكاد ان اقع.

سارع لوبين إليها فأمسك بها وأجلسها فوق كنبة وراح يتفحص السدادة بنفسه.

كان رأس السدادة فارغاً.. وفيه ورقة بيضاء ملفوفة بشكل دائري.

ـ انها الورقة الشفافة الناعمة همس ويداه ترتجفان من الانفعال والتأثر.

كانت هناك على الورقة اياها اسماء مسجلة الواحد تلو الآخر. وجد سبعة وعشرين اسماً. انها اسماء القائمة الشهيرة موقعة من قبل رئيس مجلس ادارة قناة البحرين الفرنسية الوطنية. كان التوقيع بلون الدم وفي القائمة اسماء منها. فيكتوريان مرجي والمركيز دالبوفكس وفورنيغلاد، صديق النائب دوبريك الحميم.

نظر لوبين إلى ساعته وقال:

ـ انها الواحدة إلا ربعاً. امامنا عشرون دقيقة.. وهي تكفي

لنتناول طعام الغداء.

وقالت كلاريس التي بدأت تستعيد قواها وتعي مـا يدور من حولها:

ـ ولكن اياك ان تنسى..

ـ اني أموت جوعاً.

جلس إلى الطـاولة امـامه فـاقتطع قطعـة من اللحم البـارد التهمها على عجل والتفت إلى غرونيار ولوباهو آمراً:

ـ احضرا الطعام فوراً. ولا تنسيا الشمبانيا الحلو والناشف ثم استدار ناحية دوبريك وقال ساخراً:

ـ نخب صمتك يا دوبريك...

. ١١ .

صليب اللورين

أصبح لوبين سيد الموقف. وعليه من الآن فصاعداً ان يلعب دور السيد القوي فلا يخضع لمساومة أو يقوم بما يضعف سلطته امام زملائه ويحد من طموحاته. لقد وجد السدادة البلورية وقائمة «السبعة والعشرون». وفي المخبأ الذي توقعه.. ومن هنا جاء قراره النهائي بأن يلعب آخر ادوار المسرحية وبدون أي تأخير. إن ما تبقى امامه يعتبر، في نظره، عملاً بسيطاً ولكن أي خطأ يمكن ان يرتكبه سيكون مميتا وأية فرصة قد تضيع منه.. ربما لن تعوض. هو يعرف كل هذا ويحرص عليه.. كما انه تفحصه بمرونة وبروح طيبة وتسلسل منطقي جداً، الاستعدادات قائمة ولا تحتاج سوى التنفيذ المباشر والسريع.

التفت إلى غرونيار وقال:

ـ المفوض ينتظر في جادة غامبيتا في العربة مع الحقيبة التي اشتريناها. احضره إلى هنا وهات الحقيبة. إذا سألوك عن شيء في الفندق.. قل لهم ان الحقيبة هي للسيدة التي تسكن الغرفة ١٣٠.

ثم استدار ناحية لوباهو وقال له:

ـ لوباهو. عد انت إلى الكاراج وتسلم الليموزين. ثمنه مناسب. عشرة الاف فرنك اشتر قبعة وبدلة خاصة بالسائقين وتأتي بالسيارة إلى امام الباب... أسرع.

ـ المال.. يا معلمي.

تناول لوبين محفظة كان سحبها من جيب سترة دوبريك الداخلي ووجد فيها رزمة كبيرة من الأوراق النقدية أخذ منها عشرة آلاف فرنك ناولها إلى لوباهو وقال له:

ـ خذ، يبدو ان صاحبنا كسب مبلغاً كبيراً في النادي.

غادر الرجلان غرفة دوبريك ودخلا غرفة كلاريس مرجي واغتنم لوبين فرصة انشغال كلاريس ودس المحفظة في جيبه فأبدى ارتياحاً عميقاً وقال في نفسه:

ـ لا بأس العملية ليست خاسرة كل المصاريف دفعت.. والاشياء لم تنته بعد.

ثم التفت ناحية كلاريس وسألها:

ـ هل لديك حقيبة؟

ـ نعم، حقيبة كنت اشتريتها عند وصولي إلى نيس مع مجموعة من الثياب الداخلية وادوات الزينة لأني تركت باريس بسرعة ولم تتح لي الفرصة للذهاب إلى السوق والتبضع.

جهّزي كل ذلك وانزلي إلى المكتب وقولي لهم ان يحضر لك الخادم الحقيبة من مستودع الامانات وانك مجبرة على فتحها واعادة ترتيب ما فيها في غرفتك وانك ستغادرين الفندق.

ـ وعندما بقي لوبين وحده في الغرفة مع دوبريك تفحصه بدقة وفتش في جيوبه واستولى على كل ما بدا له انه ذو قيمة أو أهمية.

عاد غرونيار يحمل حقيبة سوداء كبيرة ووضعها في غرفة كلاريس، ثم قام الاربعة بوضع دوبريك جالساً في الحقيبة وجعلوه يحني رأسه من أجل اقفال الغطاء.. وقال له لوبين:

– لا أقول طبعاً ان الأمر مريح كما هو في سرير عربة النوم أيها النائب العزيز. ومهما يكن فهو أفضل من ان تكون في تابوت، ففي الحقيبة يمكنك ان تتنفس على الأقل..

تناول لوبين زجاجة قريبة منه وفتحها وعاد يقول لدوبريك:

– القليل بعد من الكوروفورم.. يبدو لي أنك احببته.

ثم وصل لوباهو يقود السيارة الجديدة وقال للوبين:

– السيارة تحت يا معلمي.

– انزلا الحقيبة بنفسكما. واياكما ان تكلاها إلى خادم الفندق، الأمر في غاية الخطورة.

– وإذا التقيناه في الطريق؟

– حسناً، ألست سائقاً يا لوباهو. أحمل حقيبة سيدتك من الغرفة ١٣٠ التي سترافقك وتصعد في سيارتها.. لتنتظرني على بعد ٢٠٠ متر من هنا. ساعدها انت يا غرونيار على تحميل اغراضها، يجب ان تقفل أولاً باب الاتصال.

عاد لوبين إلى الغرفة وأغلق الدفة الاخرى ثم دخل المصعد. وفي مكتب الفندق قال للمسؤول:

– طلب مني السيد دوبريك اعلامكم انه استدعي على عجل إلى مونت كارلو. وكلفني أيضاً ابلاغكم انه لن يعود قبل بعد غد. ولتبقَ الغرفة بحسابه وجميع اغراضه فيها. وهذا هو المفتاح.

غـادر الفندق واتجـه نحـو سيـارتـه حيث كـانت كـلاريس بانتظاره تتململ وتقول:

– لا يمكن ان تكون في باريس غـداً صباحـاً! انه ضرب من الجنون.. ان ادنى عطل..

– أنا وأنت نركب القطار.. وهذا أضمن لنا.

أمر رفيقيه بقيادة السيارة إلى باريس وطلب إليهما الاعتنـاء بدوبريك وحقنه بالكلوروفورم كل أربع ساعات.. ثم ركب سيارة نقلته إلى مركز البريد وأرسل برقية هذا نصها:

«السيد برازفيل. ادارة الشرطة. باريس.

وجدنا الشخص احضر الوثيقة غداً الساعة الحاديـة عشرة. رسالة عاجلة. كلاريس».

عند الثانيـة والنصف كان لـوبين وكـلاريس قد وصـلا إلى المحطة.

وقالت كلاريس التي كانت تتهيب كل شيء:

– أمل ان نجد اماكن في القطار.

– مكان؟ لماذا، فغرف نومنا محجوزة مسبقاً.

– من حجزها؟

– جاكوب، وبأمر من دوبريك!

– كيف؟

– سيـدتي.. اخبروني في مكتب الفنـدق انهم حملوا رسـالة إلى دوبريك وصلته بالبريد السريع.. كانت الرسالة تأكيـد حجز السريرين في القطار. وعلاوة على ذلك لدي بطاقته النيابية. نحن

مسافران باسم النائب دوبريك وزوجته وسنعامل وفقاً للاعتبارات الخاصة بمكانتنا.

بدت المسافة قصيرة هذه المرة بالنسبة للوبين، سأل كلاريس فقصت عليه كل ما فعلته خلال الأيام الأخيرة. وشرح لها هو اعجوبة دخوله غرفة دوبريك في الوقت الذي كان خصمه يظنه موجوداً في ايطاليا

ـ هذا ما أتحرق إلى معرفته، كيف تمكنت من دخول الغرفة في الوقت الذي كان يحاول الاعتداء عليّ. لأني تتبعت تحركات جاكوب. عاد دوبريك إلى فندقه.. وترك جاكوب يرابط امام مكتب الهاتف وصعد إلى غرفته. وبعد عشر دقائق كنت اعرف رقم غرفته.. وكنت اعلم قبلاً ان سيدة تقيم في الغرفة ١٣٠. فقلت لغرونيار ولوباهو اعتقد اننا عثرنا عليه. قرعت باب غرفتك مرتين ولم أحصل على جواب . الباب كان مقفلاً.

ـ وماذا فعلتم؟

ـ فتحناها.. ولم نجد أحداً.. ولكن باب الاتصال الداخلي كان مفتوحاً قليلاً. تسللت منه.. ووجدت ان رداءً بسيطاً يفصلني عنك وعن دوبريك.. وعن علبة التبغ الموضوعة فوق المدفأة.

ـ كنت تعرف المخبأ إذاً؟

ـ من خلال عملية تفتيش في مكتب دوبريك في باريس لاحظت ان علبة التبغ اختفت.. ولكن..

ـ ولكن ماذا؟

ـ كنت اعلم من خلال بعض الاعترافات التي ادلى بها دوبريك في غرفة التعذيب في برج العاشقين ان كلمة «ماري»

تتضمن مفتاح اللغز.. ولكن بداية كلمة أخرى هي التي جعلتني أدرك وأتيقن وفي اللحظة التي فقدت فيها العلبة..

ـ أية كلمة؟

ـ ماريلاند.. تبغ ماركة ماريلاند. الوحيد الذي يدخنه دوبريك استغرق لوبين في الضحك ثم مسح عينيه وعاد يقول بجدية:

ـ كم هو خبيث ومحتال دوبريك هذا! نبحث ونفتش في كل مكان تصل إليه أيدينا. كانت العلبة مرمية فوق مكتبه وبين أوراقه وغلايينه وعدد آخر من علب التبغ من ماركات أخرى. ولم يكن يتوقع ان يتنبه أحد ويكشف مخبأ السدادة البلورية البسيط. وهناك أمل انها ستبقى في منأى عن اعين الجميع ودون ان ينتبه إليها أحد...

كانت كلاريس تستمع وكلها آذان صاغية وان كان كل ما يسرده لوبين لا يهمها.. همها الوحيد هو خلاص ابنها من يد الجلاد. وسألته بلهفة:

ـ هل ستنجح؟

ـ تماماً.

ـ ولكن برازفيل غير موجود في باريس.

ـ إذا لم يكن هناك فهو في الهافر، قرأت ذلك في صحيفة أمس، على كل حال ان برقيتنا ستعيده إلى باريس فوراً.

ـ وتعتقد انه سيكون له نفوذ ما؟

ـ للحصول شخصياً على عفو عن جيلبير وفوشري، لا، إنه بحاجة إلى قليل من الذكاء ليعرف قيمة ما نجلبه له.. ولكي يتصرف دون تأخير.. ولو لدقيقة واحدة.

- ولكن الا تعتقد، تحديداً، انك تخطىء حول تلك القيمة؟

- ودوبريك كان على خطأ إذاً؟ الم يكن دوبريك في وضع جيد وأفضل من أي انسان آخر ليعرف القيمة المطلقة لهذه الورقة؟ فكري في كل ما فعله.. ولسبب واحد وهو ان يعرف الجميع انه يملك اللائحة. كنا نعرف وهذا كل شيء. لم يستخدم هذه اللائحة ولكنه كان يملكها. ومن خلال ملكيته لها قتل زوجك. لقد بنى ثروته الضخمة على حساب التشهير بالشخصيات المذكورة في لائحة «السبعة والعشرون» وبالتالي تدمير حياتهم، امس قام احد المقربين من دالبوفكس بالانتحار في سجنه. لا اطمئني، مقابل تسليم هذه اللائحة سنطالب بما نريد. سنطالب بماذا؟ بلا شيء.. وبأقل من اللاشيء... براءة طفل في العشرين من العمر..

سكت عن الكلام ونظر ناحية كلاريس فوجدها تنام مقابله بعد ان ارهقتها الانفعالات.

وصلا إلى باريس عند الثامنة صباحاً. برقيتان كانتا بانتظار لوبين في منزله في ساحة كليشي واحدة وصلت أمس من افينيون تقول ان كل شيء يسير على خير ما يرام ومن المتوقع الحضور في الموعد المحدد مساءً. والبرقية الثانية كانت من برازفيل، مرسلة من الهافر باسم كلاريس وفيما يلي نصها:

«من المستحيل العودة صباح غد الاثنين. احضري إلى مكتبي عند الساعة الخامسة إني اعول عليك جداً».

وقالت كلاريس. الساعة الخامسة، وقت متأخر جداً.

- موعد ممتاز.

- ولكن إذا..

– إذا كان التنفيذ سيتم غداً صباحاً؟ هذا ما تريدين قوله؟ لا تخافي من الكلمات لأن التنفيذ لن يتم.

– الصحف...

– الصحف.. لم تقرئيها.. وأمنعك من قراءتها.. كل ما يمكن ان تقوله لا يعني شيئاً، شيء واحد يهم لقاؤنا مع برازفيل...

سحب إناءً صغيراً من خزانة.. ثم وضع يده فوق كتف كلاريس وقال لها.

– تمددي فوق هذه الكنبة واشربي بعض جرعات من هذا الإناء.

– ما هذا؟

– سيجعلك تنامين لعدة ساعات . وتنسين..

– لا، لا.. جيلبير لا ينام هو أبداً. ولا ينسى.

– اشربي.

– خضعت فجأة وتمددت بهدوء فوق الكنبة وأغمضت عينيها. وبعد دقائق قليلة كانت تغط في نوم عميق.

التفت لوبين إلى خادمه وقال:

– الصحف.. بسرعة، هل اشتريتها؟

– اليكها يا معلمي.

تناولها لوبين وفتح واحدة منها، فوقع نظره على هذه الاسطر:

«شريكا ارسين لوبين

عرفنا من مصادر اكيدة أن شريكي ارسين لوبين وهما

جيلبير وفوشري سينفذ بهما حكم الاعدام صباح غد الثلاثـاء.. زار السيد دابلر مكان التنفيذ ووجد كل شيء جاهزاً».

رفع لوبين ناظريه عن الصفحة وقال يخاطب نفسه متحـدياً. شريكا ارسين لوبين! يا له من مشهد جميل! وكم سيكـون هناك من المشـاهدين لـرؤية هـذا! آسف يا سـادة! ولكن الستار لن يرفع. انا السلطة!

ودق فوق صدره بتكبر وكرر: أنا السلطة!

وعند الظهر تسلم لوبين برقية بعث إليه بها لوباهو من ليون وجاء فيها: «كل شيء على ما يرام، الطرد سيصل دون تأخير».

استيقظت كلاريس عند الساعة الثـالثة. وأول عبـارة نطقت بها كانت:

ـ غداً سيتم التنفيذ؟

لم يجب. ولكنها رأته هادئاً يبتسم.. شعرت بطمأنينـة كبيرة وخامرها انطباع بأن كل شيء انتهى بفضل ارادة صديقها..

غادرا عند الساعة الرابعة وعشر دقائق.

كان سكرتير برازفيل قد أخطر هاتفياً.. وما ان وصـلا حتى ادخلهما إلى المكتب وطلب إليهما ان يتفضلا وينتظرا.

كانت الساعـة تشير إلى الخـامسة إلا ربعـاً. وعند السـاعة الخـامسة تمـاماً دخـل برازفيـل مسرعاً إلى مكتبـه وصرخ على الفور:

ـ هل اللائحة معك؟

ـ نعم.

ـ هاتها.

مد يده، وقفت كلاريس ولم تقل شيئاً، نظر إليها برازفيل لحظة، تردد ثم جلس. فهم كل شيء، عندما كانت كلاريس مرجي تلاحق دوبريك لم تكن تتصرف بدافع الكراهية وبرغبة الانتقام، كان هناك سبب آخر يدفعها إلى ذلك. ان تسليم اللائحة لن يتم إلا بموجب بعض الشروط.

وقال برازفيل.

ـ اجلسي. أرجوك، وهو بذلك أعرب عن قبوله الحوار.

جلست كلاريس دون ان تقول شيئاً، نظر إليها برازفيل وقال:

ـ تكلمي يا صديقتي العزيزة وبكل صراحة. وليس عندي ما يمنع من ان اقول اننا نرغب فعلاً بالحصول على تلك اللائحة..

ـ إذا كان ذلك مجرد رغبة فأخاف الا نتفق

ـ هذه الرغبة ستؤدي بنا طبعاً إلى بعض التضحيات.

ـ إلى كل التضحيات . وليس بعضها فقط.

ـ طبعاً. ولكن شريطة ان نبقى ضمن الرغبات المقبولة.

ـ وحتى إذا خرجنا عن اطار المعقول منها.

تريث برازفيل وسألها:

ـ ما الأمر؟ تفضلي واشرحي لي.

ـ سامحني يا صديقي العزيز. كنت أصر قبل كل شيء على تسجيل الأهمية الكبرى التي تعطيها لهذه الورقة. ونظراً لعملية التبادل المباشر التي سنبرمها وقوتها.. وبما ان قيمة هذه الورقة لا حدود لها.. فلهذا يجب ان تتم مبادلتها مقابل قيمة لا حدود لها أيضاً.

ـ اتفقنا.

ـ لا فائدة كما اعتقد من تكرار سرد تاريخي جديد للموضوع وأعدد من ناحية المصائب التي أمكنك تفاديها بامتلاك هذه الورقة ومن ناحية ثانية الفوائد التي لا تحصى والتي يمكنك جنيها من امتلاكك لها.

تمالك برازفيل نفسه وبذل ما في استطاعته للرد على هذه السيدة بطريقة مهذبة:

ـ أقبل كل هذا. هل انتهيت؟

ـ عفوك يا سيدي. ولكن لن نعرف كيف نتفاهم في غياب الوضوح، وهناك نقطة أخرى يجب ان نوضحها. هل انت في وضع يسمح لك بالتفاوض شخصياً؟

ـ كيف هذا؟

ـ لا أسألك إذا كنت تملك سلطة تسوية الأمر في الحال.. ولكن إذا كنت تمثل امامي فكرة الذين يعرفون القضية وقادرون على تسويتها

ـ نعم.

ـ يمكنني بعد ساعة من اطلاعك على شروطي ان احصل على جوابك؟

ـ نعم.

ـ وهل هذا الجواب سيكون جواب الحكومة؟

ـ نعم.

اقتربت كلاريس منه وقالت بصوت قوي:

ـ هل سيكون جوابك هو جواب قصر الاليزيه؟

اعترت الدهشة برازفيل قليلاً. فكر لحظة ثم قال:

نعم.

وأنهت كلاريس حديثها قائلة: يبقى لي ان اطلب كلمة شرف منك وهو انه إذا بدت شروطي غير مفهومة بالنسبة لك، لا تلح كي اكشف لك السبب.. انها كما هي. جوابك يجب ان يكون بنعم أو بلا.

ـ أقسم لك بشرفي.

اعترى الانفعال كلاريس فبدت للحظات أكثر شحوباً مما كانت عليه، ولكنها تمالكت نفسها وحدقت في برازفيل وقالت.

ـ لائحة «السبعة والعشرون» مقابل العفو عن جيلبير وفوشري.

ـ ماذا؟!

هب برازفيل واقفاً وكأن صاعقة انقضّت عليه وصرخ:

ـ العفو عن جيلبير وفوشري، شريكي ارسين لوبين؟

ـ نعم.

ـ قاتِلا فيلار ماري تريز؟ واللذان سيعدمان غداً صباحاً؟

ـ نعم هما بالذات، اني أطالب وأصر على براءتهما.

ـ ولكن هذا هراء! لماذا؟ لماذا؟

ـ اذكرك يا برازفيل بالوعد الذي قطعته.

ـ نعم. نعم، ولكن لم اتوقع ان يكون هذا شرطك.

ـ لماذا؟

ـ لماذا؟ ولاسباب عديدة.

ـ ما هي؟

ـ جيلبير وفوشري محكوم عليهما بالاعدام.

ـ يرسلونهما إلى السجن. هذا كل شيء.

ـ مستحيل. القضية أثارت ضجة كبيرة. انهما شريكا ارسين لوبين، واصبح الحكم النافذ بحقهما معروفاً من كل العالم.

ـ والمهم؟

ـ المهم.. اننا لا نستطيع لا. لا. لا يمكننا ان نقف في وجه حكم العدالة.

ـ ليس المطلوب منك هذا. المطلوب هو طلب استبدال عقوبة الموت بالعفو. وطلب العفو هو أمر شرعي.

ـ لجنة العفو رفضت.

ـ ليكن. انما يبقى رئيس الجمهورية.

ـ رفض هو أيضاً.

ـ ليتراجع عن رفضه.

ـ مستحيل.

ـ لماذا؟

ـ ليس هناك من سبب يدفعه إلى العودة عن رفضه.

ـ انه ليس بحاجة لسبب.. حق العفو أمر مطلق. ويمارس بدون رقابة أو سبب أو حجة أو تفسير.. ليستخدمه رئيس الجمهورية لصالح الشعب وليس لرغباته الخاصة.

ـ ولكن الأمر جاء متأخراً جداً.. وكل شيء جاهز للتنفيذ

الذي سيتم خلال ساعات.

- ساعة واحدة تكفيك للحصول على الجواب والعودة إلينا

- هـذا هو الجنـون بنفسه. ان مطـالبـك الملحـة تصطـدم بعراقيل يصعب تخطيهـا. اكرر لـك ان الأمر مستحيـل، عملياً مستحيل.

- يعني انك ترفض؟

- نعم. أرفض.

- في هـذه الحالـة لم يبق لنـا سـوى ان ننسحب. واتجهت ناحية الباب تهم بالخروج ولحق بها السيد نيقول.

قفز برازفيل واعترض طريقهما قائلاً: إلى اين تذهبان؟

- يبدو لي يا صديقي العزيز ان محادثاتنا انتهت. وبما انك تعتقد ان رئيس الجمهورية لا يهمه أمر هذه اللائحة وانها لا تساوي شيئاً في نظره..

وقاطعهما برازفيل قائلاً· ابقيا.

ثم تقـدم من الباب وأقفلـه بـالمفتـاح دورة واحـدة، ثم راح يـذرع أرض الغرفـة جيئة وذهـابـاً يـداه وراء ظهـره ورأسـه مطأطئاً.

لم ينبس لـوبـين بكلمـة واحـدة طـوال الحـوار ولكنـه اكتفى بالمراقبة.. وراح يردد في نفسه:

- يا لها من روايات. كم يجب اتباع اسـاليب ملتويـة لبلوغ الحل الذي لا مفرّ منه. كيف يرفض برازفيـل الانتقام من ألـد أعدائه؟

وفي هذه الاثناء قام برازفيل وفتح باباً داخليـاً صغيراً يطـل

على مكتب سكرتيره الخاص. وقال له بصوت مميز:

ـ سيد لارتيغ، اتصل بقصر الاليزيه وقل لهم اني ألتمس مقابلة غاية في الأهمية.

ـ أغلق الباب وعاد إلى كلاريس وقال لها:

ـ على كل حال ان تدخلي يقف عند تقديم اقتراحك.

ـ لا بأس، أقبل.

ولكن الشك خامر لوبين فراح يسأل نفسه:

ـ لماذا يفعل برازفيل كل هذا إكراماً لكلاريس؟

يجب ان أحل عقد هذا القناع.. فليس من الطبيعي ان يشغل انسان نفسه ويهتم بانجاز عمل ليس له فيه مصلحة مباشرة. لماذا يريد هو أيضاً انقاذ جيلبير وفوشري؟ لماذا؟.. لا بد ان هناك فكرة مرت في مخيلة هذا الموظف.. فكرة غامضة لا تفسر ابداً.. يجب الا يحزرها.

وعاد السكرتير يقول ان الموعد مع رئيس الجمهورية تحدد بعد ساعة.

ـ ورد برازفيل: حسناً. اشكرك. دعنا الآن.

التفت إلى كلاريس وقال.

ـ اعتقد انه بالإمكان تدبير امورنا. ولكن قبل كل شيء وللقيام تماماً بالمهمة الملقاة على عاتقي يجب ان أحصل على معلومات أكثر دقة وتوثيق شامل. اين هي الورقة؟

ـ انها في السدادة البلورية كما نفترض.

ـ والسدادة البلورية هذه.. اين هي؟

ـ في شيء جاء دوبريك يبحث عنه قبل أيام فوق طاولة مكتبه في منزله في ساحة لامارتين.. شيء أخذته منه انا أمس الأحد.

ـ وهذا الشيء ما هو؟

ـ انه عبارة عن علبة تبغ ماركة ماريلاند كانت مـرمية فـوق الطاولة.

ـ مع العلم انني لمست أكثر من عشر مرات تلك العلبة.. ولم أبه بها.

ـ ما الفائدة؟ المهم أن يتحقق الاكتشاف.

تململ برازفيل وتمنى لو أن الاكتشاف تم بواسطته هو شخصياً لكان الأمر الآن يختلف تماماً. ثم سأل·

ـ اللائحة في حوزتك؟

ـ نعم

ـ هنا؟

ـ نعم.

ـ أرينيها.

وعندما ترددت كلاريس قال لها:

ـ أرجوك، لا تخافي شيئاً، هذه اللائحة ملكك وسأعيدها إليك. ولكن عليك أن تفهمي أنه لا يمكنني عمل شيء أو القيام بخطوات تجاه الموضوع دون ضمان.

نظرت كلاريس إلى السيد نيقول وكأنها تستشيره. ثم قالت: ها هي.

تناول الورقة بيد مرتعشة.. تفحصها ثم قال على الفور:

ـ نعم. نعم. هـذا خط أمين الصنـدوق.. عرفتـه.. وتـوقيـع رئيس الشركة.. التوقيع الأحمر.. وأنا لديّ أدلة أخرى.. مثـلاً، قصاصة الورق الممزقـة التي تكمل الـزاوية اليسرى العليـا من هذه الورقة.

فتح خزانته وتناول من صحن صغـير قصاصـة صغيرة من الورق وقرّبها من الزاوية اليسرى العليا.. وقال:

ـ إنها هي. الزاويتان الممزقتان تتبعان تماماً، الدليل لا غبار عليه. يبقى فقط التأكد من طبيعة هذا الورق الناعم.

وفيما كان برازفيل يضع الورقـة فوق زجـاج النافـذة، قالت كلاريس للوبين:

ـ يجب أن تصر على إخطار جيلبـير هذا المسـاء. لا بد أنـه يعيش حالة نفسية مؤلمة جداً.

ـ طبعاً. يمكنك الذهاب إلى محاميه ليتولى المهمة.

ـ أريد أن أرى جيلبير غداً صباحاً وليفكر برازفيل ما يريد.

ـ اتفقنا، ولكن يجب أن يحصل على أمر العفو من الاليزيه.

ـ ألا يمكن أن تواجهنا صعوبات أخرى من ناحيته؟

ـ لا. ألا ترين كيف أنه خضع لكل شيء.

عاد برازفيل إلى خزانتـه واخرج أوراق رسـائل من الصحن الصغير وفحص ورقة شفافة والتفت ناحية كلاريس وقال:

ـ انتهينا. كان عملاً دقيقاً جداً وعلى اثره تكون لديّ القناعة التـامة.. مـررت في مراحـل.. شككت في الأمر.. ولكن ليس دون سبب...

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ لحظة من فضلك، يجب أن اعطي أمراً.

نادى سكرتيره وقال له: اتصل فوراً بالرئاسة وأخبرهم أن المقابلة لم تعد ذات قيمة. اعتذر لهم.. وسأشرح فيما بعد الأسباب التي دعتني في آخر لحظة إلى الغائها.

أغلق الباب وعاد إلى مكتبه.

كان لوبين وكلاريس ينظران إليه مرعوبين دون أن يفهما هذا التبدل المفاجيء. هل تراه مجنوناً؟ أم أنها مغامرة من ناحيته؟ أم تهرباً من وعد؟ أم انه يرفض ما تعهد به بعد أن اصبحت اللائحة في يده؟

اعاد اللائحة إلى كلاريس وقال:

ـ يمكنك أن تأخذيها.

ـ آخذها؟

ـ وتعيديها إلى دوبريك.

ـ إلى دوبريك؟

ـ هذا إذا لم تفضلي احراقها..

ـ ماذا تقول؟

ـ اقول أنني لو كنت مكانك.. لأحرقتها.

ـ لماذا تقول هذا؟ انه أمر في منتهى الغموض.

ـ على العكس.. في منتهى العقلانية.

ـ ولكن.. قل. لماذا؟

ـ لماذا؟ سأشرح لك: لائحة «السبعة والعشرون» كتبت على ورق رئيس شركة القنال الخاص والذي أملك منه بعض النماذج

في هذا الصحن. وكل هذه الأوراق مطبوع عليها صليب اللورين غـير المرئي تقـريباً. ولكن يمكنـك أن تريـه بوضـوح من خلال الورق الشفاف. ولا أرى على الورقة التي أحضرتيها لي الصليب اياه.

شعر لوبين باهتزاز عصبي من رأسه حتى أخمص قـدميه.. ولم يجرؤ على الالتفات ناحية كلاريس.. ولكنه سمعها تتمتم:

ـ يجب أن نفترض بأن دوبريك غرر به.

ـ أبداً. الذي غرر به هو أنت يا صديقتي المسكينة. دوبريك يملك اللائحة الصحيحة والتي سرقها من خزانة المغدور به.

ـ ولكن هذه؟

ـ هذه مزورة.

ـ مزورة؟

ـ نعم، إنها حيله من حيل دوبريـك. عرف انـك تبحثين عن السدادة البلوريـة فدس فيهـا أي شيء كان.. بينمـا احتفظ هو باللائحة الصحيحة.

ـ وما العمل؟

ـ أنا اسألك ذلك.

ـ اترفض ما رجوتك فيه.

ـ طبعاً. إني مجبر على ذلك.

ـ صحيح أنك ترفض ما اتفقنا عليه.

ـ هل ما اتفقنا عليه ممكن؟ لا يمكن أن اقوم بخطوة كهـذه استناداً إلى وثيقة لا قيمة لها.

ـ فعلاً لا تريد؟ وغداً صباحاً.. جيلبير!

تراجعت وقد علا وجهها الاصفرار والخوف وبدأت أسنانها تصطك وغارت عيناها. أمسك بها لوبين محاولاً إبعادها ولكنها أبعدته وأسرعت نحو برازفيل فأمسكت به وراحت تهزه بعنف وتردد:

ـ ستذهب إلى هناك.. ستذهب الآن.. يجب أن تذهب.. يجب انقاذ جيلبير.

ـ ارجوك يا صديقتي العزيزة... هدئي روعك. تركته وراحت تقهقه وتقول:

ـ أهدأ، كيف؟ وغداً.. آه.. لا أريد أن اتصور. شيء مرعب. اسرع إلى هناك أيها التعيس. واحصل على العفو، ألا تفهم؟ جيلبير.. جيلبير.. انه ابني.. انه ابني.

ـ صرخ برازفيل مرتاعاً عندما شاهد سكيناً حاداً يلمع في يد كلاريس وهي ترفعه لتنحر نفسها به.. ولكنها لم تنجح.. فقد انتزع لوبين السكين منها وأجلسها وقال: «ان ما تفعلينه هو الجنون بعينه... وبما أنني وعدتك بانقاذه يجب أن تعيشي من اجله.. جيلبير لن يموت.. هل يعقل ذلك بعد أن اقسمت لك!!

ـ جيلبير ابني.

شدها بعنف وادارها ناحيته ثم وضع يده على فمها وقال: هذا يكفي، اسكتي. ارجوك ان تسكتي فوراً.. جيلبير لن يموت.

ثم التفت ناحية برازفيل وقال:

ـ انتظرني يا سيدي.. إذا كنت تصر على لائحة «السبعة والعشرون» الحقيقية والصحيحة.. خلال ساعتين أو ثلاث

سأعود بها ونتكلم بشأنها.

وعاد ناحية كلاريس وقال أيضاً: وأنت يا سيدتي تشجعي قليلاً. اني آمرك أن تفعلي ذلك.. وباسم جيلبير.

وخرج لوبين ومعه كلاريس.

وبعد خروجهما عاد برازفيل فجلس وراء مكتبه وراح يستعرض الأحداث المفاجئة مشدوهاً ويفكر بتصرف السيد نيقول وما بدر عنه.. وهو الذي في رأيه لا يتعدى كونه إنساناً هامشياً يلعب دور المستشار لدى كلاريس.. فيظهر فجأة بمظهر الآمر القوي المستعد لتخطي كافة العراقيل التي تعترض طريقه.

من تراه قادراً على التصرف هكذا.

شيء واحد كان يقلق برازفيل: هو أن وجه السيد نيقول ومظهره لم يكن لهما أية علاقة، ولو من بعيد، مع صور لوبين التي يعرفها برازفيل تماماً. كان هذا إنساناً مختلفاً. ولكن ألم يكن برازفيل يعرف أيضاً أن كل قوة لوبين تكمن بالتحديد في قدرته الرهيبة على التحول؟ وليس في ذلك أدنى شك.

خرج برازفيل من مكتبه على عجل والتقى مفوضاً أمنيّاً فسأله بفتور: هل وصلت الآن؟

ـ نعم، يا سيدي.. الأمين العام.

ـ هل شاهدت سيداً وسيدة في طريقك؟

ـ نعم، في الساحة.. منذ دقائق فقط.

ـ اتعرف هذا الشخص . إذا التقيته ثانية؟

ـ نعم، أعتقد ذلك.

ـ لا مجال لإضاعة الوقت.. خذ معك ستة مفتشين وانطلقوا فـوراً إلى ساحـة كليشي. اريد تحقيقـاً عن السيـد نيقـول وأن تقوموا بمراقبة المنزل بدقة. لا بد أن هذا السيد في طـريقه إلى هناك.

ـ وإذا لم يدخل المنزل يا سيدي الأمـين العام؟

ـ خذ، هذا أمر بإلقاء القبض عليه.

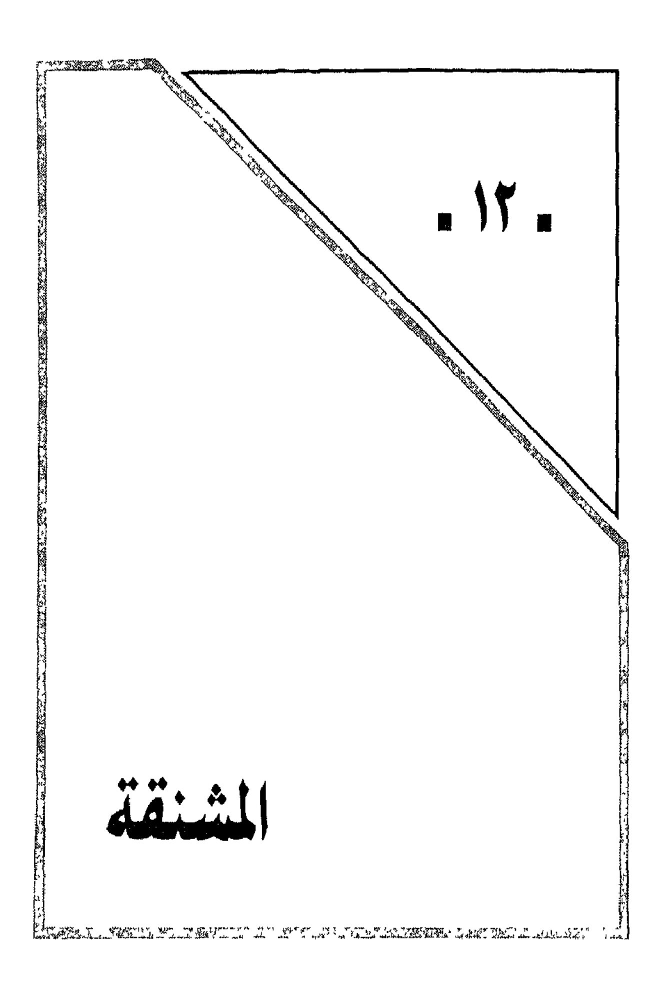
عاد برازفيل إلى مكتبه فجلس وكتب اسماً فوق ورقة أمامه.

وإذا بمفوض الأمن يدخل عليه دهشاً ويقول: الأمـين العام حدثني عن السيد نيقول.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ أمر التوقيف باسم ارسين لوبين.

ـ نيقول وارسين لوبين هما شخص واحد.



١٢

المشنقة

في السيارة التي أقلته أكد لوبين لكلاريس أنـه سيعمل كـل شيء لانقاذ جيلبير.. لم تكن لتستمع إليه، كان تفكيرها قد تحول إلى كابوس الموت ولكنه مضى يشرح لها مخططاته ليس لإقناعها فقط بل ليتأكد هو نفسه من صحتها وجدواها.. فقال:

ـ لا. لا. الموضوع ليس مفروغاً من امره. هناك ورقة هامـة يجب التمسك بها. وأعني بهـا الرسـائل والـوثائق الي عـرضها النائب السابق فورنغلاد على دوبريـك والتي حدثـك عنها هـذا الأخير صباح أمس في نيس. سأشتريها من فورنغلاند وبـالثمن الذي يريده، ثم نعود إلى مركز الشرطة وأقول لبرازفيل: «اسرع إلى الرئاسة واستخدم اللائحة كما لو انها كانت صحيحة وانقذ جيلبير من الموت.. وإلا فإن رسائـل ووثائق فـورنغلانـد ستنشر غداً صباحاً في صحيفة كبيرة. فورنغـلاند مـوقوف، وفي المسـاء يوقف برازفيل.

فرك لوبين بيديه فرحاً وأضاف:

سيفعل.. سيفعل.. اني اشعـر أن خطتنا ستنجـح العنوان في جيب دوبريك.. هيا بنا فوراً إلى بوليفار راسباي.

وصلا إلى العنوان المذكور. قفز لوبين من السيارة وصعد إلى

الدور الثالث. اجابته الخادمة بأن فورنغلاند غائب ولن يعود ألا مساء غد ليتناول العشاء في منزله.

- ألا تعرفين إلى أين ذهب؟

- انه في لندن.

عاد لوبين إلى السيارة ولم ينبس بكلمة وحتى كلاريس نفسها لم تسأله بعد أن اصبحت لا تعير الأحداث وتطوراتها اهتماماً يذكر وبدأت تنظر إلى أن موت ابنها أصبح أمراً مفروغاً منه.

قادهما السائق إلى ساحة كليشي..

وفي اللحظة التي كان يهم فيها لوبين بدخول منزله اعترضه شخصان خرجا لتوهما من منزل الحارس، كانا اثنين من المفتشين الذين ارسلهم برازفيل لمراقبة المنزل. دخل وسأل خادمه أشيل:

- هل هناك من برقيات؟

- لا يا سيد.

- لا اخبار جديدة عن لوباهو وغرونيار؟

- لا. لم يصل منهما شيء.

- التفت إلى كلاريس وقال:

- كل شيء يسير بشكل طبيعي، الساعة السابعة الآن ولا يمكننا الاتكال عليهما قبل الثامنة أو التاسعة. برازفيل سينتظر. هذا كل شيء. سأتصل به لينتظر.

أنهى لوبين المكالمة وإذا به يسمع تأوهاً خلفه.

كانت كلاريس تقرأ صحيفة مسائية قرب الطاولة. وضعت

يـدها فـوق قلبها ثم تـأرجحت وسقطت أرضاً. سـارع لـوبـين وخادمه أشيل إلى تقديم الاسعافات الأولية لها. ووجد الأول أنه من الافضل ان تنام.. فقام باعطائها شراباً منوماً جعلها تشربـه بقوة.. وقال لخادمه انها سترتاح الآن وتنام حتى صباح الغد.

تصفح لوبين الصحيفة التي كانت تقرأها كلاريس ولا زالت تمسك بها بقوة.. ووقع نظره على خبر بالخط العريض يفيد بأن كـافة الاستعـدادات باتت جـاهزة لتنفيـذ حكم الاعـدام غـداً بجيلبير وفوشري وان هناك احتمالات في أن يقوم ارسين لـوبين بانقاذ زميليه من القصاص الأعظم.. وقـد سدت جميـع الطرق المؤدية إلى سجن «لاسنتيه» وأن الاعـدام سينفذ أمـام جدران السجن في بوليفار اراغون.

وقرأ لوبين أن فوشري يسخر من الموت بعكس جيلبـير الذي لا زال يلتزم الصمت ويأمل دائماً بقوة ارسين لـوبين.. ويـذكر أن معلمـه قال لـه ذات مرة ألا يخـاف وأنه سيكـون دائماً إلى جانبه أينما كان ولن يتخلى عنه ولو كان عند اسفل المشنقة، ان لوبين لن يسمح بموت صديقه جيلبير..

وما أن انتهى لوبين من القراءة حتى كانت عيناه تغـرورقان بالدموع.. دموع الحنان دموع الشفقة والحزن.

لا. انه لا يستحق ثقة صديقه الصغير جيلبير، طبعاً لقد فعل المستحيـل ولكن هناك ظـروفاً تفـرض عليه أن يفعـل أكثـر من المستحيل نفسه.. وحيث يجب أن يكون أقوى من القدر.. ولكن هذه المرة كان القدر أقوى منه.. فمنـذ اليوم الأول وطـوال هذه المغامرة المحزنة سارت الأحداث عكس تـوقعاتـه وعكس المنطق نفسه.. لقد اضـاع هو وكـلاريس ـ ورغم إنهما كـانا يعمـلان لهدف واحد ـ أسابيع بكاملها.. وفي الوقت الذي قـررا توحيـد

جهودهما بدأت الكوارث تتوالى ابتداءً من اختطاف الصغير جاك واختفاء دوبريك وسجنه في برج العاشقين ثم اصابة لوبين بجراح والمناورات المغلوطة التي قادتهما إلى الريف وإيطاليا.

بكى لوبين من جديد.. ليس غضباً أو ندامة.. ولكن يأساً.. جيلبير سيموت.. هذا الذي كان يسميه دائماً صغيره وأفضل رفاقه.. سيختفي خلال ساعات وإلى الأبد.. ولا يستطيع انقاذه..

كانت قناعته إزاء عدم القدرة هذه عميقة ونهائية إلى درجة أنه لم يهتز أو يثور عند تلقيه هذه البرقية من لوباهو:

«عطل في المحرك، انكسار قطعة تحتاج لوقت طويل نسبياً لاصلاحها، نصل غداً صباحاً».

نظر إلى كلاريس فوجدها تنام بارتياح. فقرر هو أن يفعل نفس الشيء وأن يكف عن التفكير إما انهزاماً أمام القدر أو حسداً من كلاريس.. تناول الشراب المنوم فجرع منه كمية لا بأس بها ودخل غرفته ثم تمدد فوق سريره ونادى خادمه:

- اذهب ونم يا اشيل، لا توقظني مهما كان السبب.

- ولن تفعل شيئاً يا معلمي من أجل جيلبير وفوشري.

- لا شي.

- سيعدمان؟

- سيعدمان.

وبعد عشرين دقيقة فقط كان لوبين يغط في نوم عميق.

***

كانت الساعة العاشرة ليلاً.

وكانت ليلة مربكة فعلاً لا تهدأ فيها الحركة حول السجن. فمنذ الساعة الواحدة صباحاً بدأ الجنود يسدون كل المنافذ المؤدية إلى السجن، وتم اقفال النوادي الليلية والمقاهي بأمر من الشرطة وكانت الدوريات الراجلة والمحمولة تجول في المنطقة. وهرع إلى المكان عدد من موظفي أمانة الشرطة وهو أمر غير عادي في ظروف كهذه.

تم نصب المشنقة بصمت وعند تقاطع البوليفار والشارع.. ولكن صوت المطارق كان يسمع من بعيد.

تجمهر الناس عند الساعة الرابعة صباحاً رغم هطول الأمطار. وصلت السيارات تنقل عدداً من الشخصيات الرسمية باللباس الاسود. تعالى التصفيق وتبعته الاحتجاجات وقام عدد من حراس البلدية فوق جيادهم بتفريق المتظاهرين وابعادهم إلى مسافة ٣٠٠ متر عن المشنقة، وتم نشر سريتين ثانيتين من الجنود.

وفجأة خيم صمت كبير، وشع بياض غامض وسط الظلام الدامس. وتوقف المطر عن الهطول.

وفي الداخل وفي نهاية الممر حيث توجد زنزانات المحكومين بالموت كانت الشخصيات المجللة بالسواد تتحدث بصوت منخفض.

كان برازفيل يتحدث مع المدعي العام الذي أعرب له عن مخاوفه، وأكد له برازفيل: لا، لا. أؤكد لك أن العملية ستمر بسلام.

ـ ألا تشير التقارير إلى عكس ذلك يا سعادة الأمين العام؟

ـ لا شي، ولا يمكنها أن تشير إلى السبب الذي نعرفه عن لوبين.

ـ هل هذا معقول؟

ـ نحن نعرف أين هو الآن. إنه يقيم في منزله في ساحة كليشي وقد دخلها عند الساعة السابعة مساء أمس. المنزل محاصر. وأنا أعلم علاوة على ذلك المخطط الذي أعده لإنقاذ شريكيه. وقد فشل المخطط في آخر لحظة. ليس هناك ما نتخوف منه، العدالة ستأخذ مجراها.

وقال محامي جيلبير الذي سمع الحوار بين برازفيل والمدعي العام:

ـ ربما ستندمون ذات يوم أو آخر.

ـ ألا زلت تؤمن يا سيدي المحامي ببراءة موكلك؟

ـ كل الإيمان يا سعادة المدعي العام. إن الذي سيموت هو إنسان بريء.

صمت المدعي العام لحظات ثم قال معترفاً:

ـ إن هذه القضية عولجت بسرعة غريبة. وكرر المحامي بصوت أجش.

ـ إن الذي سيموت هو إنسان بريء.

ولكن الساعة كانت قد حانت.

***

بدأوا بفوشري، وفتح مدير السجن باب الزنزانة قفز فوشري من سريره ونظر حوله بعينين جحظتا من الرعب، وقال له الذين دخلوا وراء مدير السجن: جئنا نعلن لك يا فوشري...

ـ اخرسوا.. اخرسوا، إني اعلم لماذا جئتم. هيا بنا.

كان يمكن القول أنه يريد أن ينتهي بأقصى سرعة ممكنة

ولهذا امتثل فوراً للاعدادات الطبيعية. ولكنه لم يكن يقبل أبداً أن يحدثه أحد، وعاد يكرر. ولا كلمة، ماذا؟ أن اعترف؟ لا لزوم لذلك. قتلت. وها أنا اقتل هذه هي القاعدة. لقد تساوينا.

توقف فجأة وعاد يقول.

ـ قولوا لي.. هل سيعدم رفيقي أيضاً هو الآخر؟

وعندما علم أن جيلبير سيلقى نفس المصير وفي نفس الوقت تردد لحظات وراقب الحضور وبدا كأنه يريد أن يقول شيئاً ما.. فرفع كفيه وتمتم:

ـ هذا أفضل.. فقد قمنا بالضربة معاً.. وسنشرب نخبها معاً.

لم يكن جيلبير نائماً عندما دخلوا إلى زنزانته. جلس في سريره يستمع إلى الكلمات المرعبة، حاول أن ينهض وبدأ يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه كهيكل عظمي تهزه.. ثم سقط فوق سريره وراح ينتحب:

ـ آه.. أمي المسكينة.. أمي المسكينة.

أرادوا أن يسألوه عن تلك الأم التي لم يسبق له أن تكلم عنها أبداً. ولكن ثورة مفاجئة جعلته يوقف البكاء ويصرخ:

ـ لم اقتل. لا اريد أن أموت. لم أقتل.

ـ يجب أن تكون لديك الشجاعة يا جيلبير.

ـ نعم، نعم، ولكن بما أنني لم اقتل.. لماذا تقتلونني؟ اقسم لكم أنني لم اقتل.. لم اقتل.. ولا أريد أن أموت..

اصطكت اسنانه بشدة ولم تعد كلماته مفهومة.. اعترف وسمع قداساً.. ثم هدأ وبدا رقيقاً لطيفاً وتأوه كطفل:

ـ يجب أن تقولوا لأمي بأني اطلب السماح منها.

ـ أمك؟

ـ نعم، أمي، ولتنشر كلماتي في الصحف، ستفهم. هي تعرف تماماً أنني لم اقتل.. ولكني اطلب إليها أن تسامحني عن كل ما اسأت إليها به.. وعن المتاعب التي تسببت لها بها.. وثم..

ـ وثم ماذا يا جيلبير؟

ـ ثم أريد أن يعرف «المعلم» أنني لم افقد الثقة به.

راح جيلبير يتفحص المساعدين كلاًّ على حدة وكأنه يأمل في أن يكون «المعلم» واحداً منهم.. متنكراً.. لا يمكن التعرف إليه وعلى استعداد لحمله بين ذراعيه. وعاد يقول بهدوء.

ـ نعم. إني اثق به حتى في هذه اللحظة.. وعليه أن يعرف ذلك تماماً. أني واثق من أنه لن يدعني أموت.. ولن يتركني اعدم وأنا البريء.

وعرف الناس من خلال نظراته الثاقبة أنه يرى لوبين ويشعر بطيفه يتجول من حول السجن ويفتش عن طريق يدخل منه طالما أنه هناك. كان منظره يدل على براءته خاصة وقد بدا كطفل معذب فإذا به يستدرّ عطف ورأفة الآلاف فيعصر الحزن القلوب وتدمع العيون.

وردد بعض الحضور: يا له من فتى مسكين.

وكذلك فعل برازفيل الذي اعتراه الانفعال واستحوذ على تفكيره طيف كلاريس.

فكان محامي جيلبير يبكي ويردد للأشخاص الجالسين من حوله هذا إنسان بريء سيموت.

دقت الساعة وانتهت التجهيزات. وبدأ السير نحو المشنقة.

وفي الممر اجتمع الفريقان.

وما أن رأى فوشري رفيقه جيلبير حتى صرخ ساخراً:

– قل يا صغيري، الم يتخلَّ المعلم عنا.

وأضاف هذه العبارة التي لم يفهمها أحد باستثناء برازفيل:

– لا شك أنه يحب أكثر قبض أرباح السدادة البلورية.

بدأوا نزول الدرج وتوقفوا مراعاة للتقاليد ثم عبروا الساحة. لحظات مرعبة تكاد لا تنتهي.

ساروا بمحاذاة الجدار حتى زاوية البوليفار. وبعد خطوات قليلة تراجع فوشري، لقد رأى شيئاً. استمر جيلبير يجر رجليه وقد امسك به مساعد مع عراف يمد إليه الصليب من حين إلى آخر ليقبله. وارتفعت المقصلة. فصرخ جيلبير معترضاً:

– لا. لا. لا أريد. لم اقتل. لم اقتل النجدة! النجدة.

نداء أعلى ضاع في متاهات الفضاء.

ندت عن الجلاد حركة. ربطوا فوشري ورفعوه ثم جروه بخطوات وئيدة وفجأة حدث ما يدهش ودوت طلقات النار من منزل مواجه

وتوقف المساعدون على الفور.

الحمل الثقيل بين ايديهم تلاشى.

وتساءلوا فيما بينهم: ماذا حدث؟

– لقد اصيب بجراح

كان الدم يتدفق من جبين فوشري ويغطي وجهه، وتمتم

قـائلاً: «شكـراً يا معلم. لن يقطعـوا رأسي.. شكراً.. يـا لك من إنسان رائع».

وصرخ صـوت من بين المتجمهـرين الذين سـارعوا لمعـرفـة حقيقة ما جرى:

ـ أجهضوه واحملوه إلى تحت.

ـ ولكنه مات.

ـ هيا.. أجهضوه.

عمت الفـوضى بـين القضـاة وكبـار المسؤولـين وارتفعت الأصوات تطالب بإعدامه وأن تأخذ العدالة مجراهـا.. وأن أي تأخير يعتبر تخاذلاً وجبناً.

ورددت أصوات أخرى:

ـ ولكنه مات.. مات..

ـ لا يهم يجب تنفيذ أوامر العدالة.. فليعدم. واحتج المرشد الـديني.. بينما انصرف حـارسـان وعـدد من رجـال الأمن إلى مراقبة جيلبير وحمل المساعدون جثة فوشري إلى المقصلة.

وصاح الجلاد مذعوراً:

ـ هيا بنا أسرعوا.. ثم آتوني بالآخر مباشرة، اسرعوا.

وقبل أن ينهي أوامره دوى صوت انفجار آخر فاستدار على نفسه وسقط أرضاً يئن:

ـ لا شيء، جـرح في الكتف، استمـروا.. جهـزوا المحكـوم الثاني وأتوني به.

ولكن المساعدين فروا مذعورين ولم يعد في السـاحة أحـد.. فقد سارع رئيس الشرطـة وجمع رجـاله وهـو الذي حـافظ على

بـرودة اعصابـه وتراجعـوا إلى مبنى السجن يتدافعـون فـوق بعضهم البعض كقطيع من الأغنام روّعه وحش كاسر.

وفي نفس الـوقت اندفعت مجمـوعة من الجنـود والمفتشـين والمحققين باتجاه المنزل المقابل مصدر الانفجار.. فـوجدوا أنـه عبارة عن مبنى مكون من ثـلاثة ادوار وتقـوم في الدور الأرضي محـلات تجاريـة كانت لا تـزال مقفلة آنـذاك. وكان الحـراس شاهدوا رجـلاً يحمل بنـدقية ويطلق النـار من نافـذة في الدور الثـاني، صوبـوا بنادقهم تجـاهه.. ولكنهم اخطـأوه.. فقامـوا بتحطيم باب المدخـل واندفعـوا في السلم.. وإذ بهم أمام اثـاث مبعثر ومحطم وضـع خصيصاً لعرقلة تقدمهم بسرعـة.. وكان لا بد لهم من اضاعة ما بين أربع إلى خمس دقائق لفتح الطريق.. وهي المدة الكافية لفرار مطلق النار وابتعاده عن المكان. وعندما وصلوا إلى الدور الثاني سمعوا صوتاً ينادي من أعلى:

ـ من هنـا أيها الأصـدقاء.. أمـامكم عشر درجات فقط كي تبلغوني.. أني آسف جداً للإرباك الذي سببته لكم.

وبسرعة فائقة انتقل الجنود إلى الدور الثالث، فتشوا جميـع غـرفه ووجـدوا أن الجاني فـر من منور المنـزل واقفل مخـرجه وحمل معه السلم الصغير ليمنع الجنـود من الصعود واللحـاق به.

وعمت الفـوضى العاصمـة على أثـر هذا الحـادث الغـريب.. وتتـابعت طبعات الصحف وخـرج الباعـة في الشوارع ينـادون بأعلى اصواتهم ويتراكضون نحو السيارات المارة لبيع نسخهم.

ولكن الارتبـاك والهيجـان والتـوتـر بلغت ذروتهـا في مقـر الشرطة، كان التدافع يأتي من كل حـدب وصوب.. بـرقيات من هنا وهناك.. واستفسـارات ورسـائل عاجلة.. فيما استمر الهاتف يرن بدون انقطاع.

وأخيرا، وعند الساعة الحادية عشر صباحاً عقد اجتماع عاجل وموسع في مكتب رئيس الشرطة حضره برازفيل وقام رئيس الأمن بتقديم تقرير مفصل عن آخر تطورات التحقيق.

وجاء في التقرير ما يلي:

«مساء امس وقبل منتصف الليل بقليل.. قرع احدهم باب المنزل في بوليفار اراغو فتحت الحارسة الباب وإذا برجل يقف امامها ويقول انه مرسل من الشرطة بخصوص موضوع هام يتعلق بعملية اعدام الغد وما ان فتحت الباب حتى هجم الرجل عليها وكبّلها وتركها مرمية ارضاً بدون حراك.

«وبعد عشر دقائق هاجم نفس الرجل شخصاً آخر كان عائداً من الخارج مع زوجته واحتجز كلًّا منهما في غرفة.. ولقي ساكن الدور الثالث نفس المصير، ولما كان الدور الثاني غير مشغول، اقام فيه الرجل واصبح سيداً للموقف. .»

توقف رئيس الأمن عن الكلام لحظات ثم ابتسم وعاد يقول بحرارة: هذا كل شيء.. ولا اعتقد أن هناك اذكى من هذا الرجل.. وما يدهشني هو فراره بهذه السهولة.

– ارجوك أن تسجل يا حضرة رئيس الشرطة أن الرجل بعد أن سيطر على المنزل عند الواحدة صباحاً لم يفر منه إلا بعد خمس ساعات.

– وهل حدث الفرار فعلاً؟

– عن طريق السطوح. فالمنازل المجاورة متلاصقة تقريباً ويسهل التنقل فوق سطوحها بسرعة ودون خطر.

– وماذا بعد؟

– لقد حمل الرجل معه عندما فر سلم المنور ليستخدمه في حال تعثرت تنقلاته أو توقفه أمام ارتفاعات أو مسافات بين

السطوح قد تسبب له خطراً إذا ما هو حاول تخطيها للوصول إلى الجانب الآخر من المباني. أنها عملية اعدت بدقة متناهية وليست بنت ساعتها. يبدو لي أن التخطيط لها كان قائماً منذ مدة.

ـ ولكني أعلم أنك كنت اتخذت كافة الاجراءات اللازمة .. اليس كذلك؟

ـ تلك التي زودتني بها يا حضرة رئيس الشرطة. أمضى رجالي ثلاث ساعات أمس في زيارة وتفتيش كل منزل على حدة ليتأكدوا أن ليس هناك من شخص غريب يختبيء فيها، وفي اللحظة التي كانوا يغادرون فيها آخر منزل قمت أنا بوضع الحواجز. ويبدو لي أن الرجل اغتنم هذه الفرصة.. وفر.

ـ رائع.. ومفهوم.. هل أنت متأكد أن الرجل هو ارسين لوبين نفسه.. وليس لديك أدنى شك بذلك؟

ـ لا شك عندي على الاطلاق. فالأمر يتعلق أولاً بشريكيه.. ثم ان ارسين لوبين هو وحده القادر على اعداد مثل هذه الضربات وتنفيذها بمنتهى الجرأة.

التفت رئيس الشرطة ناحية برازفيل وقال له.

ـ اليس هو الشخص الذي حدثتني عنه يا سيد برازفيل واتفقت مع رئيس الأمن على إحكام المراقبة حوله منذ مساء الأمس في منزله في ساحة كليشي..؟ ان هذا الرجل ليس ارسين لوبين.

ـ نعم. ولا شك في ذلك أبداً.

الم تلقوا القبض عليه عندما خرج تلك الليلة؟

ـ لم يغادر منزله.

ــ أوه.. لقد بدأت الأمور تتعقد.

ــ بكل بساطة.. وكبقية المنازل التي نجد فيها آثار ارسين لوبين.. فقد كان لمنزله في ساحة كليشي مخرجان.

ــ وكنت تجهل ذلك؟

ــ نعم. ولم الاحظ هذا إلا عندما زرت الشقة.

ــ لم يكن في المنزل اياه أحد؟

ــ لا أحد. الخادم الذي يدعى أشيل ذهب ليحضر سيدة تسكن عند لوبين.

ــ ما هو اسم تلك السيدة؟

لم يجب برازفيل على الفور.. تردد لحظات وأجاب·

ــ لا أعرف.

ــ ولكنك تعرف الاسم الذي ينتحله ارسين لوبين!

ــ نعم. السيد نيقول. أستاذ حر. مجاز في الآداب وهذه هي بطاقته.

وما كاد ينجز برازفيل عبارته حتى دخل على رئيس الشرطة حاجب وقال أنهم يطلبونه بسرعة من قصر الاليزيه حيث وصل رئيس الوزراء لتوه.

وأجاب: حسناً. سأذهب. أن مصير جيلبير هو الذي سيتقرر الآن.

وسأله برازفيل:

ــ هل تعتقد أنهم سيعفون عنه يا حضرة رئيس الشرطة؟

ــ أبداً. وخاصة بعد أحداث الليلة الماضية. ولا بد آن يدفع

جيلبير ديونه صباح غد.

وفي نفس الوقت قام الحاجب بتقديم بطاقة إلى برازفيل نظـر إليها هذا الأخير فامتقع وجهه وهمس:

ـ يا له من سافل.

وسأله رئيس الشرطة مستعلماً:

ـ ما الأمر؟

ـ لا شيء، زيارة غير متـوقعة. سـأطلعك عـلى نتائجهـا فيما بعد.

وغـادر القاعـة وهو يـردد. فعلاً كنت اتـوقع ذلـك.. وفـوق البطاقة التي كانت لا تزال في يده قرأ برازفيل هذا التعريف:

السيد نيقول

أستاذ حر. مجاز في الآداب.

. ١٣ .

المعركة الأخيرة

عند عودته إلى مكتبه عرف برازفيل في صالة الانتظار السيد نيقول الذي كان يجلس محني الظهر يتظاهر بالألم وإلى جانبه مظلته وقبعته وقفازاه.

وقال في نفسه. أنه هو.. وإذا كان جاء بنفسه ولم يرسل إنساناً آخر فذلك لعلمه بأن القناع سقط عن وجهه.

اغلق باب مكتبه واستدعى سكرتيره وقال له: سأستقبل بعد لحظات يا سيد لارتيغ شخصية خطيرة إلى حد ما والذي يجب ألا يخرج من مكتبي إلا ويداه مكبلتان.. وفور دخوله، عليك باتخاذ الإجراءات اللازمة.. اتصل بمجموعة من المحققين والمفتشين الأمنيين واجعل قسماً منهم يجلس في غرفتك والقسم الآخر في البهو المجاور لي.. وعندما اقرع الجرس تدخلون جميعاً شاهرين مسدساتكم وتطوقون الشخص. مفهوم؟

ـ مفهوم يا سعادة الأمين العام.

ـ إياكم أن تترددوا. دخول مكثف ومفاجىء. ثم القيود فوراً.. من فضلك دع السيد نيقول يدخل الآن.

ما أن اصبح برازفيل وحيداً حتى قام بتغطية الجرس الصغير أمامه بعدد من الأوراق ووضع مسدسين وراء مجموعة

من الكتب إلى جانبه ثم قال يخاطب نفسه: والآن إذا كانت لديه اللائحة، نأخذها. وإذا لم تكن لديه.. نأخذه هو.. وما يمنع من أخذ الاثنين معاً إذا امكن؟ لوبين ولائحة «السبعة والعشرون» في يوم واحد.. وخاصة بعد فضيحة هذا الصباح.. وعندئذٍ تتسلط الأضواء على شخصي.

سمع طرقاً على الباب فصاح: ادخل.

ثم نهض مرحباً: تفضل يا سيد نيقول.

دخل نيقول بخطى وئيدة خجولة ووقف إلى جانب الكرسي التي اشار إليها برازفيل.. وقال:

ـ جئت استأنف حديثنا في الأمس. وأعتذر عن هذا التأخير.

ـ هل تسمح لي بلحظة واحدة؟

ثم ترك المكتب وانتقل إلى البهو ليقول لسكرتيره:

ـ نسيت أن أخبرك يا سيد لارينغ بأن تحكم المراقبة على الممرات تخوفاً من وجود بعض العناصر الغريبة فيها.

عاد وجلس وراء مكتبه بارتياح استعداداً لحوار طويل على ما يبدو. وقال مخاطباً نيقول:

ـ ماذا كنا نقول يا سيد نيقول؟

ـ كنت أقول يا سعادة الأمين العام أني آسف على جعلك تنتظرني مساء أمس. عدة عوامل منعتني من الحضور.. منها أولاً السيدة مرجي.

ـ نعم السيدة مرجي التي حملتها إلى بيتك.

ـ وقدمت لها العناية التامة. انك تفهم يأسها.. ابنها جيلبير

قـريب من الموت.. وأي مـوت.. لا تنقـذه إلا أعجـوبـة.. ولكن مستحيل. أنا نفسي استكنت للواقع الذي لا مفر منـه.. عندمـا يـدير لـك الحظ ظهره فمـا عليك إلا الاستسـلام.. ان مأسـاة جيلبير اثبطت عزيمتنا.

ـ ولكن يبدو لي عندما تركتني أنك كنت عازمـاً على انتـزاع سر دوبريك مهما كلف الأمر.

ـ صحيح، ولكن دوبريك لم يكن في باريس.

ـ آخ.

ـ لا. جعلته يسافر في سيارة.

ـ وتملك سيارة يا سيد نيقول؟

ـ من الطراز القديم جداً. يسافر دوبريك في حقيبة حبستـه فيهـا. ولكن المؤسف أن السيارة لم تتمكن من الـوصـول قبـل التنفيذ.

ـ ماذا قررت إذاً؟

ـ بحثت عن وسيلة أخرى.

ـ أي وسيلة؟

ـ ولكن يبدو يا سعادة الأمين العام أنك تعرفها أكثر مني.

ـ كيف؟

ـ ألم تحضر عملية الإعدام؟

ـ بلى.

ـ وفي هذه الحالة شاهدت فوشري والجلاد وكلاهما اصيب. الأول كانت اصابته مميتة والثـاني اصيب في كتفه. وعليـك أن تفكر ملياً فيما حدث.

ـ أهذا أنت الذي اطلق النار ذلك الصباح؟

ـ فكر اكثر يا سعادة الأمين العام.. هل كان عندي خيار آخر؟ أنت الذي فحص لائحة «السبعة والعشرون» فوجدتها مزورة.. كما أن دوبريك الذي يملك اللائحة الصحيحة لن يصل إلا بعد الإعدام بساعات . لذلك لم يبق أمامي من وسيلة لانقاذ جيلبير والحصول على عفو عنه سوى تأخير تنفيذ الحكم فيه ولو لساعات قليلة.

ـ طبعاً، هذا أمر بديهي.

ـ اليس كذلك، فعندما قمت بقتل ذلك المجرم المتشبث المدعو فوشري وبجرح الجلاد، استطعت بذر الفوضى والرعب بين الحضور وجعلت عملية الاعدام غير ممكنة عملياً وأخلاقياً وربحت الساعات التي كانت ضرورية لي جداً.

ـ طبعاً.. هذا أمر بديهي.

واستأنف لوبين قائلاً.

ـ هذا يتيح لنا جميعاً يا سعادة الأمين العام وكذلك يتيح للحكومة ورئيس الدولة ولي الوقت اللازم للتفكير ورؤية الأمور بوضوح أكبر فيما يتعلق بهذه القضية. ولكن فكر في اعدام شخص بريء. كان يجب أن اتصرف. وتصرفت. ما رأيك يا سعادة الأمين العام؟

ـ اعتقد يا سيدي نيقول أنه عندما يريد شخص ان يقتل شخصاً آخر على بعد مسافة ١٥٠ قدماً وجرح آخر فقط لجرحه وليس أكثر.. فإن هذا الشخص لا بد أن يكون مدرباً ورامياً محترفاً.

ـ قمت ببعض التدريبات.

ـ واعتقد ان خطتك هي ثمرة عملية استعداد وتحضير طويلة.

ـ أبداً. ولا يخدعنك هذا التفكير. جاءت العملية فجائية، ولو لم يوقظني بالقوة خادم الشخص الذي اعارني شقته في ساحة كليشي ليقول لي أنه عمل ذات يوم كخادم محل في هذا المنزل الصغير في بوليفار اراغو وأن المستأجرين في المبنى قلة ولا بد من تجربة حظنا، لكان المسكين جيلبير في عداد الأموات، وربما السيدة مرجي أيضاً.

ـ آه.. اتظن ذلك؟

ـ أنا متأكد، ولهذا تبنيت فكرة ذلك الخادم ونفذت مخططي.. ولكنك ازعجتني جداً يا سعادة الأمين العام!

ـ أنا؟

ـ نعم. أنت، الم تضع اثني عشر رجل أمن على باب منزلي؟ وإزاء هذا الوضع اضطررت إلى استخدام مصعد الخدمات والمرور من ممر الخدم والبيت المجاور. تعب لا فائدة منه.

ـ آسف يا سيد نيقول.

ـ ولهذا قمت منذ الصباح الباكر وعملت على ألا تتوقف السيارة التي تحمل الحقيبة ودوبريك في داخلها في الساحة أمام منزلي وكي افوت الفرصة على جنودك وامنعهم من التدخل في شؤوني الخاصة. ولولا هذا التصرف لضاع جيلبير والسيدة مرجي من جديد.

ـ ولكن هذه الأحداث المؤلمة يبدو لي انها متأخرة ومنذ ثلاثة أيام على أقل تقدير.. ولتجنبها نهائياً يجب..

ـ اللائحة الحقيقية.. اليس كذلك؟

– تماماً.. وربما انت لا تملكها..

– إنها في حوزتي.

– اللائحة الصحيحة؟

– اللائحة الصحيحة.

– وعليها صليب اللورين؟

– وعليها صليب اللورين.

وصمت برازفيل واعتراه انفعال شديد، خاصة وان الصراع سيبدأ الآن مع خصم يعرف هو تماماً تفوقه المخيف. شعر أيضاً بقشعريرة وهو يشاهد ارسين لوبين ماثلاً أمامه، هادئاً، مطمئناً. لم يجرؤ على مهاجمته وجهاً لوجه، فقال خجلاً:

– وهكذا سلمك دوبريك اللائحة؟

– دوبريك لم يسلمني شيئاً. أنا أخذتها.

– بالقوة؟

– لا. كنت مصمماً على التحدي وعمل كل شيء.

ولكن عندما اخضعته لعنايتي وجعلته يسافر بسرعة في حقيبة وخدرته بالكلوروفورم كنت قد اعديت اللازم لاستجوابه وكشف سره. انتزعت نظارتيه وبدأت بعينه اليسرى فاقتلعتها بمساعدة كلاريس. اقتربت منه وقلت عين واحدة تكفيك..

أحس برازفيل بالقرف وعلاه الشحوب والامتعاض ولكنه تمالك نفسه وسأل لوبين أن يشرح له ماذا يريد أن يقول من كل هذا، ولماذا أقدم على مثل هذه الدرجات من الوحشية والعنف..

نظر إليه لوبين وقال:

ـ كل شيء واضح ولا يحتاج لشرح، فطالما أنه لا يمكن العثور على اللائحة في أي مكان خارج دوبريك نفسه فمعنى هذا، كما خطر لي، انها لا توجد في مكان آخر غير دوبريك.. وبما انه لم يعثر عليها في ملابسه التي يرتديها فلا بد أنها مخبأة في مكان عميق فيُه.. في جسده.. تحت لحمه.. بين عظامه.

وقال برازفيل مازحاً: ربما في عينه؟

ـ نعم، في عينه يا سعادة الأمين العام.. لقد نطقت بالكلمة الصحيحة.

ـ ماذا؟

ـ اكرر.. في عينه، وهذه الحقيقة يجب أن تخطر في بالي بشكل طبيعي بدلاً من أن تكشفها لي الصدفة. لقد اكتشفت كلاريس رسالة موجهة من دوبريك إلى طبيب عيون إنكليزي يطلب إليه ان يفرغ البلورية من الداخل ويترك فراغاً يستحيل الشك في أمره. وكان يتوجب على دوبريك أن يغير مسار البحث وعلى سبيل التحفظ ولهذا صنع نموذجاً وبموجبه أيضاً صنع السدادة البلورة المفرغة من الداخل.. ووراء هذه السدادة نركض أنا وأنت منذ أشهر.. وهذا ما اكتشفته في علبة التبغ.. في حين كان يجب..

وسأله برازفيل ممتعضاً: .. في حين كان يجب ماذا؟

استغرق نيقول في الضحك وعاد يقول:

ـ كان يجب، بكل بساطة، الاهتمام بعين دوبريك والتركيز على هذه العين المفرغة من الداخل لتشكل مخبأ «غير مرئي ويصعب الدخول اليه».. كان الاجدر بنا الاهتمام فعلاً بهذه العين.. وها هي.

أخرج نيقول العين من جيبه وضرب بها الطاولة أكثر من مرة.

وهتف برازفيل مشدوهاً:

ـ عين زجاجية..

ـ نعم، عين زجاجية. سدادة زجاجية كان الملعون ادخلها في الحدقة مكان عين ميتة.. سدادة بلورية ولكنها الحقيقية هذه المرة.. وكان يخفيها وراء نظارتين سميكتين ومنظار اسود.

اخفض برازفيل ناظريه وامسك جبهته بيديه ليخفي احمرار وجهه: انه يملك تقريباً لائحة «السبعة والعشرون».. انها أمامه.. فوق مكتبه.. سيطر على ارتباكه وقال بارتياح:

ـ ألا تزال القائمة في الداخل؟

ـ هذا ما افترضه على الأقل.

ـ افتراض لا تأكيد؟

ـ لم افتح المخبأ بعد. انه شرف احتفظت به لك يا سعادة الأمين العام.

مد برازفيل يده وتناول الشيء ونظر إليه، كان عبارة عن كتلة بلورية على شكل عين كاملة، وفجأة رأى من الخلف جزءاً متحركاً ينزلق، كانت العين مقعرة، وفي الداخل شاهد لفة من الورق ففضها ودون أن يمعن في قراءة الاسماء والتوقيع رفع الورقة بيده وقربها من النافذة. وسأله نيقول. هل صليب اللورين واضح فوقها.

ـ انه موجود وهي اللائحة الصحيحة.

تردد لعدة ثوان واستمر مرفوع الذراعين يفكر فيما يجب

عمله، ثم طوى الورقة واعـادها إلى مخبئهـا في العين ودس كـل شيء في جيبه.

ـ اقتنعت الآن؟

ـ قطعياً.

ـ وبالتالي.. اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

وقال برازفيل في نفسه: لو حاول التحرك لشـهرت مسدسي في وجهه وناديت مفتشي الأمن.. وإذا هاجمني اطلقت النار عليه.

وفي النهاية قال لوبين:

ـ طالما اننا اتفقنا يا سعادة الأمين العام، اعتقد أنه يتوجب عليك أن تسرع الآن. هل سينفذ حكم الاعدام غداً؟

ـ غداً.

ـ في هذه الحالة.. سأنتظر هنا.

ـ تنتظر ماذا؟

ـ جواب الاليزيه.

ـ وهل تنتظر أن يأتيك أحد بذلك الجواب.

ـ نعم، أنت يا سعادة الأمين العام.

هز برازفيل رأسه وقال: يجب ألا تعتمد عليّ يا سيد نيقول.

وسـألـه نيقـول دهشـاً: أحقـاً تقـول؟ هـل يمكن أن نعـرف السبب؟

ـ غيرت رأيي.

ـ بكل بساطة؟

ـ بكل بساطة. وأقدر أنه من المستحيل التدخل لصالح جيلبير بعد فضيحة تلك الليلة وبعد أن آلت الأمور إلى ما آلت إليه الآن.. إضافة إلى ذلك أجد أن أي تدخل لدى الاليزيه في الوقت الراهن يشكل مراوغة لا أريد أن انغمس فيها

ـ أنت حر، ولكن طالما أننا مزقنا الاتفاق الذي انجزناه.. تفضل وأعد لي لائحة «السبعة والعشرين».

ـ ماذا تريد أن تفعل بها؟

ـ للتوجه إلى وسيط غيرك.

ـ ما الفائدة . جيلبير انتهى.

ـ لا.لا. اعتقد العكس . فبعد حادث تلك الليلة وموت شريكه.. من السهل منح جيلبير العفو الآن للتدليل على العدالة والإنسانية في العالم، اعد لي اللائحة.

ـ لا.

ـ يبدو لي أن ذاكرتك ضعيفة.. ألا تتذكر تعهداتك في الأمس؟

ـ نعم اذكرها.. ولكن مع السيد نيقول.

ـ ماذا تعني؟

ـ أنت لست السيد نيقول.

ـ في الحقيقة.. من أنا إذاً؟

ـ هل يجب أن اخبرك من أنت؟

لم يجب نيقول وراح يضحك. وبدا على برازفيل الارتباك الشديد وضغط بعنف على قبضة مسدسه، وتساءل إذا ما كان يجب طلب النجدة.

دفع نيقول كرسيه نحو المكتب ووضع كوعيه فوق الأوراق ونظر ملياً في وجه محدثه وقال ساخراً:

– اتعرف من أنا يا سيد برازفيل.. وتجرؤ على أن تلعب هذه اللعبة معي؟

– لدي كل الجرأة.

– هذا يدل على أنك تظنني ارسين لوبين.. نعم ارسين لوبين.. وماذا يجعلك تعتقدني احمق كي أسلم نفسي مكبل اليدين والرجلين؟

وقال برازفيل مازحاً وهو يربت فوق جيبه حيث اخفى الكرة الزجاجية.

– لا أرى تماماً ماذا يمكنك أن تفعل يا سيد نيقول طالما أن عين دوبريك هنا وفي عين دوبريك توجد لائحة «السبعة والعشرون»؟

ورد لوبين يسأل ساخر:

– ماذا يمكن أن افعل؟

– نعم فأنت لا تساوي أكثر مما يمكن ان يساويه رجل بمفرده وجاء يغامر في قلب شرطة باريس وسط مجموعة من الشبان المختبئين وراء هذه الأبواب وبانتظار اشارة للانقضاض والقاء القبض عليك.

هز نيقول كتفيه ونظر إلى برازفيل نظرة اشفاق:

– ان امتلاكك الآن للائحة يجعلك بمصاف دوبريك أو دالبوفكس. ولا تفكر على الاطلاق في تسليمها إلى رؤسائك. أنت تقول مثلاً في نفسك. لماذا هذا.. انها في حوزتي، وأنا الآن

الغني القـوي.. لا حدود لثـرائي ولا لقوتي وسلطتي. مـاذا لو استفدت منها واستغليتها. ماذا لـو تركت جيلبـير يموت ومعـه كلاريس مرجي؟ ماذا لو احتجـزت هذا الابلـه الماثـل أمامي.. ارسين لوبين..

توقف لوبين عن الكلام واقتـرب أكثر من بـرازفيل وقـال: لا تفعل هذا يا عزيزي برازفيل.

– ولِمَ لا؟

– انه ليس في صالحك.. صدقني.

– ولكنه حقيقة.

– لا. وإذا كنت تصر على عمله. فعليـك في البدايـة مراجعـة الأسماء السبعة والعشرين المدونة في اللائحة التي سرقتها مني والتوقف خصيصاً عند الاسم الثالث في اللائحة اياها.

– ولماذا هذا الاسم بالذات.

– انه اسم احد اصدقائك.

– أيهم؟

– النائب السابق ستانيسلاس فورنغلاند.

بدأ برازفيل يرتعش ويفقد قليلاً من ضمـاناتـه الذاتيـة بعد ان كشف لوبين ما يجول في نفسه.. فقال يسأل:

– وماذا بعد؟

– ان التحقيق مـع الشخص الـذي ذكـرت سيكشف عـن وجـود شخص آخر ضـالـع معـه في اقتسـام بعض المكـاسب القليلة.

– ويدعى؟

ـ لويس برازفيل.

ـ ماذا تقول؟

ـ اقول انه إذا كنت اكتشفتني بسرعة وأسقطت القناع عن وجهي.. فـانهم سيكتشفونـك باسرع ممـا تتصور. وهـذا ليس مشرفاً في حقك.

نهض برازفيل.. وضرب نيقول بقوة فوق الطاولة وصرخ:

ـ كفى حماقات يا سيد برازفيل . منذ عشرين دقيقة وأكثـر ونحن نـدور حـول نفس المـوضـوع.. يكفي.. يجب أن ننتهي الآن.. أولاً اترك مسدسيك جانباً ولا تظن أنهما يخيفاني.. إني مستعجل.

وضـع لوبـين يده فـوق كتفي برازفيـل وقال بصـوت الآمر الحازم:

ـ إذا لم تعدِ بعد ساعة من قصر الرئاسة وفي يدك مـا يؤكد أن قرار العفو صـدر ووقع.. وإذا بعـد ساعـة وعشر دقائق لم اغادر أنا ارسين لوبين هذا المكان سالماً وحراً.. سأقوم بارسال الخطابات التي دارت بينـك وبين فـورنغلانـد إلى أربع صحف بـاريسية لتنشرهـا غداً عـلى صفحـاتهـا الأولى. أنـا اشتـريت الرسـائل أمس من فورنغلاند. هذه هي قبعتك وعصاك ومعطفك اذهب. إني بانتظارك.

لم يحـاول بـرازفيـل أن ينـاقش لـوبـين.. كـان يعتقـد أن الخطابات المتبـادلة بينـه وبين فـورنغلانـد قد دمـرت وأن هذا الأخير أتلفها بنفسـه وأنه ـ في حـال وجود بعضـهـا ـ لا يمكنا تسليمها لأحد.. وإلا أضاع نفسه. الأفضل هو أن يسكت. وا يعـد أمامـه من حل سـوى الخضوع وتنفيـذ ما طلب لـوبين

الذي هزه مرة ثانية وقال:

ـ موعدنا هنا. وبعد ساعة بالضبط.

ورد برازفيل بهدوء:

ـ هنا.. بعد ساعة.. ولكن هل تعيد لي الرسائل مقابل العفو عن جيلبير؟

ـ لا. فهناك شرطان عليك أن تنفذهما أيضاً.

ـ وهما؟

ـ أولاً: اصدار شيك بمبلغ ٤٠ ألف فرنك.

ـ أربعين ألف فرنك!

ـ انه المبلغ الذي دفعته لفونغلاند ثمناً لرسائله.

ـ وماذا بعد؟

ـ استقالتك خلال الأشهر الستة المقبلة من المركز الذي تشغله.

ـ استقالتي! ولكن لماذا؟

جلس لوبين وبدت عليه ملامح الجدية والوقار وقال:

ـ لأنه من غير اللائق أن يتولى إنسان لا ضمير عنده مركزاً حساساً في أمانة شرطة العاصمة. اختر الوظيفة التي تريد.. ولكن ليس أمانة الشرطة العامة. إنه أمر مشين ويثير قرفي.

فكر برازفيل لحظات ثم اتجه نحو الباب ونادى: يا سيد لارتيغ.

ثم خفض صوته وبطريقة يمكن للوبين أن يسمعه بوضوح وقال:

ـ اصرف عملاءك يا سيد لارتيغ. فقد حدث التباس في الأمر لا تدع أحداً يدخل مكتبي في غيابي. السيد الزائر سينتظرني هنا.

أخذ برازفيل قبعته وعصاه وتناول معطفه من يد لوبين وخرج.

أغلق لوبين الباب وراءه وعاد يقول في نفسه: مع اطيب التحيات يا سيد برازفيل. كان تصرفك صحيحاً تماماً. والآن ارفع رأسك يا لوبين.. لقد كنت فعلاً بطل الأخلاق المداسة. كن فخوراً بعملك. تمدد الآن ونم. لقد كسبت المعركة بجدارة.

***

عندما عاد برازفيل إلى مكتبه وجد لوبين يغط في نوم عميق فهزه من كتفه ليوقظه.

فتح لوبين عينيه وسأله · تم كل شيء؟

ـ نعم. قرار العفو سيوقع قريباً، وهذا هو الوعد المكتوب.

ـ والأربعين ألف فرنك؟

ـ هذا شيك بالمبلغ.

ـ حسناً. لم يبق سوى أن اشكرك يا سيد.

ـ والرسائل؟

ـ سأعيدها إليك وفق الشروط المذكورة ولكن يشرفني الآن وكدليل على الاعتراف بجميلك أن اسلمك الرسائل التي كنت سأرسلها إلى الصحف.

ـ اوه.. أهي معك حقاً؟

ـ كنت واثقاً تماماً يا سعادة الأمين العام بأننا سنتوصل إلى اتفاق في النهاية.

وسحب لوبين من قبعته ظرفاً ثقيلاً فوقه خمسة أختام حمراء وناوله إلى برازفيل الذي دسه في جيبه على الفور، وحياه وخرج.

وما أن استقر برازفيل وراء مكتبه وقبل أن يفض الظرف ويبدأ القراءة، قرع أحد الحجاب بابه ودخل بسرعة.. فسأله برازفيل:

ـ ما الأمر؟

ـ النائب دوبريك هنا، ويطلب أن تستقبله على الفور لأمر هام جداً.

وصاح برازفيل هلعاً·

ـ دوبريك هنا. دعه يدخل فوراً.

لم ينتظر دوبريك أن يسمح له بالدخول فاندفع نحو المكتب وهو يكاد يختنق وفوق عينه اليسرى ضماد.. وبدا وكأنه مجنون خرج لتوه من المصح. امسك ببرازفيل يهزه بعنف ويقول.

ـ هل لديك اللائحة؟

ـ نعم.

ـ اشتريتها؟

ـ نعم.

ـ مقابل العفو عن جيلبير؟

ـ نعم.

ـ قرار العفو موقع.

ـ نعم.

وصرخ دوبريك والغضب يتأكله:

ـ أحمق. فعلت ذلك لأنك تكرهني. والآن تريد أن تنتقم؟

ـ بكل سرور ولذة يا دوبريك. تذكر صديقتي الصغيرة في نيس.. راقصة الاوبرا.. والآن جاء دورك أن ترقص أنت.

ـ إذا، انه السجن؟

ـ لا ضرورة لذلك، انتهيت. اللائحة ليست معك وستنهار على نفسك وسأكون شاهداً على نهايتك.. هذا هو انتقامي.

ـ وتعتقد أنهم سيخنقونني كدجاجة يا برازفيل ودون أن ادافع عن نفسي وأنه لم يعد لدي انياب كي اعض وأظافر كي اخدش.. لا سأبقى في الساحة.. وهناك واحد سينهار معي.. هو السيد برازفيل.. بهذه الرسائل فقط ستسلك الطريق الصواب ويعيش دوبريك أياماً سعيدة أيضاً.. حياته لم تنته بعد ماذا؟ اتمزح؟ ربما لم تكن هذه الرسائل غير موجودة..

هز برازفيل كتفيه وقال:

ـ بلى، انها موجودة، ولكن ليست في حوزة فورنغلاند.

ـ منذ متى؟

ـ منذ هذا الصباح، فورنغلاند باعها منذ ساعتين لقاء مبلغ أربعين ألف فرنك وأنا عدت واشتريتها من الشاري بنفس المبلغ.

قهقه دوبريك عالياً وقال:

ـ غريب. دفعت أربعين ألف فرنك إلى السيد نيقول؟ إلى

الذي باعك لائحة «السبعة والعشرون»؟ هل تريدني أن اقول لك الاسم الحقيقي للسيد نيقول؟ إنه ارسين لوبين.

ـ أعرف ذلك جيداً.

ـ ربما، ولكن الذي لا تعرفه أيها الابله الكبير هو أنني قادم لتوي من منزل فورنغلاند الذي ترك باريس منذ أربعة أيام. باعوك يا احمق ورقاً قديماً بأربعين ألف فرنك أيها المغفل.

خرج دوبريك ضاحكاً من المكتب وترك برازفيل فاغراً فاه ويكاد أن يغمى عليه.

لم يصدق برازفيل أن لوبين غرر به إلى هذه الدرجة وخدعه. حاول استعادة وعيه وربت فوق جيبه ليتأكد من أن المظروف لا يزال فيها. لم يكن يصدق عملية البلف التي ذهب ضحيتها وأصرّ دائماً على أن الرسائل موجودة. جلس وراء مكتبه وفضّ المغلف فوجد فيه أربع أوراق بيضاء.

لم يكن كل شيء قد انتهى بالفعل. وإذا كان لوبين تصرف بهذه الجرأة فهو لأن الرسائل موجودة فعلاً وكان ينوي شراءها من فورنغلاند.. ولأن هذا الأخير لم يكن في باريس.. فإن مهمة برازفيل كانت تكمن بكل بساطة باستباق تقرب لوبين من فورنغلاند والحصول منه وبأي ثمن كان على اعادة هذه الرسائل الخطيرة.

والمنتصر الأول هو الذي سيصل في الأول.

***

اسرع برازفيل إلى منزل فورنغلاند فقيل له هناك أن النائب السابق سيصل من لندن عند الساعة السادسة من هذا المساء.

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر، ووجد برازفيل أن أمامه الوقت الكافي لإعداد خطته. وصل عند الساعة الخامسة إلى محطة الشمال وقام بتوزيع محققي الأمن والجنود والذين رافقوه في مختلف أنحاء المحطة.

اطمأن إلى الوضع وبدا عليه الارتياح. فإذا حاول السيد نيقول الاقتراب من فورنغلاند عند وصوله يلقي القبض عليه على أنه ارسين لوبين.

قام برازفيل بجولة في المحطة ولم يجد أن فيها ما يدعو إلى الريبة والشك، ولكن عند الساعة السادسة إلا عشر دقائق قال له المفتش بلانشون الذي كان برفقته:

ـ انظر. لقد وصل دوبريك.

ازعجه حضوره جداً. وفكر في القاء القبض عليه، ولكن بأي حق وبأي أمر؟

ولكن وجود دوبريك اكد هذه المرة أن كل شيء يتوقف الآن على فورنغلاند الذي يملك الرسائل.. من سينالها؟ دوبريك؟ لوبين؟ أو.. هو نفسه برازفيل؟

لم يكن لوبين هناك ولا يمكنه أن يكون هناك ودوبريك ليس في وضع يسمح له بالقتال.. النهاية ستكون سهلة سيعود برازفيل بالرسائل وينجو من تهديدات دوبريك ولوبين ويصبح لديه في نفس الوقت ما يقاتل به ضدهما.

دخل القطار المحطة، وبناءً على أوامر برازفيل، اعطى مفوض المحطة الأمر بألا يسمح لأي شخص بالمرور على الرصيف.. وتقدم برازفيل وحده على رأس عدد من رجاله بإمرة المفتش بلانشون توقف القطار وشاهد برازفيل باب مقصورة

يفتح ويخرج منه فورنغلاند.

نزل النائب السابق من القطار مستعيناً برجل عجوز كان يسافر معه.

اسرع برازفيل نحوه وقال. يجب أن اتحدث اليك يا فورنغلاند.

وفي نفس الوقت كان دوبريك يقترب أيضاً من النائب السابق ويصيح: لقد تسلمت رسالتك يا فورنغلاند وأنا تحت تصرفك.

نظر فورنغلاند إلى الرجلين وعرف برازفيل ودوبريك ثم ابتسم وقال:

- يبدو أن عودتي كانت منتظرة بفارغ الصبر. ما الأمر؟ مراسلات مَ؟ اليس كذلك؟

- نعم، نعم، أجاب الرجلان وهما يتدافعان من حوله.

- فات الأوان.

- ماذا؟ صحيح؟ ماذا تقول؟

- أقول أن الرسائل بيعت.

- بيعت؟ ولكن لمن؟

- إلى هذا الرجل - وأشار إلى رفيقه في السفر - الذي وجد أن الموضوع يستحق المشقة وجاءني حتى منزلي في اميان.

وقال برازفيل في نفسه: لا أشك أبداً، أنه ارسين لوبين.

ثم التفت ناحية مساعديه وكاد أن يناديهم.. ولكن الرجل العجوز سارع يقول:

ـ نعم، بدا لي أن هذه الرسائل تستحق بعض ساعات العناء والسفر في القطار ودفع ثمن تذكرتي سفر ذهاباً واياباً.

ـ تذكرتان؟

ـ واحدة لي... وواحدة لواحد من أصدقائي.

ـ أحد اصدقائك؟

ـ نعم. لقد تركنا منذ بضع دقائق.. ومن خلال الممرات وصل إلى مقدمة القطار.. كان مستعجلاً جداً.

فهم برازفيل أن لوبين احتاط للأمر وأحضر معه أحد شركائه وأن هذا الأخير حمل الرسائل. وتأكد أيضاً أنه خسر القضية وأن لوبين يتمسك بفريسته الآن بكل قواه.. وما عليه إلا أن ينحني ويقر بشروط المنتصر. ثم اقترب من فورنغلاند وسار إلى جانبه وهو يتمتم:

ـ أما بالنسبة لك يا فورنغلاند فأنت تلعب بهذه الطريقة لعبة خطرة

ـ ولماذا؟

وذهب الاثنان. بينما بقي دوبريك الذي لم يقل كلمة واحدة مسمراً في مكانه.

اقترب منه الرجل العجوز وقال

ـ قل يا دوبريك هل يجب ايقاظك؟.. الكلوروفورم مثلاً؟ هل تتذكر ذلك اللقاء قبل بضعة أشهر يوم جئت اطلب إليك في منزلك في ساحة لامارتين أن تنقذ جيلبير وأتركك تعيش بأمان؟ وإلا سآخذ منك لائحة «السبعة والعشرون» وادمرك. واعتقد أني دمرتك الآن.. وداعاً يا دوبريك..

وابتعد.

وما أن سار لوبين بضع خطوات حتى سمع انفجاراً.

استدار ليرى ما حدث.

كان دوبريك قد وجه رصاصة إلى رأسه وتتطاير دماغه.

***

وبعد شهر من تخفيض عقوبة الاعدام إلى السجن المؤبد مع الاشغال الشاقة، تمكن جيلبير من الفرار من سجن جزيرة «دي ريه» وعشية اليوم الذي كان سينتقل إلى غوايان.

هروب محير لم تكشف تفاصيله.. ولكنه ساهم، كما حصل في بوليفار اراغو، في تدعيم تفوق ارسين لوبين.

***

بعد شهر قصّ عليّ لوبين تفاصيل هذه المغامرة وقال ان إعداد مخططتها الفعلي استغرق اثني عشرة ساعة وأنه يعتبرها بالطبع الساعات الأجمل والأكثر مجداً وعطاءً في حياته.

– وماذا حل بجيلبير؟

– يزرع أرضه في مكان ناء في الجزائر وتحت اسمه الحقيقي: انطوان مرجي، تزوج من امرأة إنكليزية وله ولد اسماه ارسين، اتلقى منه باستمرار رسائل حلوة. واليوم بالذات استلمت واحدة منه..

– والسيدة مرجي؟

– تعيش مع ولدها.. ومع صغيرها جاك أيضاً.

– هل عدت وشاهدتها من جديد؟

ـ لا...

ـ لماذا؟

تردد لوبين لحظات ثم قال لي باسماً:

ـ سأكشف لك عن سر يا صديقي العزيز قد تعتبره غريباً ومفزعاً وقد لا يروق لك على الإطلاق. ولكنك تعرف أنني كنت دائماً رهيف الاحساس كطالب وساذجاً كإوزة بيضاء.. ففي الليلة التي عدت فيها إلى كلاريس وأعلنت لها عن أخبار النهار.. شعرت بشيئين هامين في اعماقي: أولاً أني بدأت أشعر تجاهها بإحساس قوي يفوق كل ما كنت اتصوره.. فيما كانت هي، ثانياً، لا تشعر بنفس الشيء تجاهي ولكنها لا تكرهني ولا تحتقرني.. تقدرني تماماً وتحترمني إلى ابعد حدود الاحترام.

ـ ولماذا لم تقاسمك الشعور الأول مثلاً؟

ـ لأن السيدة مرجي.. هي إمرأة شريفة جداً وأنا لست.. سوى ارسين لوبين.

ـ غير معقول..

ـ بلى، أنا لص ظريف.. وسارق رومانسي.. شيطاني في العمق.. كل الصفات التي تريدها.. ولكن هذا لا يمنع.. وإزاء إمرأة شريفة من أن تتصرف بلباقة وصدق.. دعنا من ذلك.. اني في الواقع لست سوى نكرة بسيط.

فهمت أن جرحه كان اعمق مما يعترف به، فقلت له:

ـ هكذا احببتها إذاً؟

ـ اعتقد أنني طلبت أن اتزوجها.. بعد ان انقذت ابنها... وهذا ما ادى إلى البرود الذي قام بيننا.

ـ ولكن هل نسيتها منذ ذلك الحين؟

ـ طبعاً، طبعاً، ولكن بصعوبة بالغة.. ولكي أضع بيننا حاجزاً لا يمكن تخطيه.. تزوجت.

ـ لا، لا، أنت ارسين لوبين.. تزوجت؟

ـ نعم، ولم لا، تزوجت من واحدة من اشهر عائلات فرنسا، فتاة وحيدة وغنية جداً. أيعقل ألا تعرف هذه المغامرة أنها جديرة بأن تعرف.

وقصّ عليّ لوبين زواجه من انجليك سارزو فاندوم، أميرة بوربون كونريه، وهي اليوم الأخت ماري اوغيست، المقيمة في دير راهبات الدومينيكان..

ولكنه توقف عن الكلام ولم يرد أن يستمر في التفاصيل كأن بقية القصة لم تعد تهمه أو تعني له شيئاً على الاطلاق.. واستمر لحظات شارداً زائغ النظرات..

قلت له:

ـ ما بك يا لوبين؟

ـ أنا؟ لا شيء.

ـ بلى، وها انت تضحك.. اهل هو مخبأ دوبريك وعينه الزجاجية هو ما يضحكك؟

ـ لا. فعلاً.

ـ ولكن ماذا؟

- لا شيء، صدقني. مجرد ذكريات فقط.

. ذكريات جميلة؟

ـ نعم، نعم، ولذيذة أيضاً، كان ذلك في تلك الليلة عندما كنا نعود بجيليبر على ظهر قارب الصيد. كنت اجلس أنا وكلاريس وحيدين في مؤخرة المركب.. وأذكر أني تكلمت.. وقلت كلمات.. وكلمات.. وكل ما كان يطفح به قلبي.. وفجأة كان الصمت.. الذي يقلق.. ويعرّي.

ـ وماذا حدث؟

ـ اقسم لك أن المرأة التي احتضنتها وشددتها إلى صدري.. للحظات فقط.. وليس لمدة طويلة.. المهم.. أني اقسم بأنها لم تكن اماً فقط تعترف بالجميل ولا صديقة تستسلم، انما امرأة أيضاً، مرتجفة وقلقة...

وأضاف بلهجة ساخرة:

ـ وهربت في اليوم التالي كي لا تعود تراني مرة ثانية.

صمت من جديد. ثم عاد وتمتم:

ـ كلاريس.. كلاريس... عندما أكون تعباً ومرهقاً سأذهب للقياك في البيت العربي الصغير.. في البيت الأبيض الصغير حيث تنتظرينني يا كلاريس.. وحيث أنا متأكد من أنك تنتظرينني.



ما هو السر الكامن في هذه السدادة البلورية لكي تصبح مثار اهتمام عدد كبير من البشر ومن بينهم احد المجرمين القتلة؟
أصعب مرحلة في مسار التحقيق، كما يقول بطل الرواية أرسين لوبين، هو من اين يبدأ واي طريق يسلك في الكشف عن هوية المجرم وخصوصاً في غياب المعلومات.
كل مرة يقترب ارسين لوبين من اكتشاف المجرم، يتبيّن له انه يتجه في مسار خاطيء فيعاود المحاولة حتى يتأكد من النجاح بفضل عبقريته وبراعته.


1855132125